كيف نبني العائلة

المبادئ الأساسية الخمسة للتربية الفعّالة للأطفال

جون روزموند



دار العلم للملايين

كيف نبني العائلة

المبادئ الأساسية الخمسة
للتربية الفعّالة للأطفال



تأليف:
جون روزموند



دار العلم للملايين



دار العلم للملايين

شارع مار الياس ـ بناية متكو ـ الطابق الثاني
هاتف 306666 1 (961) + ـ فاكس: 701657 1 (961) +
ص.ب.: 1085-11 بيروت 2045 8402 ـ لبنان
Internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

الطبعة الأولى 2009

طبع في لبنان

First published 2009

ترجمة: سعيد العظم


@Ahmedyassin90

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر تتَّسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركًا فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتابًا واحدًا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدًا عمليًّا لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae.

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت ـ الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموّه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتها.


@Ahmedyassin90

الـمحتويات

الصفحة


@Ahmedyassin90

مقدمة

عودة إلى المستقبل

قبل سنوات قليلة كنت مسافرًا في الطائرة من مدينة شارلوت في ولاية نورث كارولاينا إلى مدينة ميامي في ولاية فلوريدا، وقد جَلَسَت على المقعد المجاور سيّدة متقدِّمة في العمر قالت لي إنَّها ذاهبة لزيارة عدد من أحفاد أولادها. تبادلنا أطراف الحديث عن نفسَيْنا فاكتشفتُ أنَّها وزوجَها رُزقا سبعة أولاد ناجحين جميعًا في حياتهم ـ ليس هناك حالات طلاق ولا إدمان ولا تخلخل في أوضاعهم. قالت السيِّدة إنَّها وزوجها بدآ حياتهما من لا شيء وقد عرفا قدرًا لا يُستهان به من الصعاب في مطلع مشوارهما. فخلال الحرب العالمية الثانية أدّى زوجها دورتين من الخدمة العسكرية مقاتلاً في الجبهة الأوروبية فيما كانت هي تعمل في مصنع للذخائر لدعم المجهود الحربي لبلادها. وكانت دار حضانة نهارية تابعة للحكومة ومُلحَقة بالمصنع تتولى رعاية أطفالها. أي أنّ هذه السيدة كانت أمًّا وحيدة عاملة في ظروف بالغة الشدّة، وهو وضع تعتقد نساء الجيل الحاضر أنَّه من اختراعهنّ كما يبدو.

وفيما كانت هذه السيِّدة تتحدَّث خطر لي أنَّ الآباء والأمهات من جيل اليوم يميلون إلى الاعتقاد بأنّ تربية الأطفال مهمّة شاقّة حتى في أيسر الظروف. غير أنَّ السيِّدة كانت تروي قصّتها ببساطة وتؤدة وكأنّها لم تعرف في حياتها شيئًا خارجًا عن المألوف.

قلتُ لها: «عليّ أن أسألك ما يلي: عندما ربّيتِ أطفالك هل كنتِ تشعرين بأن تنشئة الأطفال مهمة صعبة بشكل خاص، وهل كانت النساء من بنات جيلك يشاركنك هذا الشعور؟ هل كانت تنشئة الأطفال تتركك مستنزفةً عاطفيًا ومنهكةً جسديًا في آخر النهار ويومًا بعد يوم؟»

نَظَرَت إليّ وعلى محيّاها مسحة اندهاش وقالت: «ولِمَ ذلك؟ الإجابة هي لا. كان ذلك مجرّد عمل يؤدّيه المرء.»

مجرّد عمل يؤدّيه المرء. لم تكن تستهين بأهميّة تربية الأطفال بأي شكل من الأشكال. كانت تقول ببساطة إنّها قامت في حياتها كراشدة بعدد من الأدوار وكانت في كل حالة تبذل قصارى جهدها للقيام بالواجبات المترتّبة عليها. لقد قامت بوظيفة كلّ من الزوجة والأخت والابنة والموظّفة والصديقة والجارة والأم بطبيعة الأمر. وعلى الأرجح أن تكون قد أدّت خدمات مجتمعيّة من خلال إحدى الجمعيات النسائية. باختصار، لقد تولّت هذه السيدة على امتداد عمرها الثريّ بالتجارب واجبات ومسؤوليات كثيرة، كانت تربية الأطفال جزءًا منها.

والآن اسمحوا لي أن أصوغ هذه العبارة بشكل مختلف قليلاً: «لم تكن تربية الأطفال إلّا جزءًا واحدًا منها.»

وإذا اعتبرنا النتيجة مؤشّرًا لَصَحّ القول إنّها كانت والدة عظيمة بامتياز. لكنّها لم تسمح لتربية الأطفال بأن تستهلكها مثلما يحدث لأمّهات كثيرات في هذه الأيام. لقد حافظت هذه السيّدة على مهمّة تربية الأطفال ضمن إطارها الصحيح، فأوْلت احتياجات أطفالها العناية اللازمة، لكنّها لم تبالغ في التركيز عليهم ولم تجعلهم مركز حياتها فتمكّنت بالتالي من ممارسة واجباتها كأمّ بطريقة غير مُعَقّدة، يمكن على الأرجح وصفها بالمريحة.

ولا يجوز الخلط بين هذا الأسلوب والكسل، فشتّان بين الاثنين. لقد أصرّت على أن يُنصِت أطفالها وأن يطيعوا وأن يقوموا بواجباتهم وأن يكونوا مهذّبين وأن يبذلوا قصارى جهدهم في المدرسة وخارجها وأن يكونوا مستعدّين لمساعدة

الآخرين. لكنّ إصرارها هذا لـم يكن مشوبًا بالتوتّر وقد أبلَغَتْهم مشيئتَها بحزم وهدوء. والأرجح أنّها لـم تصرخ أبدًا في وجه أطفالها بل كانت تخاطبهم بـما كان يُسمّى «عبارات لا لبس فيها» وأنّهم كانوا يدركون أنّ عدم الطاعة لـم يكن خيارًا متاحًا لهم.

ما أشدّ التباين بين هذه السيدة والوالدين من هذا الـجيل، لاسيّما أمّهات أيامنا هذه!

ويبدو أنّه صار من الـمسلَّم به اليوم أن تُعتبر تربية الطفل، أو رعايته والديًّا كما يقال الآن، أصعب مهمّة على الإطلاق على حدّ ما قاله لـي آباء وأمهات كثيرون. كيف أصبحت هذه الـمهمّة صعبة إلـى هذه الدرجة بعد أن كان معظم الوالدين قبل خمسين سنة وما سبق يعتبرونها عملاً بسيطًا وخاليًا من التعقيد إلـى حدٍّ كبير ؟

قد يجيب بعضهم بالقول: «هيّا يا جون، لا تكن ساذجًا. لقد تغيَّرت الأزمنة!»

لكنّ ذلك لا يفسّر شيئًا في الواقع، فالأزمنة ما فتئت تتغيَّر طول الوقت. وجدّاي اللذان وُلِدا في تسعينيات القرن التاسع عشر شهدا خلال أعوامهما الثلاثين الأولـى تغييرات أكثر مـمّا شهد أيّ شخص يقرأ هذا الكتاب (فكّروا في ظهور السيارات والطائرات والهاتف واندلاع الـحرب العالـمية الأولـى). غير أنّ تربية الأطفال لـم تتغيّر. فقد ربّى جدّاي أطفالهما مثلـما تـمّت تربيتُهما من قبل. ووالداي اللذان أبصرا نور الـحياة حوالـى العام 1920، عرفا في حياتهما تغييرات أكثر من أيّ شخص يربّي أطفالاً اليوم (فكِّروا في التنانير القصيرة ـ الـميني ـ والانهيار الاقتصادي الكبير والـحرب العالـمية الثانية والقوّة النوويّة). لكنّهما ربّياني وفق الـمفاهيم والـمبادئ ذاتها التي اهتدى بها والديهما واستخدما الأساليب نفسها إلـى حدّ بعيد. كلا، إنّ عبارة «لقد تغيَّرت الأزمنة» لا تفسّر شيئًا لأنّ تربية الأطفال لـم تتغيَّر مع تغيّر الأزمنة في عصر ما بعد الـحداثة (الذي بدأ جدّيًّا حوالـى العام 1960). إذًا، ما السبب وراء تـحوّل أمر كان بسيطًا في الـماضي إلـى عمل معقّد، تـحوّل أمر كان سهلاً نسبيًّا في الـماضي إلـى عمل مـجهد وصعب إلـى أقصى درجة؟

السببُ في ذلك أناسٌ مثلي، أناس يحملون ألقابًا علمية إلى جانب أسمائهم: أخصّائيون نفسيون، عاملون اجتماعيون، باحثون في تطوّر الطفولة، معالجون أُسَريّون وما شابه من أصحاب المهن. هؤلاء «الخبراء» ابتدعوا كلمة «الرعاية الوالدية». وعندما بدأ الآباء والأمهات الأميركيون يسمعون الخبراء المفترَضين يقولون إنّ تربية الأطفال أصبحت الآن «رعاية والدية» تحوّل الأمر إلى «أصعب شيء» يمكن لأي إنسان أن يواجهه في حياته كراشد. إنّني مجاز لممارسة مهنتي كأخصّائي نفسيّ في ولاية نورث كارولاينا الأميركية، وهي إجازة مُعتَرف بشرعيتها في جميع الولايات التسع والأربعين الأخرى الباقية (رغم أنّهم يعتبرونني مهرطقًا في مهنتي). ومن هذا المنطلق أقول إنّ أناسًا مثلي عكّروا مياه تربية الأطفال التي كانت صافية في ما مضى وخرّبوا بساطتها وكادوا أن يقتلوا عقلانية العملية برمّتها.

في ما مضى، عندما كان الوالدون يحتاجون إلى نصيحة ما (وكثيرًا ما احتاجوا إليها)، كانوا يطلبونها من أشخاص أكبر سنًّا، من الأقرباء أو أهل المجتمع ومن الجيران في معظم الأحيان. واليوم لا يثق الوالدون في نصائح كبار السنّ في ما يتعلّق بـ «الرعاية الوالدية»، بل يضعون ثقتهم في «خبراء» من أمثالي. وبدل السير قليلاً في الشارع وطرق باب أحد الجيران والاستئذان في الدخول للتحدُّث برهة، يذهبون إلى مكتبة ضخمة ويشترون كتابًا. أليست هذه هي الطريقة التي أوصلت هذا الكتاب إلى أيديكم؟ متى كانت آخر مرة اتّصل فيها أحدكم بأمّه لسؤالها عن أمور تتعلّق بتربية الأطفال؟

دأب الناس في ما مضى على تربية أطفالهم بالطريقة ذاتها التي تربُّوا عليها، ثم جاء الخبراء المفترضون وقالوا إنّ الأسلوب القديم لتربية الأطفال سيّئ لهم لأنّه يثلم نفسيّتهم ويجرح قدسية «الطفل الداخلي» فيهم ويسلبهم حقّ الاعتداد بالنفس ويجعلهم ينشأون ملتزمين «قضايا». وقال هؤلاء الخبراءُ المحترفون أدعياءُ آخِرِ زمن إنّ كلّ ما يتعلّق بتربية الأطفال يجب أن يتغيّر إذا أُريد تزويد الأطفال بأفضل صحّة عقلية ممكنة ـ أي باعتداد عالٍ بالنفس. وهكذا أصبحت تربية الأطفال «رعاية والدية» وصارت «الرعاية الوالدية» أصعب شيء... ولم يسبق في تاريخ البشرية أن

كانت لأمّة مجموعة أطفال قليلي التهذيب سيِّئي السلوك مثلما نرى اليوم، ناهيك عن كونهم معرَّضين لمشكلات من كل نوع يمكن تصوُّره أو حتى ابتداعه في المستقبل.

ومنذ ابتدأ الآباء والأمهات الأميركيون في رفض دورهم التقليدي كمربِّين واعتناق ما أُسمِّيه أنا «الرعاية الوالدية النفسية لعصر ما بعد الحداثة» أخذ كلّ مؤشّر على الصحة العقلية الإيجابية لأطفال أميركا يتدنّى بالتدريج، وهو أمر لا تخفى دلالته على أحد. ويكفي أن نورد هنا مثالاً واحدًا على ذلك: في الولايات المتحدة تضاعفت ثلاث مرّات احتمالاتُ إقدام طفل اليوم على الانتحاب قبل عامه السادس عشر، وتضاعفت خمس مرّات على الأقل احتمالات تشخيص اكتئاب حادّ لدى الطفل قبل العمر ذاته. أليس من المثير للاهتمام مثلاً أنّ مرض فقدان الشهية العصبي (anorexia nervosa) لم يكن موجودًا عندما كان يُقال للأطفال الأميركيين إنّ عليهم أن يأكلوا أيَّ طعام يضعه ذووهم على المائدة لأنَّ أطفال أوروبا كانوا يموتون جوعًا؟

وابتداءً من ستينيات القرن العشرين راح «الخبراء» يقولون للآباء والأمهات الأميركيين إنّ عليهم التوقّف عن استخدام أساليب التأديب والقصاص التي كان والدوهم يلجأون إليها، وهذا ما حدث بالفعل. وكنتيجة مباشرة لهذا الواقع أصبح والدو اليوم ـ أي بعد جيل واحد من بدء هذه الثورة التربوية ـ يعانون من مصاعب في مجال التهذيب تفوق ما كان يستحيل على أجدادهم حتى تخيّل إمكان حدوثه.

قالت لي امرأة في مدينة لافاييت بولاية لويزيانا الأميركية قبل عدّة سنين: «جون، أنا واثقة تمامًا من أنّنا، زوجي وأنا، واجَهْنا خلال أربع سنوات متاعب مع طفلَيْن تفوق كلّ ما واجهه والداي مع أولادهما العشرة طوال الوقت!»

هذا أمر مؤسف جدًّا، وأنا أعتقد أنَّ من شأن معظم الآباء والأمّهات الأميركيين أن يقولوا الشيء ذاته لو سُئلوا. وما هو أكثر مدعاة للأسف أنَّ هذا الواقع كان نتيجة حتمية لأخذ شيء لم يكن فاسدًا والإصرار على ضرورة إصلاحه. وهكذا دفعت نصيحة «الخبراء» آباء أميركا وأمهاتها إلى نبذ شيء لم يكن معطوبًا والاستعاضة عنه بنظام آخر ربّما بدا واعدًا، لكنّه لم يحقّق أيًّا من الآمال التي كانت معقودة عليه.

لقد اشترى الوالدون الأميركيون حيوانًا مُخبّأً في كيس ظنّوه نافعًا لهم، لكنْ تبيّن لهم أنّ هذا الحيوان لم يكن عديم النفع فحسب، بل كان مؤذيًا أيضًا.

الحقيقة هي أنّ تربية الطفل ليست معقّدة، أي أنّها ليست صعبة. ومن الطبيعي أن تكون هناك لحظات عسيرة وأن يشكّل بعض الأطفال منذ البداية تحدّيًا أكبر من أطفال آخرين، لكنْ إذا كان ثمّة والد (أو والدة) يجد أنّ تربية طفل أو أطفال عمل صعبٌ عمومًا ومنهِكٌ عاطفيًّا وعقليًّا وحتى جسديًّا، فلا ريب في أنّ هذا الوالد يرتكب خطأً ما، وإذا كانت «الصعوبة» هي السمة الغالبة فلا بدّ وأن يكون سلوك الوالد غير سليم، مثل أن تحاول أُمٌّ أن تكون صديقة لطفلها أو أن تكون أولوياتها مختلطة. لقد أصبحت هذه الأُمُّ أسوأ عدوٍّ لنفسها لأنّها لا تفهم القواعد الأساسية للتربية الناجحة، أي المنطق البسيط للعملية بكاملها، والعبارة التالية ثابتة بديهيًّا: إذا انبريت لتنفيذ عمل دون فهم القواعد الأساسية فستكون المهمّة صعبة. افهم القواعد الأساسية وستصبح المهمّة سهلة نسبيًّا.

إنّ الانتشار الشامل للشكوى (أمْ هل هي مباهاة؟)، كقول «إن تربية الطفل أصعب عمل قمتُ به في حياتي»، هو مؤشّر على أنّ أولويات الوالدين الأميركيين مختلّة إلى درجة خطيرة. إنّني متزوّج منذ سبعة وثلاثين عامًا ويسعدني أن أقول إنّ أصعب شيء فعلته في حياتي هو البقاء متزوّجًا طوال هذا الوقت. بالمقارنة مع ذلك كانت مشاركتي في تربية طفليْن تجربة ممتعة عِلْمًا بأنّهما لم يكونا ولدين سهلَي المراس على الإطلاق. لذلك تقودني تجربتي إلى استنتاج أنّ الناس الذين يتذمّرون من مدى صعوبة تربية الأطفال يرتكبون في مكان ما خطأً فادحًا جدًّا. وإذا لم يكن الإبقاء على زواجهم أصعب ما قاموا به في حياتهم (على فرض أنّهم ما زالوا متزوّجين) فمن المؤكّد أنّهم يزدرون زواجهم من خلال إيلاء أطفالهم كلّ هذا الاهتمام المفرط.

وكأيّ مهمة أخرى، الهندسة مثلاً، تصبح تربية الأطفال سهلة نسبيًّا إذا فهم الإنسان أصولها ومبادئها وأجاد تطبيقها.

إنَّ قراءة هذا الكتاب لن تُعَرِّفكم هذه المبادئ والأصول فحسب، بل ستزوِّدكم بالمهارات اللازمة لتجيدوا تطبيقها. وانسجامًا مع فكرة إبقاء مادة الكتاب سهلة قمت باختصارها في خمسة مبادئ أساسية تستطيعون عدّها على أصابع اليد. وقد يطيب لكم أن تكتبوا مبدأً واحدًا منها على كلّ إصبع (حتى الإبهام) لكي تبقى دائمًا على قيد أنملة منكم أو في متناول أيديكم كما يُقال.

لكنْ قبل أن نصل إلى المبادئ الأساسية علينا أن نفهم ماهية تربية الطفل ككل ـ أي الهدف من التربية ـ ذلك أنَّ المبادئ يجب أن تكون موجَّهة نحو هدف ما لأنّها الوسيلة لتحقيق هذا الهدف. ولكم أن تصدِّقوا أو لا أنَّ معظم الوالدين اليوم لا يستطيعون أن يقولوا ما هو الهدف الذي يريدون تحقيقه. لقد وجَّهتُ إلى عدد من الآباء والأمهات السؤال التالي: «ما هو هدفكم؟» فكان معظمهم ينظرون إليّ باستغراب وكأنّني أخاطبهم بلغة أهل المرّيخ. كما كان البعض يعطيني إجابة من هذا النوع: «أريد أن يكبر طفلي وأن يكون سعيدًا.»

إنَّ السعادة ليست هدفًا. إنَّها النتيجة غير المقصودة لتحقيق هدف ما. أجل، إنَّها غير مقصودة. كان الهيبّيّون آخِر جماعة من الناس اعتبرت السعادة بحدّ ذاتها هدفًا لها ومن أجل ذاتها. لكنّهم لم يجدوا السعادة، كانوا من أتعس الناس على الإطلاق وأنا أعرف هذه الحقيقة تمامًا لأنَّنا، زوجتي وأنا، حاولنا أن نكون هيبّيّين لعدّة سنوات في أواخر الستّينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين. صدِّقوني، كان الهيبّيّون يتظاهرون بأنّهم سعداء، ولم تكن لهم أيَّة أهداف لأنَّ السعادة ليست هدفًا كما قلتُ سابقًا.

لم يحقِّق الهيبّيّون شيئًا لأنَّه يستحيل عليك أن تحقِّق أي شيء إذا كان هدفك هو أن تكون بلا هدف. والهيبّيّون الوحيدون الذين حقَّقوا أيّ شيء كانوا أمثالي الذين أفاقوا من حلمهم المزعج وأقلعوا عن كونهم هيبّيّين. أجل، السعادة هي النتيجة غير المقصودة للقيام بأمور وفق الطريقة الصحيحة للقيام بها والعيش حياة فاضلة والتحلّي بصفات الجار الطيِّب والنهوض بالمسؤوليات كما يجب والتزام الأمانة في التعامل مع الآخرين والتعاطف مع الأشخاص الأقلّ حظًّا في الحياة

والامتناع عن إيذاء الناس وما إلى هناك من محاسن الأخلاق. أتريد أن تكون سعيدًا؟ إذن اتبع الوصايا العشر.

كدليل آخَر على أنَّ السعادة الحقيقية هي نتيجة غير مقصودة، انظروا إلى الناس الذين يقولون عبارات مثل «لو حصلتُ على منزل جديد (أو وظيفة جديدة أو سيارة جديدة، إلخ...) لكنتُ سعيدًا.» فهل لاحظتم أنَّ هؤلاء يظلُّون غير سعداء عندما يحصلون على منازلهم أو وظائفهم أو سياراتهم الجديدة أو أي شيء آخَر يتمنّونه. لذا أكرِّر القول إنَّ السعادة هي النتيجة غير المقصودة لعيش حياة صحيحة وليس الحصول على الشيء «الصحيح».

وقد عبَّر عن ذلك بطريقة تكاد أن تكون أفضلَ ما سمعت رجلٌ جاءني أخيرًا أثناء الاستراحة في ندوة كنتُ أديرها في مدينة هيلتون هيد (Hilton Head) في ولاية كارولاينا الجنوبية وقال: «جون، انسجامًا مع الموضوع الذي كنتَ تتحدَّث عنه، لم يكن والداي يفكِّران في الأمور المتعلِّقة بسعادتي. لقد أرادا لي أن أصبح إنسانًا فاضلاً وكانا يقولان دائمًا: «إذا كنتَ فاضلاً فستكون سعيدًا أيضًا.»»

والأرجح أنَّ والديه لم يقرآ في عمرهما كتابًا عن تربية الأطفال، لكنَّهما كانا يعرفان بفطرتهما أنَّ هدفهما ينبغي أن يكون تنشئة طفل ليصبح إنسانًا طيِّبًا شريفًا، إنسانًا يفعل الأمور الصحيحة بالرغم من عدم وجود مكافأة على ذلك. كان الوالدان يعلمان أنَّ إنسانًا كهذا سيكون سعيدًا، لكنَّ تنشئة طفل سعيد لم تكن غايتهما. كان الهدف تنشئة طفل صالح يفعل الأمور الصحيحة حتى عندما تكون الغواية له بالمرصاد. لقد كانت السعادة نتيجة جانبية.

في طفولتي كان من الأمور التي يطيب للأهل والمعلّمين قولها (إلى جانب عبارة «لأنّني قلت ذلك»): «إنَّ المواطنية الصالحة تبدأ في المنزل». ومع عودتي إلى التفكير في هذه المقولة أدركت في نهاية المطاف أنّ الناس في مرحلة ماضية لم يكونوا حتى يربّون أطفالاً. كانوا يربّون أشخاصًا راشدين. لقد كان الآباء والأمهات قبل فترة ليست بطويلة، أي قبل أن تجتاح البلادَ فكرةُ الرعاية النفسية الوالدية لفترة ما

بعد الـحداثة، يركِّزون أبصارهم على خطّ الأفق. ببساطة، لـم يكونوا يحاولون أن يـمرِّروا يومهم بسلام يومًا بعد يوم. كانوا، في كلّ ما يفعلونه تقريبًا، يتطلَّعون بكامل وعيهم إلـى هدف تنشئة مواطن صالـح، إنسان من النوع الذي حاولتُ وصفَه في الفقرات السابقة.

لقد تعرَّض الآباء والأمّهات الـحاليّون إلـى عملية غسل دماغ. يظنّون أنَّ الأمر كلّه متعلّق بشيء يُسمّى الاعتداد القوي بالنفس. وسأخصِّص فصلاً كاملاً لكنس كلّ الهراء السيكولوجي الذي تَراكم حول هذا الـمفهوم الـخاطئ. لكنِّي أودّ الآن الاكتفاء بالتشديد على جملة منطقية فعلاً ومتناقضة ظاهريًا سبق ولـمّحت إليها: عندما اعتُبر الهدف من تربية طفل إنتاج مواطن صالـح كان الأطفال أسعد بكثير. وإذا اعتبرنا معدّلات إصابة الأطفال بالاكتئاب الإكلينيكي بالنسبة إلـى عدد السكان في ذلك الوقت والآن كمؤشِّر مقبول، لاستنتجنا أنَّ أطفال الزمن السابق كانوا أسعد خمس مرات على الأقلّ من أطفال اليوم. ولا بدّ أن يقول لكم ذلك أمرًا واحدًا هو أنَّ «الـخبراء» كانوا مـخطئين تـمامًا.

وسنخصِّص بقية هذا الكتاب لتصحيح هذا الـخطأ.



1
الـمبدأ الأساسي الأول للرعاية الوالدية:

الغاية هي الأسرة كلّها، لا الأطفال فقط
(أو: الأهمّ قبل الـمهمّ)

قلتُ في نهاية مقدمة هذا الكتاب «إنَّ الـخبراء كانوا مخطئين تـمامًا». وقصدت بذلك طبعًا علـماء النفس وسواهم من أخصائيِّي الصحة النفسية الذين بدأوا في ستينيات القـرن الـماضي يظهرون على الناس كمروِّجين ماكرين لـمفهوم الرعاية الوالدية الأميركية (وبدعم ماجن من وسائل الإعلام). وأُقنِعَ الآباء والأمهات الأميركون بنبذ مبادئ تربية الأطفال وأساليب الرعاية الوالدية التي أدّت للحضارة الغربية خدمات جليلة لآلاف السنين وتقبّل أفكارٍ عن تنشئة الأطفال فُصِّلت من قماشة مـختلفة تمامًا. وبعد أن كان الوالدان نقطة ارتكاز العائلة أصبح الأطفال هم نقطة الارتكاز. فيـمكن القول إنَّ الأب والأم أبطلا زواجهما وتزوّجا أطفالهما. ومنذ ذلك الـحين انقلبت أوضاع الأُسرة الأميركية رأسًا على عقب وأصبح الداخل خارجًا والـخارج داخلاً وانعكس كلّ شيء.

(*) ملاحظة: الأقوال التوراتية والإنجيلية الواردة في الكتاب مأخوذة من النسخة العربية للكتاب المقدّس الصادر عن جمعية الكتاب المقدّس في لبنان.

هل أصبح «الـخبراء» أكثر تعقّلاً؟ كلا. خُذوا مثلاً الدكتور فيل* الذي بدأتُ أهتمّ بظاهرته عندما صار الناس يقولون لـي إنَّني وإيَّاه متشابهان كثيرًا، وذلك بعد فترة قصيرة من اقتحامه الساحة الإعلامية كعالِـم نفسيّ في برنامج أوبرا وينفري التلفزيونـي. وبـما أنّي فضولـي بطبيعتي فقد زرت موقعه على شبكة الإنترنت ورأيت فورًا عددًا من «الأعلام الـحمراء»، أي علامات إنذار خطيرة. شاهدتُ أولاً نصيحة يوجِّهها الدكتور فيل إلـى الناس في مـجال «تصحيح» العلاقات في ما بينهم، هي مغالطة استعلائية، إذ يقول:

«الأمر لا يتعلّق بـما هو حقّ وباطل، بل بـما ينجح، ما يحقِّق الـمأرب.» ومثل هذه العبارة تنبع من فلسفة أرفضها أنا هي الذرائعية (pragmatism) القائلة فعلاً إنّ الغاية تبرِّر الوسيلة. ويتبنّى الذرائعيون كلّ ما هو نفعي وملائم لغاياتهم ويعتقدون أنّ الـمبادئ الأخلاقية تركيبة ذات معايير نسبية. ويقول الكاتب جون أف. ماكآرثر (John F. McArthur) في كتابه «قوة الاستقامة» (The Power of Integrity) عن الذرائعية «إنَّها مفهوم يؤدّي بصورة مـحتّمة إلـى فساد الضمير والـمعتقدات.»

إليكم الآن ردّي على مقولة الدكتور فيل الذرائعية: كلا، الأمر لا يتعلَّق بـما يحقِّق الـمأرب، بل ما هو حقّ وما هو باطل. وأنا، من ناحيتي، أفضِّل أن أفعل ما هو حقّ حتى لو لـم «ينجح». وما يطمئنني هو أنّي لست وحيدًا في إيمانـي هذا. وعلى عكس ما يبدو أنَّه مُعتقَد الدكتور فيل، يقول الواقع إنَّه لا وجود لشيء اسمه «السلوك الـخُلُقي الـمحايد» فهذا تلفيق من أهل ما بعد الـحداثة يرحِّب به أولئك الراغبون في إيجاد عذر للتهاون الـخُلُقي وإجازة للاعتقاد بأنّ الغاية تبرِّر الوسيلة.

ومن الواضح أنّ الدكتور فيل ينطق باسم الناس الذين لا يؤمنون بوجود الـحقيقة الكونية ويعتقدون أنّ الـحقيقة تعرِّف عن نفسها بنفسها ويـمكن اكتشافها عبر الاستيطان الذاتي (introspection)، أي عبر الـغوص في داخـل الـذات واكـتشـاف «الطفل الداخلي» أو «البوذا الداخلي»، وهو ما تؤمن به راعية الدكتور فيل أوبرا

(*) الدكتور فيل صاحب برنامج استشاري عائلي تلفزيونـي في الولايات المتحدة تشاهده عشرات الملايين من الناس وتبثّه محطات تلفزيونية كثيرة في العالـم.

وينفري. وتتبيَّن وجهة النظر هذه في كثرة استخدام أوبرا عبارة «حقيقتك»، وهي نظرة إلى العالم تبرِّر التركيز على الذات أو الأنانية وادّعاء الفضيلة وإنكار القيم الثابتة للحقّ والباطل. لذلك أعرف مباشرة أنَّنا ـ الدكتور فيل وأنا ـ لسنا من مذهب فكري واحد.

الأمر الثاني الذي أثار اهتمامي لدى الدكتور فيل هو الاتّساع المفترض لعلومه وخبرته. في وسعه أن يساعدكم على زيادة ثقتكم بأنفسكم، وأن يُصْلح زيجاتكم (أو أية علاقات اجتماعيَّة أخرى تُقيمونها)، وأن يقوِّم حياتكم الجنسية وأن يصوِّب علاقاتكم المهنية؛ كما يستطيع أن يساعدكم على تخفيض أوزانكم.

بعبارات أخرى، يدّعي الدكتور فيل أنه قادر على أن يكون **كلّ شيء لكلّ الناس**، أن يكون **الشخص المستنير** لعصر ما بعد الحداثة الذي يحمل مفاتيح كلّ باب يؤدِّي إلى الرضا الشخصي. وغنيّ عن القول إنِّي أشعر بقدر لا بأس به من الارتياب إزاء الأشخاص الذين يتقدّمون بمثل هذه الادعاءات الفضفاضة. ومن المؤسف أنَّ أشخاصًا كثيرين جدًّا ينخدعون بهذه الأضاليل كما يتبيّن من استبيانات شعبية برامجه التلفزيونية.

الأمر الثالث الذي أدهشني كان تواضع الدكتور في ادّعائه أنَّ الناس يستطيعون أن يحقِّقوا تغييرات إيجابية خارقة في غضون خمسة أيام إذا طبّقوا نصائحه! تصوَّروا ذلك! إنَّ وعدًا بهذا الضخامة يلقى قبولاً لدى شخص ذي قدرة تركيز قصيرة الأمد، أي ميّال إلى الإرضاء الآني لنزواته. وفي حين يمكن لشخص أن يشعر بما يعتبره تجربة دراماتيكية مغيِّرة لحياته نتيجةً للمشاركة في برنامج علاج جماعي مركّز أو «لقاء» لمدّة تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة (انظر موقع الدكتور فيل Get Real Challenge ـ أي واجِه التحدِّي الكبير)، فإنَّني مقتنع بفضل خبرتي الشخصية والمهنية بأنَّ هذه «التغيُّرات» لا تدوم. إذ لا تكاد تمضي ثلاثة أشهر، بل حتى ثلاثة أسابيع حتى يعود هذا الشخص إلى المربّع الأول فيلقي اللوم على الآخرين ويتصرّف كضحية ويفرض ادعاءاته النرجسية بالفضيلة على كلّ مَن يحيط به، وذلك بعد أن يكون قد خرج من تجربته مليئًا بالعزيمة على تغيير أسلوب حياته، مردِّدًا بلا كَلَل تُرَّهاته عن الحقائق التي تكشّفت له. إنَّ كل ما ينادي به الدكتور فيل مفضوح كنتاج **للزمن الجديد**،

للذرائعية، للفكر الإنساني العلماني، لمذهب النسبية الخُلُقية ولعصر ما بعد الحداثة.

بعد ذلك تمعّنتُ في بعض برامجه التلفزيونية، وواظبت على هذا المنوال على مدى السنين. هناك ما يزعجني كثيرًا في وضع أناس أمام عدسات التلفزيون وتشجيعهم على الاعتراف بأمور شخصية مخزية كالزنا، مثلما حدث أخيرًا في أحد برامج الدكتور فيل. هذا تشهير ونشر للفضائح تحت قناع العلاج، وهو أسلوب يجعل برنامج الدكتور يبدو كنسخة أرقى قليلاً فقط من برنامج جيري سبرنغر **Jerry Springer** الفضائحي. لكنْ ربّما لا يتعلّق الأمر بما إذا كان هذا السلوك صحيحًا أو خاطئًا بل باستبيانات الشعبية، ونتائج هذه جيدة.

أثار اهتمامي كتاب الدكتور فيل «العائلة أوّلاً» (Family First) لأنّه يتعاطى موضوعًا عَمَليًا. اشتريت الكتاب وقرأته ولم أُفاجأ بمضمونه. كان إلى حدّ ما مثلما توقّعته: تكرار دقيق سياسيًا وسيكولوجيًا للّغو العتيق ذاته الذي ما انفكّ الآباء والأمهات الأميركيون يسمعونه من «خبراء» المذهب الرئيسي للرعاية الوالدية منذ أكثر من ثلاثين عامًا. رغم أنّ عنوان الكتاب يوحي بأنّه يتحدّث عن تكوين أُسْرة قويّة، يتركّز المضمون برمّته على تنشئة الأطفال وإعارتهم كلّ انتباه وإقامة علاقات رائعة بهم. وخُصِّص جزء كبير من الكتاب لسرد اقتراحات في موضوع تهذيب الأطفال، أي أنّ الكتاب كلّه هو عن الأطفال. لا يذكر الدكتور فيل ولا مرّة واحدة أنّ التربية الفعّالة حقًّا للأطفال تعتمد على زواج متين وأنّ الرباط بين الأب والأم يجب أن يكون أقوى من الرباط بين الوالدين والطفل. في الواقع كان الاستنتاج الوحيد الذي أمكن الخروج به عقلانيًا من الكتاب هو أنّ الدكتور فيل يؤمن بأنّ أُسْرة قوية تعني علاقة قوية بين الوالدين والطفل.

في بعض الحالات يقدّم الدكتور فيل ما أعتقد أنّها نصائح ضارّة تمامًا. يقول مثلاً في الجزء الخاص بالأُسَر التي تضمّ طفلاً (أو أكثر) هو ليس ولد أحد الزوجين، إنّ على زوج الأم أو زوجة الأب التنحّي جانبًا عند تأديب طفل (أو أطفال) من هذه الفئة وترك المهمّة للأب أو الأم البيولوجيَّيْن. إنّ هذه النصيحة وصفة كارثية! فعندما

يتعلّق الأمر بالأطفال يتمثَّل السبب الرئيسي لارتفاع نسبة الفشل بين الزيجات الثانية مقارنةً بالزيجات الأولى في أنَّ الوالدين البيولوجيّين يرفضون إعطاء زوجاتهم أو أزواجهنّ سلطة تأديبية كاملة. وعادة ما ينطوي الأمر على رفض الأمهات السماح لأزواجهنّ بتأديب أطفالهنّ من زواج سابق، وهكذا يوضع «زوج الأم» على هامش الحياة العائلية ويصبح متفرِّجًا وشخصية ثانوية. يصبح شخصًا تقتصر أهميَّته على أنَّه يتيح للأم وطفلها أو أطفالها حياة أفضل ممّا لو لم يكن هو موجودًا، وعلى مساعدة الأم في مهمّات التنقّل (إيصال الأطفال إلى نشاطات ما بعد المدرسة) وإشباع رغباتها الجنسية. هذه الصور لا تَصِف أُسْرة حقيقية، إنَّها تصف الفشل المستشري في الكثير من العوائل التي توصف بالمختلطة أو ذوات الأطفال من زيجات سابقة.

وعندما أتحدَّث مع أناس تزوَّجوا أشخاصًا لهم أطفال من زيجات سابقة أسمع اللازمة نفسها مرّة بعد مرّة: «ليس مسموحًا لي أن أؤدّب أطفاله / أطفالها» إذ يُفترض في ذلك أن يشوِّش الأطفال كما تقول بعض الكتب التي قرأها المعنيّون. «أنا لست أمَّهم الحقيقية / أباهم الحقيقي وإذا أدّبتُهم فسيكرهونني وسيُفرِغون هذه الكراهية على زوجي / زوجتي، أي أبيهم الحقيقي / أمّهم الحقيقية، لأنَّهم يشعرون بأنَّهم تعرَّضوا للخيانة من قِبَل الوالدين الحقيقيين. هذا على الأقل ما يُفترض بي أن أصدِّق. ليس لدى هؤلاء الأطفال أي دافع لاحترامي، فاستنتجتُ بالتالي أنَّ دوري يقتصر على جعل حياتهم أكثر سهولة. في الوقت ذاته يُفترض بي أن أتفهّم ازدراءهم لي لأنَّهم يُعانون من نزاعات الطلاق، وهذا هو السبيل الوحيد المتاح لهم للتعبير عن غضبهم. يُقال لي إنَّ قيامي بتأديبهم سيؤدّي فقط إلى مزيد من المشكلات النفسية لديهم. إذًا ماذا يُفترض بي أن أفعل في مثل هذه الظروف؟»

تكشف نصيحة الدكتور فيل بشأن هذه القضية قلّة تقديره لما تعنيه حقًّا كلمة عائلة. إنَّ العائلة وحدة اجتماعية تنتظم من وجهة نظر مثالية على أساس زواج متين. أقول من وجهة نظر مثالية لأنَّ العائلة المرتكزة على والدة أو والد فقط يمكن أن تستمرّ وأن تؤدِّي وظيفتها بصورة حسنة، لكنَّها بالتأكيد ليست العائلة المثالية. وأنا واثق من أنّ معظم الآباء والأمهات الوحيدين يوافقونني على ذلك. وتعتمد قوة الأُسْرة

ذات الأبوين على متانة الزواج، كما أنّ لمتانة الزواج أهمية حاسمة بالنسبة إلى أحاسيس الأطفال. ولا فارق على الإطلاق في ما إذا كان شريكا الزوجية أبوَين بيولوجيَّين أو أبوَين بالتبنّي أو كان لأحدهما أطفال من زواج سابق. وأؤكِّد هنا من جديد أن قوّة الأُسْرة تعتمد على متانة الزواج الذي كوّن هذه الأُسْرة.

نعم، الأمّ الوحيدة وأطفالها يشكِّلون عائلة، لكنّ هذه الأُمّ الوحيدة عندما تتزوّج مرة أخرى لا تضيف فقط رجلاً جديدًا إلى عائلتها الموجودة بالفعل بل تكوِّن هي وزوجها الجديد عائلة جديدة تمامًا. ولا يبقى هنا وجود للعائلة القديمة، فهذه عائلة جديدة تحتاج إلى قواعد وتفاهمات جديدة من بينها أنّ زوج الأم يجب أن يمارس سلطة تأديبية كاملة على الأطفال. ثمّة قاعدة أخرى هي أنّ على الأطفال إطاعة زوج أمِّهم. وإذا لم تُرسَ هذه القواعد والتفاهمات منذ اليوم الأول فسوف تعاني العائلة من مشكلات ومتاعب. عندما تتزوج الأمّ من جديد عليها أن «تطلّق» أطفالها بطريقة لطيفة. ومن واجبها أن تبلغهم سلفًا بأنّ هذا ما سيحدث كي لا يتوهّموا أنّ أمّهم ستظلّ «لهم» بمعنى الملكية، بعد زواجها الجديد.

كلا، أنا لست «شبيهًا» بالدكتور فيل. كلانا يعبِّر عن رأيه بصراحة وهنا فقط يبدأ الشبه بيننا وينتهي.

درس في الزواج وماهية الأُسْرة

أودّ الآن أن أعود إلى أمر تحدّثت عنه سابقًا هو أنّ العلاقة بين الزوج والزوجة يجب أن تكون أقوى من العلاقة بين أيٍّ منهما من جهة وأيٍّ من الأطفال أو الأطفال كمجموعة، من جهة أخرى.

في إحدى المقابلات طرح عليّ صحافي السؤال التالي: «ما هي أكبر مشكلة ستواجه أطفال اليوم عندما يصبحون كبارًا؟»

أجبته قائلاً: «إنّ معظمهم لا ينمّون حسًّا عمليًّا بالمعنى الحقيقي للزواج وبالتالي العائلة.»

يُمنع أطفال اليوم بصورة نمطية من تعلّم المعنى الحقيقي للزواج من قِبَل والدين ذوي نوايا حسنة. لكنّهم نادرًا ما يتصرّفون في إطار دورهم كأزواج وزوجات بل انطلاقًا من دورهم كآباء وأمهات ومن دون استثناء تقريبًا. هذه هي النظرية المثالية الأميركية الجديدة القائمة على المفهوم الخاطئ المستحدَث الذي يقول: «كلّما زاد اهتمامك بطفلك زاد ارتباطك به، وكلّما زاد ما تفعله من أجل طفلك أصبحت أبًا (أو أمًّا) أفضل.»

أنا أنتمي إلى آخِرِ جيل من الأطفال الأميركيين الذين نشأوا في أُسَر كان الزواج بِحُلوِه ومُرِّه يحتلّ مركز الصدارة في حياتها. كانت الأمّ هي الزوجة ربّة البيت لا مجرّد ماما تدور في فلك أطفالها طول الوقت. وحتى لو عمِلتْ خارج المنزل كما كانت تفعل زوجتي لم تألفْ أمّهات خمسينيات القرن الماضي العودة من الوظيفة إلى المنزل وهنّ مُحمّلات بمشاعر ذنب يحاولن تنفيسها بتركيز كلّ اهتمامهنّ على أطفالهنّ والتحلّق حولهم طول المساء. كذلك لم تكن لدى الأب عند عودته من العمل إلى المنزل نيّة لتمضية الأمسية كلّها في اللهو مع أطفاله من أجل «تجديد الروابط» معهم. كان الأب يعود إلى داره وهو يتطلّع إلى تمضية أمسية هادئة مع زوجته التي اختارها شريكة لحياته. كان الأب والأم يتوجّهان إلى غرفة الجلوس بعد وجبة العشاء لتناول القهوة وتبادل الأحاديث، فيما كان الأطفال يجدون بأنفسهم ما يفعلونه مثل الواجبات المدرسية التي كانوا يُتِمّونها بأنفسهم أيضًا. لم يكونوا ينسلّون خلسة إلى حيث لا ينبغي أن يذهبوا. وكانت لهذه القاعدة العامة استثناءات بطبيعة الأمر، لكنّ هناك جيلين على قيد الحياة (جيلي وجيل والديّ) يتذكّران أنّ العلاقة بين الزوج والزوجة كانت في ما مضى في أميركا أقوى من العلاقة بين الوالدين وطفلهما، وهذا هو الصواب.

يقول لي أحدهم: «هيّا يا جون، أنت لا تقصد فعلاً أقوى من بل بالقوة ذاتها.»

كلاّ، أنا أقصد أقوى من. وعلى النقيض من الوضع اليوم لم تكن ماما خمسينيات القرن العشرين وما قبل متزوّجة بطفلها بل كانت متزوّجة بزوجها. وعلى النقيض من «بابا» اليوم كان الأب في ذلك الزمن الماضي زوجًا في المرتبة الأولى

وأبًا في المرتبة الثانية. وبكلّ تأكيد لم يكن الأب أفضل صديق لطفله (المثال الأسمى الجديد للأبوّة في أميركا). وما من ظروف أخرى عدا التي عرفها جيلي وما قبله يستطيع الأطفال أن يتعلّموا في كنفها المعنى الحقيقي للزواج وكلّ القيم التي ينطوي عليها وأن يدركوا أنّ نهل المعارف أهمّ بكثير وإلى أبعد الحدود من نيل لقب تلميذ متميّز أو رياضي لامع.

وإن شئتم إثباتات إضافية على ضرورة وضع العلاقة بين الزوج والزوجة في مرتبة أعلى من العلاقة بين الوالدين والطفل، فكّروا في الطرح التالي: ما مِنْ شيء يُفْقِد الطفل شعوره بالأمان أكثر من خوفه من أن تكون العلاقة بين والديه مهتزّة وأن تنقطع في أيّ لحظة. وبالتالي ما من شيء يعزّز شعور الطفل بالأمان أكثر من معرفته أنّ العلاقة بين والديه، رغم عدم اتّسامها بالكمال، قوية بما يكفي لتصمد في وجه أيّة صعوبات أو خلافات.

إنّ تغليب العلاقة بين الزوج والزوجة على ما سواها يعطي الطفل إذنًا كاملاً للبدء في تهيئة انطلاقته للحياة. وانتفاءُ كونِه جزءًا حيويًا من رفاه والديه لأنّ رفاههما محصور داخل زواجهما، يجيز له بصورة كاملة غير مشوبة أنْ ينطلق للحياة من تلقاء نفسه. إنّ ترك ولد منزل والديه والانتقال إلى منزله يجب أن يكون مدعاة ابتهاج وتطوُّرًا مثيرًا حافلاً بالأمل لجميع المعنيّين. لكنْ عندما تكون العلاقة الوالدية مع الولد هي الغالبة يصبح التحرّر صعبًا بالنسبة إلى جميع المعنيّين. وفي بعض الأحيان يتمكّن الولد من المغادرة جسديًا وليس عاطفيًا. من الأمثلة على ذلك الزوج الذي يعير آراء والديه اهتمامًا أكبر ممّا يعيره لآراء زوجته أو الزوجة التي تفعل الشيء ذاته بالنسبة إلى آراء زوجها. في أحيان أخرى يتّخذ التحرُّر شكل «طلاق» مؤلم يصعب على جميع الأطراف المعنيّين الشفاء منه تمامًا مدى العمر.

لدينا اليوم متلازمة «العشّ الخاوي» كما لدينا «الأطفال الحائرون» بين والدين مطلّقين. ومتلازمة العشّ الخاوي هي نتيجة التعلّق المفرط بالأطفال بحيث تفقد الحياة جلّ معناها عندما يغادرون المنزل، ناهيك عن الانكشاف المؤلم لحقيقة كون الزواج فقَدَ معناه قبل زمن طويل، أي بعد فترة قصيرة من ولادة الطفل الأوّل.

وليس من المستغرب أن يكون خطر الطلاق كبيرًا جدًّا بين الأزواج الذين غادرهم أصغر أولادهم قبل فترة قصيرة. أما تعبير «الأطفال الحائرون» فهو تسمية حديثة العهد لأنَّه لم تكن هناك حاجة إلى تعريف كهذا قبل ثلاثين سنة لعدم وجود عدد كاف من الأطفال في هذه الفئة.

إنّ أعظم هدية يمكن إعطاؤها لولد عند بلوغه سنّ الرشد ليست مفاتيح سيارة جديدة أو شقّة بل الطمأنينة النابعة من معرفته أنّ في وسعه حقًّا العودة إلى البيت في أي وقت، لا ليسكن هناك بالتأكيد، بل للزيارة. لقد تحدَّثتُ إلى عدد كبير من الراشدين الشباب المتحرِّرين من أُسَرهم، وهم يقولون إنَّ الأمر الأشدّ إيلامًا في حياتهم هو العذاب الذي يمرّون فيه عندما يقرِّرون كيفية تقسيم وقتهم بين زيارة الأمّ في منزلها والأب في منزله.

يقول والداي أحيانًا لزوجتي ولي كم هما محظوظان لأنَّنا (زوجتي وأنا) ما زلنا معًا ولأنَّهما يعرفان أنَّنا سنبقى كذلك. ويتضمن كلامهما زلّة لسان بالفعل لأنَّ كلاهما يعلم أنّ لا دور للحظّ في هذا الأمر الذي يكمن جوهره في المحافظة على العلاقات ضمن ترتيبها الطبيعي وعدم السماح للأمور الثانوية بانتزاع الأولوية من الأمور ذات الأهمية القصوى.

الكلام عن أمور لا تحظى بأهمية قصوى

قلتُ في خطاب ألقيته أخيرًا أمام جمهور من المستمعين: «في وسعي أنْ أضمن لكم عمليًّا أنَّكم تستطيعون باتخاذ قرار بسيط تخفيضَ إجهاد تربية الأطفال بنسبة تفوق النصف وخلق جوّ عائلي أكثر استرخاء وتناغمًا وتهيئة طفولة أكثر هناء لأولادكم. وإذا لقي كلامي قبولاً لديكم فارفعوا أيديكم.» وبدا لي أن أيدي الجميع كانت مرفوعة.

تابعت قائلاً: «حسنًا، هذا هو الاقتراح. قولوا لكلٍّ من أطفالكم إنّ في استطاعته المشاركة آنيًّا في نشاط واحد فقط من نشاطات ما بعد المدرسة. وإذا كان لديكم

أكثر من طفل واحد، فأبلغوهم أنَّ نشاطاتهم المشتركة لا يجوز أن تستغرق أكثر من فترة بعد الظهر ليومين من أيام العمل الأسبوعية وفترة قبل ظهر أول أيام عطلة نهاية الأسبوع، كما لا يمكن لأي نشاط أن يتعارض مع موعد وجبة العشاء التي يتناولها جميع أفراد العائلة في المنزل كلّ مساء تقريبًا. كذلك قولوا لأطفالكم إنَّهم لا يستطيعون القيام بأي نشاطات من هذا النوع في أشهر الصيف لأنّ الصيف مخصَّص للعائلة. هل هناك من يقبل اقتراحي؟»

لم يرفع أحد يده. كان الصمت مخيِّمًا تمامًا. كانت أعين أربعمائة وخمسين شخصًا تحدِّق فيّ وكأنَّني اقترحت عليهم للتوّ أن يقفزوا من منحدر صخري شاهق. عند التفكير مليًا في الأمر يتبيّن أنَّ حرمان الأطفال من نشاطات ما بعد المدرسة يشكِّل بالنسبة إلى الآباء والأمهات الأميركيين المعاصرين ما يشبه على الأرجح انتحارًا والديًا. إذ كيف يستطيعون إظهار التزامهم برفاه أطفالهم من دون هذا الاستعراض العلني؟

وأنا ما زلت أنتظر سماع اقتراح جيد مقابل اقتراحي. أحد الردود الرافضة يقول إنَّ الأطفال يستمتعون بهذه النشاطات. ويسأل أحد الوالدين: «كيف يمكنني أن أقول لطفلي إنَّه لا يستطيع القيام بأمر يستمتع به؟» الإجابة هي: يقول الوالدان له: «إنَّك لا تستطيع أن تفعل كلّ ما تريد.» الأمر بهذه البساطة، هل تستطيعون أنتم أن تفعلوا كلّ ما تريدون؟ كلا؟ إذًا لماذا يجب أن يستطيع ذلك أطفالكم؟ أوَلَيست حاجات الوحدة الأُسَرية أهمّ ممّا قد يريد طفل بمفرده أو يحبّ؟ وعندما يكبر أطفالكم ولا يعودون أطفالاً لن يكون هناك مَن يحرص على إبقائهم متمكّنين من فعل أي شيء يشتهون. كذلك يوافق الجميع على أنّ العائلة ستستفيد كثيرًا عندما يكون الوالدان مرتاحَين متمهّلَين بدل بقائهما في حالة توتّر شبه دائمة من نوع «هيّا، استعجلوا، علينا الذهاب».

قد تصابون بصدمة لسماع الكشف التالي: الأطفال لا يحتاجون إلى النشاطات والبرامج ما بعد المدرسية. فالغالبية العظمى منها إضافات عديمة الفائدة إلى حياة جيّدة بالفعل.

وفي تسع وتسعين في المائة من الحالات ستكون النشاطات التي يمارسها طفل ما اليوم غير ذات دلالة بالنسبة إلى أي عمل سيقوم به عندما يكون في الثلاثينيات من عمره. كذلك من المرجّح أن يقوم الطفل الذي لم يمارس هذه النشاطات عندما يبلغ الثلاثين بالعمل عينه وبالقدر ذاته من النجاح كما لو كان مارس تلك النشاطات في طفولته. قلت هذا الكلام أمام مجموعة صغيرة من الناس في إحدى المرات، فردّ عليّ أحد الحاضرين بقوله: «لكن ماذا كان سيحدث لتايغر وودز* (Tiger Woods) لو لم يبدأ والده تعليمه رياضة الغولف في سنّ مبكّرة؟»

أجبت بقولي: «في هذه الحالة ربّما كان تايغر أصبح عالِم جراثيم واكتشف علاجًا لمرض الإيدز.»

دعونا نواجه الحقائق: تايغر وودز لا يقدِّم مساهمة كبيرة لتحسين أوضاع البشر. وإنَّها لَسِمةٌ مؤسفة تتعلّق بقيمنا الجماعية المغلوطة أن يرى المواطن الأميركي العادي في تايغر وودز ـ وهو إنسان لطيف على الأرجح ـ تجسيدًا حديثًا لشخصية البطل. ما هي الصعوبة التي تغلّب عليها تايغر في حياته؟ ما هو الصراع الملحمي الذي خاضه؟ لا هذه ولا تلك. ولا يجوز بالتالي تصنيف تايغر وودز كبطل بأي شكل أو صفة.

وقد يسأل سائل: «لكنْ ما الحكم إذا كانت لطفلي موهبة فطرية كبيرة في الموسيقى مثلاً، ولم أسمح له قط بتنمية هذه الموهبة؟»

تذكّروا، أنا لم أطلب أبدًا أن تسحبوا أطفالكم من جميع برامج ما بعد المدرسة بل دعوت إلى السماح لكل طفل باختيار نشاط واحد فقط. وإذا كان طفلكم يتمتع بموهبة موسيقية عظيمة ويقدّر الموسيقى مثلما تقدّرون أنتم موهبته، فسيختار برنامجًا موسيقيًّا ليكون نشاطه الوحيد. وإذا لم يختَر طفلكم ما كنتم أنتم تفضّلون اختياره، فسوف يأخذ مواهبه (ببساطة لا يوجد شيء اسمه موهبة واحدة كما تعلمون) ويضعها في مجال آخَر. وعندما يبلغ ولدكم عامه الأربعين سيكون ناجحًا

(*) بطل أميركي محترف شهير في رياضة الغولف ذات الشعبية الكبيرة في الولايات المتحدة.

في أيّ مجال اختاره هو بقدر ما كان سينجح لو سار على السبيل الذي اخترتموه أنتم. لكنْ مهلاً! هذا ليس صحيحًا تمامًا، فالحقيقة هي أنّ الولد سيكون دائمًا أكثر نجاحًا في مجال يختاره هو بنفسه لا في ما يختاره ذووه.

وإليكم الآن ضمانًا آخر: كلّما كانت الوحدة العائلية مرتاحة داخليًّا قلّت مشكلات التأديب والقصاص التي تنبغي مواجهتها. وثمّة مشكلات تأديب كثيرة يواجهها الوالدون اليوم هي في الواقع نتيجة للإجهاد النفسي. فالطفل المجهَد نفسيًّا ينزع إلى التصرف بطرق تنمّ عن هذا الإجهاد، والوالدان الواقعان تحت إجهاد نفسي ينزعان إلى المبالغة في ردود أفعالهما على سوء السلوك ويتعاملان معه بأسلوب خاطئ. ويولّد الإجهاد النفسي نفاد الصبر الذي يؤدّي بدوره إلى التعاطي بصورة متهوّرة عديمة الفائدة مع مشكلات التأديب. وهذا المزيج بالغ الخطورة ويتعاظم تردّيه من سيّئ إلى أسوأ. وكلّما خفّ التوتّر الذي يعاني منه الإنسان ازداد تعامله مع موضوع التأديب يُسْرًا (وتعقّلاً). وكلّما كان هذا التعامل مُيَسَّرًا ازدادت فاعليته. وهكذا سيكون أطفالكم أكثر تهذيبًا إذا سحبتموهم من نشاطات ما بعد المدرسة، كذلك ستكونون أنتم والدين أحسن سلوكًا! وعندما يتوفّر لأطفالكم مزيد من الوقت الذي يستطيعون قضاءه كما يشاؤون يصبحون أكثر استعدادًا للتركيز على واجباتهم الدراسية وتقلّ حاجتهم إلى المساعدة (أو التقوية) من جانبكم، وسيتوفّر لأطفالكم وقت للقيام ببعض الأعمال. فكّروا في الأمر: أطفال «يكسبون قوت يومهم» فعلاً ويتعلّمون في الوقت ذاته أخلاقيات الخدمة الحقيقية.

وهذا ضمان ثالث: تركيزٌ أقلّ على الأطفال معطوف على جوّ عائلي أكثر استرخاء ووالدين أكثر ارتياحًا يعني بالتأكيد زواجًا أمتن. وما من شخص عاقل يعترض على مبدأ أنّ الارتياح يسهّل قيام تواصل أفضل وجوّ من الحميمية. ولا شيء يضاهي أهمية صحة الزواج بالنسبة إلى صحّة الأُسْرة. أنا لا أقول إنّ الأُسر التي تضمّ والدًا أو والدة فقط لا يمكن أن تكون متمتعة بالصحّة، بل أؤكّد ببساطة حقيقة لا يمكن إنكارها: إذا كنت متزوّجًا (متزوجة) ولديك أطفال، فإنّ رفاه أُسْرتك يرتكز بشكل

أساسي على زواج قوي وصالح. وهناك الإحصائيات التي لا تقبل المناقشة: إنَّ أطفال الأُسَر المتماسكة يُبلون بكلّ مقياس بلاء أفضل من الأطفال المُطَلَّقي الأبوين.

ماذا تقولون الآن؟ كم سيكون العالم جميلاً لو كان عنوان الهواية الأولى للأُسرة العادية لوقت ما بعد المدرسة هو «دعونا نسترخِ ونستمتع بمنزلنا السعيد!»

سألني أحدهم أخيرًا: «عندما كان ولداك طفلين صغيرين هل شاركا في أي شيء عدا النشاطات العائلية؟»

لقد كانت العائلة فعلاً محور نشاطهما الأهمّ بعد المدرسة. ابني إريك البالغ الآن ستّة وثلاثين عامًا من العمر، لعب وهو طفل في فريق الناشئة (الأميركي) لكرة القدم لمدّة نصف الموسم الرياضي إلى أن قرَّر المدرِّب أن يضعه في موقع مُدافِع البداية. ولم يتوانَ إريك عن سؤالنا ما إذا كان يستطيع ترك الفريق شارحًا ذلك بقوله: «الجميع يحاولون النيل من مُدافع البداية وأنا أخشى أن أُصاب بأذى.» سمحنا له بالانسحاب من الفريق، لكنْ كان عليه أن يُبْلغ المدرِّب هذا القرار بنفسه. بعد ذلك مارس إريك لعبة كرة القدم (العادية) لموسم واحد، لكنّه لم يحبّ هذه الرياضة بما يكفي للاستمرار فيها. وعندما سألناه لماذا لا يريد أن يعود إلى اللعب أجاب قائلاً إنّ المدرّبين وأهل التلاميذ يبالغون في نظرتهم إلى ضرورة الربح. ولم يكن إريك يقصدنا نحن والديه في هذا التقييم لأنّنا نادرًا ما كنّا نحضر مبارياته. وقد وافقناه عن اقتناع على هذا التحليل الذكي. وترك إريك فريق كرة القدم وأبلغ المدرِّب قراره هذا بنفسه. هذا هو التاريخ الكامل لنشاطات إريك بعد المدرسة، عدا عن مشاركته كمراهق في مجموعة شبابية ملتزمة دينيًا تُدعى الحياة الفتيّة.

أمّا ابنتنا آمي البالغة الآن اثنين وثلاثين عامًا، فقد أعلنت عندما كانت في التاسعة من عمرها أنّها تريد أخذ دروس في العزف على البيانو. وبعد شهرين من هذه الدروس وبناءً على توصية مدرّستها اشترينا لها آلة بيانو بشرط أن تستمرّ في أخذ الدروس ما دامت تعيش في منزلنا نظرًا إلى حجم المبلغ الواجب إنفاقه. لكنّنا قلنا لها أيضًا إنَّها

ليست مجبرة على التدرّب إلّا إذا كانت راغبة في ذلك. وكانت مسألة التدرّب متروكة لها ولمدرّستها. وقد أخذت آمي آخِر دروسها خلال فصلها الدراسي الأخير في المدرسة الثانوية. وكانت قد نالت أدوارًا في عدد من المسرحيات المحليّة قبل سنّ المراهقة وفي سنوات المراهقة المبكّرة. كذلك اشتركت في نشاطات مجموعة الحياة الفتيّة.

شهدنا، زوجتي ويلي وأنا، على مرّ السنوات التي انهمكنا خلالها في تربية طفلينا ما يحدث عندما تطغى نشاطات الأطفال ما بعد المدرسية على الوقت المتاح للعائلة لتُمضِيه حسب هواها. كان الوالدون كما يبدو لا يملكون قط الوقت الكافي لأنفسهم أو لزواجهم، كانوا كثيري الشكوى من التعب والإجهاد النفسي (وكأنّ التعب والإجهاد النفسي لم يكونا نتيجة خيارات اتّخذوها بأنفسهم). وكان من الواضح أنّ جميع أفراد العائلة كانوا في عجلة من أمرهم طول الوقت.

قرّرنا، ويلي وأنا، أنّ طفلينا سيتذكّران عندما يكبران عيش حياة عائلية مريحة وخالية من المشكلات نسبيًّا. قرّرنا أن نضع العائلة في المرتبة الأولى من الأهميّة في منزل آل روزموند. كان تركيزنا على العائلة لا على الأطفال. كان إريك وآمي يؤدّيان أعمالاً (معظم الأعمال المنزلية في الواقع ابتداء من عُمرَي التاسعة والسادسة على التوالي وحتى ذهابهما إلى الجامعة). كانا يقومان أيضًا بواجباتهما المدرسية وقد طوّرا هوايات لشغل أوقات فراغهما. كنّا قليلاً ما نشاهد التلفزيون، بل إنّنا لم نمتلك جهاز تلفزيون خلال فترة طويلة من سنوات تربية طفلينا. الأمور التي كنّا نفعلها معًا تمثّلت في نشاطات تترك ذكريات طيّبة عن الطفولة ـ النزهات في أحضان الطبيعة، رحلات المشي، التخييم، ركوب الطوف في الأنهار، السفر وما شابه ذلك. وكنّا نتناول طعام العشاء معًا على مائدتنا كلّ مساء تقريبًا.

إريك متزوّج الآن وسعيد بزواجه وأطفاله الثلاثة. إنّه قائد طائرة نفّاثة ويعمل لحساب إحدى الشركات، ويُمضي وقته مع أُسْرته. ويعيش إريك مع زوجته نانسي وأبنائه الثلاثة مُفْعَمي النشاط ورفيعي التهذيب في بلدتنا غاستونيا بولاية كارولاينا الشمالية. وبالنسبة لإريك لا يوجد ما هو أهمّ من زواجه ومن العائلة التي يكوّنها مع

نانسي. لقد انسحب من لعبة كرة القدم في طفولته، ولكنَّه أبعد ما يكون عن التخاذل. وتشهد على ذلك حقيقة أنَّه سدّد بنفسه معظم تكاليف تدريبه كطيار وأنّه كان يقود طائرات نفاثة في الرابعة والعشرين من عمره، أي في عمر مبكّر جدًّا بالنسبة إلى شخص لم يَنَلْ تدريبًا عسكريًّا.

ابنتنا آمي متزوِّجة وهي سعيدة بزواجها وحياتها كربّة منزل وأمّ لثلاثة أطفال. وقد استقرّت مع زوجها مارشال في مدينة دالاس بولاية تكساس. بالرغم من أنّها متعلّمة وذكية وذات مهارات مطلوبة في سوق العمل فهي تفضّل البقاء في المنزل على أي شيء آخَر كي تتفرّغ لرعاية عائلتها التي تتناول أيضًا وجبات العشاء في المنزل كلّ مساء تقريبًا. وهي ليست عائلة من الفئة المستعجِلة دائمًا لضيق الوقت لديها.

إنَّ أعظم سعادة توفّرها الأبوّة هي مراقبة طفل يترعرع ليصبح إنسانًا راشدًا ذا قيم خُلُقية تقليدية متينة وحميدة ـ أي مواطنًا صالحًا. وكانت جدّتي تقول: «المواطنية الصالحة تبدأ في المنزل.» ليس في ملعب كرة القدم بل في المنزل. ليس في دار الرعاية النهارية بل في المنزل الذي هو «غرفة الصفّ» بالنسبة إلى العائلة.

الدكتورة لورا وأنا وخلافنا

إنّني لا أتّفق أيضًا مع الدكتورة لورا شلسنجر (Laura Schlessinger) بشأن الأولويات داخل العائلة. عرفتُ فورًا أنّي أختلف معها عندما سمعتُها تعرّف نفسها بعبارة «أنا أمّ طفلي» في برنامجها الحواري الإذاعي الذي يُبَثّ عبر محطات إذاعية عديدة في الولايات المتحدة. لا بأس لديها في أنّها وزوجها جاءا أولاً وأنّ طفلهما هو نتيجة «لأوّليتهما». لا تبالي بأنّ القصد من الزواج هو استمراره بعد خروج الأطفال (أو الطفل في هذه الحالة) من البيت. والدكتورة لورا أمّ قبل أن تكون زوجة.

وبما أنّ لنا آراء متباينة عن أولويات الأُسْرة، فالأرجح أن نختلف، الدكتورة لورا وأنا، على أمور كثيرة مثل موقفها من موضوع الرعاية النهارية للأطفال. لِنَقُلْها باختصار: تعتقد الدكتورة لورا أنّ الرعاية النهارية سيِّئة وأنَّه لا يجوز وضع أي طفل في الرعاية النهارية كما لا توجد أيَّة أسباب قد تبرِّر أي استثناء لهذه القاعدة. هذا هو القول الفصل ونهاية النقاش. لقد نطقت به الدكتورة لورا، لذا فهو غير قابل للنقاش.

ترى الدكتورة شلسنجر أنَّ أيّ شخص لديه طفل يرسله إلى الرعاية النهارية هو إنسان أناني يضع الاعتبارات المادية فوق احتياجات الطفل. ولا شكّ في أنّ هذا القول ينطبق على بعض الناس، لكنّ هناك آخرين يضعون أطفالهم في الرعاية النهارية من أجل ضمان مستقبل أفضل لهم وحرصًا منهم على تأمين المال الكافي لضرورات مثل عمليات تقويم الأسنان وتسديد النفقات الجامعية. هذا السلوك يُسمّى واقعية وليس مادية ولا يمكن تصنيفه كذرائعية أنانية.

وفي ما يتعلّق بادّعاء الدكتورة شلسنجر أنَّ الآباء والأمهات المعنيِّين يتّسمون بالأنانية، فإنَّ والدين عاملين كثيرين يبالغون في تعويض الوقت الذي يُمضونه بعيدًا عن أطفالهم بتركيز كلّ اهتمامهم على الأطفال في الأمسيات وخلال العُطَل الأسبوعية. وبعملهم هذا يُنشئون عن غير قصد أُسَرًا تتمحور حول الأطفال لا تخدم مصالح أطفالهم ولا مصالحهم هم في نهاية المطاف. وفي أوضاع كهذه يكون الطفل هو المرشح المرجَّح ليكون أنانيًا. إنَّ الآباء والأمهات العاملين لا يضعون أطفالهم بالضرورة في مرتبة منخفضة على سلّم أولوياتهم، بل إنّ كثيرين منهم يتوهون ويميلون إلى الجانب الآخَر. إنَّ أولوياتهم مشوّشة، لكنَّهم ليسوا أنانيين بالضرورة.

إنَّ موضوع الأطفال والرعاية النهارية أعقد بكثير ممّا تُصَوِّره الدكتورة شلسنجر. وهي محقَّة في إثارة الموضوع، لكنَّها مخطئة في اعتبار رأيها القول النهائي الحاسم في القضية. وبدل أن يكون لها دور مساعد كأخصّائية محترفة نراها تتّخذ موقفًا متصلّبًا ومتعصّبًا من هذا الموضوع، وهو موقف غير مفيد بالتأكيد، إذ ثمّة

أوقات تكون فيها الرعاية النهارية ضرورية بالمطلق. ولقد كانت الرعاية النهارية دائمًا ذات أهمية كبرى، لكنَّها لم تكن تُعرَف بهذا الاسم. كانت دائمًا ضرورية للأمّهات الملزَمات بتنفيذ أعمال تقتضي منهنّ الافتراق عن أطفالهنّ لفترات من الوقت، ما حتّم وضع الأطفال في رعاية شخص راشد آخَر. والفارق هو التالي: حتى الماضي القريب نسبيًا عندما كانت أُمّ تُضطرّ إلى ترك أطفالها في رعاية شخص آخَر، كان هذا الشخص في جميع الأحوال تقريبًا نسبيًا مُقرَّبًا يقيم على مسافة قصيرة من مكان وجود الأُمّ. ولسوء الحظّ لم تَعُد هذه المجموعة من الظروف الملائمة جدًّا متوفِّرة بالنسبة إلى نساء كثيرات. وتضطر النساء اليوم في جميع الحالات تقريبًا إلى ترك أطفالهنّ في رعاية شخص يستأجرن خدماته (مشرفة تأتي إلى المنزل) أو مؤسَّسة يدفعن لها قسطًا ماليًا (مركز رعاية نهارية).

ولا أعتقد طبعًا أنّ جميع الآباء والأمهات الذين يتركون أطفالهم في مراكز للرعاية النهارية في طول الولايات المتحدة وعرضها يفعلون ذلك بحكم الضرورة. وإذا لم تكن الضرورة هي الدافع فإنِّي أُعارض وضع أي طفل في مركز للرعاية النهارية لأيّ فترة ممتدة من الزمن. ومع ذلك فإنِّي أؤمن بوجود ظروف تبرِّر اتّخاذ قرار من هذا النوع، ظروف تفرض هذه الضرورة.

ورأيي في هذا الموضوع نابع من تجربة شخصيَّة. فقد كانت والدتي أُمًّا وحيدة خلال معظم السنوات السبع الأولى من عمري وكانت تعمل وتذهب إلى الجامعة آنذاك. ونظرًا إلى عدم وجود أنسباء مقرَّبين لها تتركني لديهم فقد أمضيتُ أيامًا كثيرة في مدرسة حضانة نهارية. لم يكن لديها أيّ خيار آخَر: إمّا تقبُّل الوضع كما كان أو الطرد من المنزل إلى الشارع والذهاب إلى ملجأ للفقراء أو التخلِّي عنِّي وعَرْضي للتبنِّي. ولا أستطيع أن أصف لكم مدى سعادتي لأنَّها فضّلت وضعي في مدرسة الحضانة النهارية.

لكنَّ الدكتورة لورا محقَّة في أمر واحد: إنَّ الرعاية النهارية ـ مهما تكن نوعيَّتها ـ تنطوي على مخاطر.

هل الرعاية النهارية رعاية بالفعل؟

إنّنا نعيش في زمن ما بعد الحداثة الذي يتّسم باستشراء العداء للتوجُّه العقلاني (intellectualism). مثلاً ليس هامًّا أن يقول البرهان الموضوعي إنَّ مقولة معيَّنة صحيحة، ما يهمّ هو ما إذا كان الناس يحبّون المقولة أولاً. بعبارات أوضح: الحقيقة ليست حقيقة إذا كانت تُسيء إلى فئات معيَّنة ذات مصالح خاصة.

ذكَّرني بذلك ردُّ الفعل العام على استنتاج البروفسور جاي بيلسكي (Jay Belsky) أنَّ الأطفال الذين يُمضون وقتًا طويلاً في الرعاية النهارية خلال سنوات ما قبل المدرسة هم أكثر ميلاً إلى العدوانية من الأطفال الذين ظلُّوا تحت رعاية أمهاتهم في المنزل، وذلك بنسبة ثلاثة أضعاف. والمؤهّلات العلمية للبروفسور بيلسكي لا غبار عليها (أستاذ علم النفس في جامعة لندن) وقد كانت أبحاثه عن آثار الرعاية النهارية منطقية دائمًا بالرغم من اختلاف الآراء بشأنها. إنَّ الرعاية النهارية (في المركز) والرعاية المنزلية مختلفتان نوعيًّا لذلك لا تكون النتائج البحثية متماثلة. كذلك لن يقول أيّ إنسان عاقل إنَّ عاملاً بأجر في مركز للرعاية النهارية أقدر من أُمّ مُحبّة على توفير بيئة ملائمة لنشأة الطفل. فالرعاية المنزلية إذًا أفضل من الرعاية النهارية، مع الإقرار بوجود استثناءات نادرة. ولم ألتقِ أنا في الواقع أيّ مدير لمركز رعاية نهارية يخالجه شعور مخالف.

في هذه الحالة لا بدّ وأن يقول لنا الحسّ السليم إنَّ البروفسور بيلسكي محقّ، فالطفل الذي يُمضي خمسة أيام من أصل سبعة كل أسبوع في الرعاية النهارية منذ طفولته المبكّرة متنافسًا مع أطفال كثيرين آخرين على الألعاب والحيّز والاهتمام مؤهّل على الأرجح لأنْ يكون أكثر عدوانية من طفل يُمضي أيامه في المنزل. لكنَّ أناسًا كثيرين لا يأبهون لمُعطيات البروفسور بيلسكي ومنطقه، بل يشعرون بالغضب لأنَّه تجرّأ ونشر تقريره.

وقال المعلّق في صحيفة نيويورك دايلي نيوز (NewYork Daily News) مايك بارنيكل (Mike Barnicle) إنَّ البروفسور بيلسكي يَصِمُ بالشيطانية الوالدين الذين

يضعون أطفالهم في الرعاية النهارية، وكان بارنيكل يعبِّر عن مشاعر أعداء العقلانية في أنحاء الولايات المتحدة كافة عندما وصف بيلسكي بأنّه «مثقّف رأسه بحجم رأس دبّوس» (pinhead intellectual)، ثم بلغت به الصفاقة حدّ القول إنّه ما كان ينبغي أن يقوم البروفسور بيلسكي بالدراسة إذا كانت نتائجها لن ترضي ضمائر الآباء والأمهات العاملين في أميركا.

غير أنَّ العداء للعقلانية في ما يتعلّق بمعطيات البروفسور بيلسكي لم يقتصر على الرافضين. وقد دعتني شبكة CNN التلفزيونية إلى المشاركة هاتفيًا في مناقشة حول استنتاجات البروفسور بيلسكي. لكنَّ ذلك لم يكن نقاشًا بل مباراة في الصياح. وقالت إحدى المشاركات، وهي منسّقة برنامج حواري إذاعي في مدينة أتلانتا إنَّ أمهات كثيرات يتّصلن بها ليشهدن بأنَّ قرارهنّ البقاء في المنزل مع أطفالهنّ كان أفضل قرار اتّخذنه في حياتهنّ. إذًا، ما هي العلاقة بين حقيقة تفضيل بعض الأمهات البقاء في المنزل عوضًا عن الذهاب إلى المكتب وبين استنتاجات البروفسور بيلسكي؟

ولقد أبلغَتني أمهات عديدات رأيًا مناقضًا تمامًا، فقد قلن إنهنّ يعتقدن بأنّ وجود أطفالهنّ في الرعاية النهارية أفضل لهم. ورأيي أنا هو أنَّ الشهادات الشخصية لا تُثبت ولا تنفي دراسة البروفسور بيلسكي. إنّها آراء شخصية. أما البروفسور بيلسكي فيمارس علمًا اجتماعيًا لا علمًا شخصيًا. ونتائج دراسته لا تتكهّن بالضرورة باستنتاجات شخصية، وهو أمر كان البروفسور بيلسكي سيعترف به لو سُئِل.

ومع ذلك ما زالت هناك مسألة المنطق السليم الذي يقول إنَّ رعاية الأم لطفلها أفضل عمومًا من رعاية موظّف يعمل بأجر. ويقول المنطق السليم أيضًا إنَّ الرعاية النهارية تولّد سلوكات عدوانية أكثر من الرعاية المنزلية. والواقع هو أنّ استنتاجات البروفسور بيلسكي منسجمة إلى حدٍّ بعيد مع ما يقوله المنطق السليم، فضلاً عن أنّ هذه الاستنتاجات تجد دعمًا من معطيات أخرى. مثال على ذلك أنَّ المشكلات السلوكية لدى الأطفال ازدادت تواترًا وحدّة مع ازدياد عدد الأطفال

الصغار الذين يذهبون إلى مراكز الرعاية النهارية في دوام كامل. ولا يعني ذلك أنّ الرعاية النهارية هي التي تسبّب جميع هذه المشكلات، لكنّ لها دورًا في ذلك بالتأكيد.

قلتُ قبل حوالى عشر سنوات في مقالي الصحافي الذي يُنشر في عدد كبير من الجرائد الأميركية إنّ الوقت حان لنتوقّف عن التظاهر بأنّ لا فرق بالنسبة إلى طفل في سنّ ما قبل المدرسة بين وضعه في أفضل مركز للرعاية النهارية في العالم وبين رعايته في المنزل على يد والدة مُحِبّة تتحلّى بروح المسؤولية.

وغنيّ عن القول إنّني جادلتُ بأنّ الرعاية المنزلية أفضل من الرعاية النهارية. في ذلك الوقت كانت أبحاث جدّيّة (من بينها دراسة البروفسور بيلسكي) مؤيِّدة لوجهة نظري قد بدأت في الظهور فعلاً، ثم استمرّ نشر المزيد والمزيد من الأبحاث المشابهة. إنّ الأطفال الذين يُمضون وقتًا طويلاً في مراكز الرعاية النهارية منذ طفولتهم المبكّرة أكثر استعدادًا للمعاناة من مشكلات سلوكية خطيرة (مثل الميول العدوانية) وضعف القدرة على الانتباه والتركيز واعتلالات صحية ومصاعب أكاديمية لاحقة بالمقارنة مع الأطفال الذين تجري رعايتهم في منازلهم من قِبَل أمّهات مسؤولات.

وقرَّرت صحيفة دي موين ريجستر (Des Moines Register)، وهي إحدى الصحف التي نشرت مقالي أن تخوض حربًا ضدي بخصوص هذا المقال. وهاجمني خلال الأشهر القليلة التالية لنشر المقال معلِّق يعمل في الصحيفة ومعلّق استضافته هيئة التحرير، وكذلك أحد المحرّرين في تعليق لم يحمل أي توقيع، وكلّ ذلك بسبب موقفي من الموضوع. واتُّهمت في إحدى هذه الهجمات المُغرضة بأنّني «أرجعتُ قضية حقوق النساء خمسًا وعشرين سنة إلى الوراء». هل يمكنكم تصوُّر ذلك؟ أنا الإنسان المسالم البسيط استطعت بمفردي وعبر مقال صحافي نُشِر على عمود واحد متوسّط الطول أن أقوم بعمل مزلزِل كهذا أعاد ساعة حقوق النساء خمسًا وعشرين سنة إلى الوراء!

لكنَّ المعركة لم تنتهِ يا أصدقاء! بل إنَّها بدأت لتوّها في الواقع. ونضالنا هو من أجل العائلة الأميركية. وقد قال كارل ماركس نفسه إنَّ العائلة التقليدية المتماسكة المعتمدة على نفسها تشكِّل العائق الأقوى أمام تحقيق الأحلام الاشتراكية الطوباوية الواهمة. وفي تقديري أنا أنَّ العائلة تضعف عندما يقرِّر كِلا الوالدين العمل خارج المنزل وإرسال الأطفال إلى الرعاية النهارية، فذلك يضع الأطفال في بيئة ذات نوعية من الدرجة الثانية ويعرّض الوالدين والأطفال لإجهاد نفسي كبير لا ضرورة له. والتبرير الوحيد لقرار انخراط كِلا الوالدين في العمل خارج المنزل هو المال الذي تُثبِت الوقائع أنَّه ليس مبرِّرًا كافيًا على الإطلاق.

وتُظْهر دراسات أنّ الدخل الثاني لمعظم الأُسَر الأميركية يتبدّد بالكامل تقريبًا بزيادة نسبة ضريبة الدخل المفروضة على الأُسْرة (الدخل الثاني يرفع التصنيف الضريبي للأُسْرة في جميع الأحوال تقريبًا) ونفقات رعاية الأطفال وازدياد كلفة الطبابة والكسوة والنقل والطعام (الأُسْرة ذات الوالدين العاملين تتناول في المطاعم وجبات أكثر من الأُسْرة التي يعمل فيها والد واحد ـ أي الأب أو الأم). والكلفة الوحيدة التي يمكن أن تنخفض هي فاتورة الكهرباء، لكنَّ المصارف تميل عامة إلى إعطاء الأُسْرة التي يعمل فيها الوالدان قروضًا أكبر مما تعطيه لأُسْرة يعمل فيها والد واحد فقط. وهكذا لا تكتشف الأُسْرة ذات الوالدَين العاملَين أنَّ نفقاتها الشهرية قد ارتفعت فحسب، بل تجد نفسها غارقة أكثر في الديون، وتراكم الديون يعني تفاقم الإجهاد النفسي ومزيدًا من الخلافات بين الزوج والزوجة وتراجعًا في الحميمية ونقصًا في التواصل بصورة عامّة وتبدُّد شعور الأطفال بالأمان وما إلى ذلك. ومهما تكن نظرة الإنسان إلى الموضوع لا يمكنه إنكار أنَّ وجود أحد الوالدين في المنزل للاعتناء باحتياجات العائلة هو أفضل الممكن على الإطلاق. وحياة الأُسْرة، ببساطة، تسير بشكل أفضل عندما يكون أحد الوالدين في المنزل للقيام بالمستطاع من الأعمال المنزلية خلال النهار لتوفير بيئة عائلية خالية من الإجهاد النفسي ومن التوتّر قدر الإمكان.

الأمّهات الحقيقيات هنّ الحاكمات

عند خروجي من محاضرة ألقيتُها أخيرًا شعرت بتربيت على كتفي اليُمنى فاستدرت ووجدت نفسي إزاء امرأة ضئيلة البنية تكبرني بحوالى عشرين سنة.

قالت لي: «شكرًا يا جون. الآن فهمت.»

دُهِشت وقلت: «آسف يا سيدتي، ما الذي فهمتِه؟»

انطلقتْ في حديثها لتخبرني أنَّ ابنتها البالغة من العمر خمسة وثلاثين عامًا، وهي ـ كما تصف نفسها ـ مناضلة راديكالية من أجل حقوق المرأة، تربّي ابنها البالغ أربع سنوات خارج إطار الزواج.

قالت السيدة عن ابنتها وفي صوتها رنّة من الحزن: «لم تتزوّج ابنتي والدَ الطفل. وهي تقول فعلاً إنّها لن تتزوّج أبدًا لإيمانها بأنَّ الزواج ليس إلّا وسيلة يستخدمها الرجال للهيمنة على النساء، أو شيئًا سخيفًا من هذا النوع. لا أدري من أين جاءت بمثل هذه الأفكار، ليس منّي بالتأكيد.»

تابعت السيدة كلامها قائلة إنَّ ابنتها تشغل أعلى منصب إداري أُتيح لامرأة في تاريخ الشركة التي تعمل فيها وتدير قسمًا كاملاً يتألّف معظم العاملين فيه من الرجال. ومن المؤكّد أنّها صاعدة سلّم الترقيات في الشركة.

ثم قالت السيِّدة: «يا جون، بعد أن استمعتُ إليك خلال الدقائق التسعين الماضية، فهمتُها. أفهم الآن كيف أنَّ ابنتي تستطيع أن تُصدِر أوامر للرجال طول النهار ثم تعود إلى منزلها حيث تتلقّى أوامر من حفيدي ذي السنوات الأربع!»

أجل، لا ريب في أنَّ نساء اليوم يشكّلن لغزًا محيِّرًا من التناقضات. فقد حقّقن خطوات كبيرة إلى الأمام في المجالات السياسية والمهنية والاقتصادية والتعليمية، لكنّهنّ يضعن أنفسهنّ أبديًا في رتبة الخدم لأطفالهنّ بعد أن يصبحن أمهات.

وكثيرًا ما يخاطبهنّ الأطفال وكأنّهنّ دون مرتبة الرقيق، ولا يفعلن شيئًا إزاء ذلك. يطلب أطفالهنّ أمورًا منهنّ فيُطِعن، ويصرخ الأطفال في وجوههنّ فيرضخن.

بل إنَّ هناك أعدادًا متزايدة كالوباء من الأطفال الأميركيين الذين يعتدون على أمّهاتهم بالضرب والرفس والبصاق. ولا تفعل أولئك الأمهات شيئًا سوى محاولة التحدُّث مع أولادهنّ قليلي التهذيب الخارجين عن السيطرة عمّا يُفترَض أن يزعجهم.

ماذا يجري هنا؟ المشكلة هي أنّ أمّهات اليوم يحاولن النجاح في تجاوز عارضة الأمومة (كعارضة القفز العالي) التي تشكِّل مقياسًا عصريًّا للأمومة الجيِّدة، وهو مقياس يؤيِّد الفكرة القائلة إنَّ أفضل أُمّ هي الأمّ الأكثر انشغالاً والأكثر انتباهًا والأكثر تقديمًا لأطفالها فترضيهم كلّما استاؤوا وترمي أرضًا ما بِيَدها لتكون في حضرتهم سامعة طائعة، تساعدهم كلّ ليلة في فروضهم المدرسية وتحرص على حصول كلّ خلية من خلاياهم الدماغية على نصيبها من التنشيط المناسب منذ ما قبل ولادتهم.

لنقارنْ كلّ ذلك بسلوك أُمّ عادية قبل خمسين سنة. كانت تلك المرأة العظيمة تفرض هيبتها على أطفالها بدل أن يفرض الأطفال هيمنتهم عليها. لم تكن خادمتهم بل كان دورها أنْ تعلّمهم كيف يقفون على أقدامهم ويعتمدون على أنفسهم. وإذا خاطبها أحد أطفالها بقلّة احترام سرعان ما كان يندم على فعلته. وإذا تجاوز أحدهم حدوده وضرب أمّه، كانت هذه المرّة الأولى والأخيرة بكلّ تأكيد.

لم تكن الأُمّ في تلك الأيام تواجه أي مشكلة على الإطلاق في إفهام أطفالها حدود استقلاليتها. لم يكن لديها أيّ تحفُّظ عن قول: «ليس لديَّ وقت من أجلك الآن، فافعلْ أنت ما عليك فعله»، أو «إذا كنت لا تجد شيئًا تفعله فسأجد لك أنا ما تفعله»، أو «دعني وشأني فأنا مشغولة»، أو «لا، لن أفعل ذلك من أجلك لأنَّك قادر على فعله بنفسك ولنفسك.»

لا تشعر الأم المعاصرة بأنها مخوّلة أن تقول مثل هذه الأمور لأطفالها، كما يغمرها الإحساس بالذنب إذا زلّ لسانها وتلفّظت بعبارة مسيئة لاعتداد الطفل بنفسه مثل قولها: «سأعدّ إلى الخمسة لتختفي من أمامي وتبقى مختفيًا طوال بعد الظهر.» بعد ذلك تعتذر الأمّ من طفلها قائلة: «أنا آسفة، لم أكن أقصد ما قلته. هذا يوم سيِّئ بالنسبة إليّ.» ثم تعود هذه الأم إلى ممارسة دور الخادمة من جديد.

كانت أمّ الأمس، ما إن يتعلّم طفلها استعمال المرحاض (في شهره الرابع والعشرين) وعدم الجري إلى الشارع، تحاول كل يوم تقليل تعاطيها معه قدر الإمكان. وقد يكون لذلك وقع رهيب على الأُذُن في هذه الأيام، لكنْ لَكُمْ أنْ تسألوا شخصًا من جيلي أنا. سيقول لكم إنَّ ذلك لم يكن شيئًا على الإطلاق، بل كان من الممتع جدًّا أن يَحظى الطفل بأمّ لا تتدخّل طول الوقت في تفاصيل حياته، أمّ تراقب طفلها جيّدًا، لكنَّها لا تريده أن يبقى داخل المنزل عندما يكون الطقس جميلاً في الخارج. هؤلاء كنّ أمهات يتركن أطفالهنّ وشأنهم (تحت رقابة كافية) ويرغبن في الوقت ذاته بأن يتركهنّ الأطفال وشأنهنّ. ومع وجود استثناءات لا بدّ منها نحتفظ نحن جيل «طفرة الولادات» بعد الحرب العالمية الثانية (boomers) بذكريات محبَّبة إلينا عن أمّهات أحببنَنا وهذّبنَنا بالشدّة ذاتها.

كانت النتيجة أطفالاً تعلّموا في سنّ مبكّرة نسبيًّا الاعتماد على أنفسهم كتحضير وجباتهم الخفيفة وخوض مشاجراتهم والقيام بفروضهم المدرسية وتسلية أنفسهم والدرس وحدهم من أجل امتحاناتهم وتجديف الزوارق الصغيرة بقوّة عضلاتهم وتحمّل الصعاب بأناة والنوم في أسرّة من توضيبهم وتحمُّل المسؤولية عن أخطائهم وتقصيرهم. كان الجميع رابحين: الأمّ والطفل ومعلّم المدرسة. في الوقت ذاته ربح المجتمع وربحت الثقافة. لم تكن تلك صفقة خاسرة في رأيي.

أما اليوم فالأمّ هي التي تخوض معارك طفلها وتتحمّل الصعاب عنه وتجدِّف زورقه وتوضّب له سريره، وما إلى ذلك. وهذا ما يُعيدنا إلى الأمّ المدافِعة عن حقوق النساء، البالغة من العمر خمسًا وثلاثين سنة التي تحدَّثتُ عنها قبل قليل.

فهي ـ يا للسخرية والأسى! ـ لا تُعَلِّم ابنها احترام الإناث والاعتراف بشرعية سلطتهنّ والانصياع لها كما ينبغي. إنَّها تعلّمه بدل ذلك أنَّ النساء موجودات لخدمة الرجال. إنّها تهيِّئ ابنها ليصير رجلاً من النوع الذي تزدريه!

وذلك ليس خطأها في الواقع. فما تفعله الأمّ المدافِعة بشدّة عن حقوق النساء والتي لا تتوقّف عن المجاهرة بذلك، لا يعدو أن يكون رضوخًا لضغوط وأوهام

ثقافية. وتنطوي الضغوط الثقافية على تصوّر غريب مفاده أنّ الأمّ الفُضلى هي الأكثر «تعاطيًا» مع طفلها والأعظم عطاءً في ما تفعله من أجله والأشدّ مراعاة لشخصه. وتقوّي نساء أخريات هذه الضغوط التي تمنع الأمّهات من فرض سلطتهنّ على أطفالهنّ. وهكذا يفرض الأطفال سلطتهم على أمهاتهم، خاصّة وأنّ لديهم هذا الميل في الأساس. وقد قزّمت هذه الضغوط أمّهات كثيرات جدًّا في هذا العصر فأصبحن مجرّد مساعدات ومنقذات ومدبّرات لأطفالهن. وتنطوي الأوهام الثقافية على تصوّر مفاده أنّ على الأمّ التي تعمل خارج المنزل ولا تستطيع بالتالي أن تساعد وتنقذ وتدبّر أثناء النهار أن تعود إلى المنزل وتجعل طفلها مركز اهتمامها وأن تتراقص حوله قدر استطاعتها من لحظة دخولها من الباب وحتى يوافق هو على الذهاب إلى النوم. ألا يصف ذلك حقًّا الطقس النموذجي للتخلّص من الشعور بالذنب؟

يتبيّن إذًا أنّ العلاقة بين الأم والطفل في أميركا مقلوبة رأسًا على عقب في أحيان كثيرة. ولشرح هذه النقطة في المحاضرات التي أُلقيها في مختلف أنحاء الولايات المتحدة أُجري أمام الحاضرين اختبارًا صغيرًا في إكمال جُمل ناقصة. يجري الاختبار على النحو التالي:

أقول: «قبل خمسين عامًا كان الطفل الأميركي يخاف من أمّه، واليوم...»

فيردّ جمهور الحاضرين دون التفكير لحظة واحدة: «... الأمّ هي التي تخاف من الطفل». ولقد أجريت هذا الاختبار ما لا يقلّ عن مائة مرة، وكان ردّ الجمهور في كل مرّة دون استثناء كما ورد أعلاه. وتشكّل النساء غالبية الأشخاص الذين يجاهرون فورًا برأيهم. أمّا الرجال الجالسون إلى جانبهنّ فيعرفون الإجابة، لكنّهم يرفضون الاعتراف بها لأنّهم أذكى ممّا تظنّ زوجاتهم.

أليس هذا وضعًا مؤسفًا للرعاية الوالدية في أميركا؟

قالت لي إحدى الأمّهات مرة: «لكنّي لا أريد أن يخاف طفلي منّي يا جون.»

أجبتها قائلاً: «ولهذا السبب تعانين من مشكلات في تأديب طفلك.»

قالت: «وكيف عرفت أنّني أعانـي من مشكلات في تأديبه؟»

فأجبتها: «لأنّ طفلك لا يخاف منك.»

أنا كنتُ أخاف من أمي، شأنـي في ذلك شأن أطفال جيلي. ولا تسيئوا فهمي، فأنا لـم أكن أفقد السيطرة على نفسي من الـخوف عند دخولها إلـى غرفتي أو أنكمش على نفسي عندما كانت تـمدّ ذراعيها لتضمّني إلـى صدرها. كانت حنونة قريبة إلـى القلب ومـحبّة. ولـم أشكّ يومًا في أنّها كانت تـحبّني من كل قلبها، ومع ذلك كنت أخاف منها. والطريقة الوحيدة التي يـمكنني أن أشرح ذلك عبرها هي القول إنّها كانت تتصرّف دائمًا كمن يـمسك زمام السيطرة بِيَده. كما أنّها لـم تتردّد قط في إفهامي أنّني لستُ صاحب القرار. كان سلوكها ينبِّئ بأنّها تعرف ما تفعله وما أنا مُقْدِمٌ على فعله.

كانت تقول مثلاً: «حان الوقت لِتُلملـم هذه الألعاب»، فألـمّها عن الأرض.

اعتادت أن تقول: «سنغادر الآن» وهي تـمدّ يدها نحوي، فآخذ يدها وأغادر معها.

عندما كنت في الرابعة من عمري قالت لـي مرّة: «سأعلّمك اليوم كيف تغسل الأرضية»، فتبعتُها وتعلّمت كيف أغسل الأرضية.

إنّ الـخوف الذي أعنيه هو الـخوف الـمفيد للأطفال، أي أن يخافوا مولاهم لأنّ هذا الـخوف هو بداية أمور جيدة كثيرة منها الـمعرفة والـحكمة، وقد استفدتُ أنا من مـخافتي لأمّي لأنّها كانت بداية لِحُسْن السلوك واحترام النساء. فخوفي هذا كان تعبيرًا عن احترام هائل عصيّ على التفسير إزاء القوة التي كانت أمّي تـمثّلها في حياتي.

ومن الـمؤسف جدًّا أنّ أطفالاً كثيرين من جيلي اليوم يُحرمون من هذه الفوائد من قِبَل أمّهات رضخن للضغوط والأوهام الثقافية. وقد سبق لـي أن قلت إنّ هذه ليست غلطتهنّ، لكنّهنّ الوحيدات القادرات على حلّ هذه الـمشكلة

المستشرية على الصعيد الثقافي. وأنا أرى أنّ حلّ هذه المشكلة أهمّ بالنسبة إلى المستقبل من نيل شهادات دكتوراه والارتقاء إلى أعلى المناصب الإدارية في الشركات الكبرى.

حسنًا، وماذا عن الآباء؟

هناك فوارق يمكن استقراؤها بين الأمّهات والآباء من حيث أساليب التواصل والتفاعل مع أطفالهم. وترتبط هذه الفوارق بعوامل بيولوجية ونفسيّة وتوقّعات ثقافية واعتبارات عملية. مثلاً، احتلّت الأمّهات في جميع الحضارات البشرية الدور الرئيسي كراعيات للأطفال من الولادة وحتى يتعلّموا المشي. وقد فرضت الضرورة هذا التوزيع للأدوار، فضلاً عن كون الإناث أكثر حنوًّا وأهلية لهذا الدور من الرجال.

وخلال العامَيْن الأوَّلَيْن من حياة الطفل يعمل الأب العادي «كمساعد رعائي»، أي أنّه يساعد الأمّ في رعاية الطفل، فيقدّم لها العون في مهمّتها المستمرّة على مدار الساعة تقريبًا وينوب عنها عندما تحتاج إلى التقاط أنفاسها (وبالرغم من الانتباه المتزايد الذي صار يُعطى «للرعاية الأبوية» في السنوات العشر الأخيرة، فإن الاستثناءات عن هذه القاعدة ما زالت قليلة ومتباعدة، وأعتقد أنّ الأمور ستظلّ دائمًا على هذه الحال).

تفرض أحكام الضرورة أنْ تتشابك حياة الأمّ العادية تشابكًا تامًّا مع حياة طفلها منذ ولادته وحتى يتمكّن من المشي، لكنَّها تبدأ في الانفكاك عن طفلها تدريجيًّا بين عامَيه الثاني والثالث وتتوقّع منه أن يزيد تصرُّفه التلقائي وأن يبدأ في الاتّكال على نفسه. وفي سياق هذه العملية تحوِّل الأم نفسها ببطء وثبات من راعية إلى شخص صاحب سلطة ومن خادمة إلى معلّمة للقيم الاجتماعية. وفيما تقترب مهمّة الأمّ في الخدمة المستمرّة من نهايتها بعد أن تكون قد أدّت الغاية منها، يعود الزواج (أو يجب أن يعود) إلى احتلال مركز الصدارة في العائلة. عندها يصبح دور الأب أكثر أهميّة لنجاح طفله في عدد من المجالات. وأظهرت بعض الدراسات مثلاً أنّ الأطفال الذكور والإناث في سنّ ما قبل المدرسة الذين يشارك آباؤهم في تربيتهم

مشاركة فعّالة، يميلون أكثر من سواهم لأنْ يكونوا منفتحين ومتكيِّفين ومستعدِّين لقبول التحدِّيات.

كتبتُ قبل سنوات عدة مقالاً صحافيًّا عن أهميَّة الآباء، فردّت عليّ أمّ وحيدة منتقدة إشارتي إلى أنَّ الأمّهات الوحيدات لا يستطعن تأدية مهمّتهنّ بكفاءة مماثلة لأداء والدين متزوّجين. كتبتْ تقول: «ليس هناك حاجة في الواقع إلى وجود رجل في البيت لتكون لديك نماذج ملائمة للدور الذكوري.»

هذا صحيح بقدر ما تحتمل الكلمات من معنى. لكنْ ليست جميع ظروف تربية الأطفال متساوية، مع أنَّ قول مثل هذا الكلام أصبح خطيئة سياسية. وقد أثبت داڤيد بلانكنهورن (David Blankenhorn)، رئيس معهد القيم الأميركية (Institute of American Values) ومؤلِّف كتاب أميركا بلا آباء (America Fatherless)، بتوثيق دقيق أنّ أداء الأطفال الذين تربّوا على أيدي أمّهات وحيدات لا يضاهي بأي مقياس أداء الأطفال الذين تربُّوا في وحدات عائلية متماسكة، وهناك بالطبع استثناءات فردية لهذا الاستنتاج، لكنّ القاعدة العامة ثابتة بما يكفي. ويمكن القول بعبارات أخرى إنَّه في حين يصحّ اعتبار رجالٍ غير الآباء نماذجَ ملائمة للدور الذكوري، فمن الخطأ الافتراض أنّ دور الآباء ليس فريدًا من نوعه.

لكنّ مجرّد وجود أب في حياة أطفاله ليس كافيًا، فالتعبير التطبيقي هو أن يكون الأب مشاركًا فيها بفاعلية. وأتحدَّث هنا عن أب يشارك باهتمام كلّي في عملية تربية الأطفال ـ لا عن مساعد أبدي في الرعاية أو عن رجل يكتفي بالجلوس أمام جهاز التلفزيون طالبًا إلى الجميع أن يلتزموا الصمت. إنَّ الأطفال الذين أسعدهم الحظّ بكون آبائهم مشاركين في تربيتهم، أكثر أهلية لأن يكونوا واثقين من أنفسهم ومنفتحين ومستقلّين، بالإضافة إلى امتلاكهم عمومًا لباقات اجتماعية أرقى وتعرّضهم لمشكلات سلوكية أقلّ وحُسن أدائهم المدرسي بالمقارنة مع الأطفال ذوي الآباء المتغيِّبين أو المهمَّشين في العائلة. ولسوء الحظّ سيُمضي حوالى نصف الأطفال الأميركيين المولودين في تسعينيات القرن الماضي جزءًا كبيرًا من سنوات نشأتهم في منازل يغيب عنها الأب. ويضاف إلى هذه الأزمة المتصاعدة أولئك الآباء المطلّقون

الذين نادرًا ما يرون أطفالهم، أو لا يرونهم بتاتًا. هذا وقد أكّدت أخصائية علم نفس الأطفال يوري برونفِنبرنَر (Urie Bronfenbrenner) في محاضرة ألقتها في مقر الأونسكو في العام 1989 أنَّ الأطفال من هذه الفئة معرَّضون بنسبة أعلى بكثير من سواهم للمعاناة من جميع أنواع المشكلات السلوكية والدراسية.

لقد ظهر في الآونة الأخيرة ميل إلى تشويه صورة الأب التقليدي ووصفه بأنَّه شخص بعيد عن القلب ومنفِّر ومتسلِّط يسيطر على أطفاله بواسطة الخوف. وهذا لا يساعد بالتأكيد الجهود المبذولة من أجل الاعتراف للآباء بالفضل الذي يستحقُّونه وإعادة الكرامة إلى الأبوّة، ناهيك عن كون هذه المقولات غير صحيحة عمومًا. وقد وصف ألكسيس دو توكڤيل (Alexis de Tocqueville) مؤلِّف كتاب الديمقراطية في أميركا (Democracy in America) الأب الأميركي في القرن التاسع عشر كرجل حازم ولكن مسامح، قوي ولكنْ ذي مرونة. كان هذا الأب يستمع إلى أطفاله ويلاطفهم، يعلّمهم ويطالبهم بالطاعة، وكما أشار داڤيد بلانكنهورن فإنّ الأب الأميركي التقليدي كان دائمًا نموذجًا للرجل العامل بجدّ المؤمن بالقيم الذكورية التقليدية. وهذا الأب هو باختصار نموذج جيّد لأطفاله، خاصّة الذكور منهم.

مع اقتراب سنوات المراهقة يبدو دور الآباء أكثر أهمية لتكيُّف أطفالهم بشكل سليم. ويستنتج الباحثون باستمرار أنَّ المراهقين الذين يتميَّز آباؤهم بالمشاركة النشطة هم أقلّ استعدادًا للوقوع في مشكلات الجنس أو المخدّرات أو الكحول. ويُعتبر هؤلاء المراهقون، حتى بعد أخذ العوامل الاجتماعية والاقتصادية في الحسبان، أكثر أهلية للذهاب إلى الجامعات وللدخول في زيجات ناجحة ولأنْ يصبحوا بدورهم والدين صالحين.

ويستحيل اليوم الدخول في مناقشة عن المراهقين من غير التطرّق إلى موضوع الجنس، فسنوات المراهقة المبكّرة مطبوعة في الواقع بمشاعر القلق حيال الهوية والجنسانية. وفي وسع الآباء المساهمة بشكل رئيسي في مساعدة أطفالهم على تسوية هذه القضايا. مثلاً، تبدأ الفتاة المراهِقة في النظر إلى الذكور لجذب انتباههم وتأكيد أنوثتها. ويمكن للعناية الأبوية الحانية الودودة أن تفعل الكثير لإشباع حاجة

الابنة إلى القبول الذكوري، ما يخفّض احتمال لجوئها إلى التجارب الجنسية لتبديد مشاعر القلق التي تخامرها.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفتى الذي يَلِج سنوات مراهقته دون أب، إذ إنّه سيلجأ في أحيان كثيرة إلى ملء خوائه المعرفي بابتداع تخيّلات عن ماهية كونه رجلاً ثم محاولة تطبيق هذه التخيّلات التي كثيرًا ما تشمل أفكارًا مسيئة، كاعتبار الرجولة مساوية للمغامرات الجنسية و/أو العدوانية. وهنا أيضًا يستطيع الأب المهتمّ فعلاً بشؤون عائلته أن يساعد ابنه على تنمية تصوّر أكثر توازنًا لماهية الرجولة، ما ينفي فكرة كون الجنس والهيمنة الجسدية شرطَيْن أساسيَّيْن للقيمة التي يعطيها لنفسه.

إذا كنتَ أبًا، فإليك بعض الوسائل التي تجعلك ذا نفوذ أقوى على حياة طفلك:

1 ـ اعثر على نشاط واحد على الأقلّ يمكن لك أنت وطفلك أنْ تستمتعا بممارسته معًا، مثل القيام برحلات المشي أو ركوب الدرّاجة أو لعب كرة المضرب (التنس) أو ممارسة هواية جمع العملات المعدنية أو مجرّد التنزّه. بعد ذلك خصِّص وقتًا لممارسة النشاط بانتظام.

2 ـ ساعِد طفلك على تطوير هواية له. وإذا أظهر طفلك ميلاً إلى نشاط ترفيهي معيّن، فشجِّعه على ممارسته.

3 ـ فيما ينمو طفلك اعملْ على تخفيف دورك كمهذِّب وتعزيز دورك كمرشد له. وتذكّر خلال سنوات مراهقة ولدك الأهمية الكبرى لقيامكما معًا بتحويل علاقتكما من كونها علاقة بين والد وولده إلى علاقة بين راشد وراشد. وخُذْها من أب له ولدان راشدان لديهما أطفال أنّ سنوات المراهقة ترسّخ سوابق طويلة المدى في العلاقة بين الأب والولد. واحرص على أن تكون هذه السوابق إيجابية.

4 ـ تواصَلْ! شجِّع طفلك دائمًا على استخدامك كأداة استماع للحديث عن أي قضية شخصية أو اجتماعية، وخصِّص وقتًا كافيًا للتكلّم مع طفلك المراهق عن المستقبل. إنّك تستطيع بكل هذه الوسائل أن تساعد ابنك أو ابنتك على توضيح مجموعة دائمة من القيم الصحيحة الإيجابية وتطويرها.

5 ـ أحِبَّ أُمَّ طفلك من كلّ قلبك. بيِّنْ لطفلك ما يعنيه أن تكون زوجًا صالحًا وليس أبًا صالحًا فحسب.

6 ـ وآخِرِ النصائح لا أقلّها شأنًا: تذكَّرْ أنْ تقول لطفلك «أحبّك» مهما يكن عمره.

العائلة ليس لها سرير مشترك

سألتْني إحدى الأمّهات: «جون، ما السبب في أنّ أمرًا مارسه البشر آلاف السنين أصبح فجأة غير جيّد لهم؟»

كانت تشير بذلك إلى نوم الأطفال مع والديهم في ما يُسمّى «سرير العائلة» الذي يوصي به الدكتور ويليام سيرز (William Sears) وغيره من أنصار «الرعاية الوالدية اللصيقة». وتتحوَّل هذه الطريقة في النوم الجماعي بسرعة إلى مقياس للتربية الحسنة. وإذا سمحت لطفلك بالنوم معك فالمعنى الضمني لذلك هو أنّك والد (والدة) أكثر تفانيًا لطفلك من الوالدين الذين يصرّون على نوم الطفل في سرير منفصل.

أجبتُها قائلاً: «أولاً، إنّ كون شيء قد حدث خلال عصر أقلّ تمدُّنًا ليس دليلاً على أنَّه جيد. خذي على سبيل المثال أكل لحوم البشر أو التضحية بالفتيات لإرضاء إله البركان. ثانيًا، كان الهدف من النوم الجماعي الأمن والحماية عندما كان مستوى الخطر خلال ساعات الليل أعلى بكثير ممّا هو اليوم بالنسبة إلى عائلة معاصرة. ثالثًا، كان الأطفال يُنقلون إلى غرفة نوم ثانية ما إن يتمكّن الأهلون من توفير ثمنها.»

سألتْني الأم: «لكن ما هي المشكلة؟»

أجبت: «الحدود. أو عدم وجود حدود.»

فكّرتُ في زميل لي أخصّائي في علم النفس كان قد حدّثني عن عائلة يتعاطى معها بسبب مشكلات تحيط بابنتها البالغة من العمر سبع سنوات وهي وحيدة أبَوَيها.

وكانت معلّمة الفتاة في الصفّ الثاني تشكو من أنّ هذه الأخيرة تعطّل الدروس ولا تطيع الأوامر ولا تكمل واجباتها ثم تُنكِر أن تكون ارتكبت أيَّ خطأ عندما تُوبَّخ. وقد جرّب والداها كل شيء، أو هذا ما ادّعياه. وبسبب سوء سلوكها في المدرسة حُرمت الفتاة من جميع امتيازاتها وأُمِرت بالبقاء في غرفتها وعوقبت بالضرب مرة واحدة. كذلك حاول والداها إعطاءها مكافآت مختلفة عندما كانت تحسّن سلوكها في المدرسة بنسبة معقولة. لكنّ كل شيء ذهب هباء، بل بدا أنّ الفتاة كانت تشعر بمتعة سقيمة في التظاهر بأنّها مُحصَّنة ضدّ العقاب، وأنّ المكافآت كانت تزيد الأمور سوءًا.

ادّعى الوالدان أنّهما لا يعانيان من أية مشكلات مع ابنتهما. واحتار صديقي عالِم النفس إلى أنْ قال في نهاية المطاف خلال اجتماع مع الوالدين إنّه وصل إلى طريق مسدود ولم يكتشف ماهية المشكلة ولا يعرف لها حلاً. عندها زلّ لسان الأب وأشار إلى أنّ الفتاة لا تنام في سريرها الخاص بل مع أمّها فيما كان الأب ينام في غرفة أخرى ليرتاح من أجل النهوض باكرًا والتوجُّه إلى عمله. وسرعان ما قاد هذا الكشف الأوّل إلى كشف ثانٍ فتبيّن أنّ مشكلة «الطاعة» لدى الفتاة نشأت لأنّ والديها لم يطلبا منها قط أنْ تفعل أيَّ شيء. كان الوالدان، لاسيّما الأم، يقومان بخدمتها وتحقيق رغباتها. وكان غياب التعليمات من الوالدين مساويًا لعدم صدور أيّ مقاومة من الابنة. وكانت المدرسة المكان الوحيد الذي تسود فيه الأنظمة والتوقّعات، فانبرت الفتاة لإفهام الجميع أنّه لا يوجد شخص مؤهَّل ليكون رئيسًا عليها.

يعيدني ذلك إلى مسألة الحدود. إنّها ضرورية جدًّا لإقرار السلطة وإبلاغها. والرئيس الذي يتآخى مع الأشخاص الخاضعين لسلطته نظريًّا لا يستطيع ممارسة هذه السلطة بصورة فعّالة. والحدّ بين الرئيس والمرؤوس يجبر الثاني على احترام الأوّل. وعندما ينعدم هذا الحدّ ينعدم معه الاحترام.

وكما يحدث في جميع حالات النوم في «سرير عائلي» أصبحت هذه الفتاة الصغيرة شريكة في الزيجة لا تكنّ أيّ احترام حقيقي لوالديها اللذَيْن تعتبرهما

موجودَين لخدمتها فقط. ونقطة على السطر. وبما أنّ احترام الأطفال للأشخاص الذين يمثّلون السلطة يبدأ باحترام والديهم، لم تكن الفتاة تحترم معلّمتها. لكنّ المعلّمة قامت على النقيض من الوالدين بإصدار تعليمات إلى الفتاة، فرفضتْها هذه دون تردّد. وبالرغم من أنّها لم تكن «تسبّب أيّة مشكلات» لوالديها فقد صارت هي مشكلة كبيرة في الصفّ ـ ومرشّحة للتشخيص النفسي. ولم يكن مستغربًا أن توصي المعلّمة الوالدين بمراجعة صديقي بشأن معالجتها من «اعتلال الرفض العنادي».

ويبدو أنّ الوالدين اليوم يؤمنون بإمكانية حلّ أيّ مشكلة سلوكية باللجوء إلى الأسلوب التأديبي الصحيح. ويقودهم ذلك إلى الاعتقاد بأنّ أطفالهم لا بدّ وأن يكونوا مصابين «باعتلالات» من نوع أو آخَر إذا لم ينجح أيٌّ من تلك الأساليب. والحقيقة هي أنّ التأديب الفعّال يتوقّف على الوجود المسبق لوضعية معيّنة تتمثّل ميزتها الأساسية في توفّر حدّ بين الوالد (الوالدة) والطفل. وتنعدم هذه الوضعية عندما ينام الأطفال مع والديهم.

إنّني متشدِّد جدًّا عندما يتعلّق الأمر بالحدود بين الزواج (أو الوالد الوحيد ـ الوالدة الوحيدة) والطفل، وبديهي أنّ طبيعة الطفل في العامَيْن الأولَيْن من حياته لا تتوافق مع وجود «حاجز» من هذا النوع، لكنّ هذا الحاجز يجب أن يُبنى ببطء وثبات بين عامَيه الثاني والثالث. وفي ذلك الوقت لا يجوز حتى السماح للطفل بدخول غرفة نوم والديه من غير الوقوف خارج الباب ودَقّه والاستئذان في الدخول. ويمكن تعليمُ طفل في الثالثة من عمره هذا الأمر ومطالبته بأنْ يتذكّره. ولا يقلّل هذا الحاجز بأي شكل من الأشكال مقدار المحبة بين الوالدين والطفل، بل إنّ النقيض هو الصحيح لأنّ لحظات الوداد تصبح أغنى في معانيها. وفي مثل هذه الأحوال لا مانع لديّ من السماح للأطفال بين الحين والآخَر بدخول غرفة نوم والديهم في الصباح لتمضية بعض الوقت في العناق والتحبّب لمدّة ثلاثين دقيقة مثلاً قبل أن ينهض الجميع من الفراش. وغنيّ عن القول إنّه من الجائز تمامًا أن ينام طفل مريض خلال الفترة الحرجة من سُقامه مع والديه أو أن ينام أحدهما مع الطفل.

هل هناك أسئلة؟

سؤال: لدينا، زوجي وأنا، ابنة في الخامسة وابن في الثانية من العمر، ويمرّ ابننا حالياً في مرحلة من التعلّق الشديد بشخصي. وقد أصيب قبل ثلاثة أشهر بنوبة عنيفة من قلق الفراق عندما غيّرنا موضع نومه وأصبح كلّ اهتمامه منصباً على الماما منذ ذلك الوقت. إنّه يريدني أن أفعل كلّ شيء له، ويصرخ ويقاتل إذا حاول أبوه أن يقوم حتى بأصغر الأمور. غير أنّه يكون في حالة ممتازة خلال النهار مع جليسته المعتادة. وعليّ أن أقوم برحلة عمل تستغرق أيّامًا قليلة بعد أسبوعين، فهل هناك شيء أستطيع القيام به بين الآن وموعد سفري لجعل غيابي أسهل وقعًا على ابني أو لتهيئته لذلك؟ لقد اطلعتُ على وصفات «فَهْلَوية» كثيرة، لكنّني لا أعرف ما إذا كان أيّ منها سينجح.

جواب: نصيحتي غير «الفَهْلَوية» التي قد تبدو مستغربة ومنافية لمبادئ علم النفس هي أن تختفي بكلّ بساطة. إنّ طقوس الوداع الطويلة ومحاولتك شرح هدف رحلتك ومدّة غيابك لن تثمر شيئًا سوى خلق وضع شبيه بمسلسل درامي تلفزيوني وتهيئة الظروف لفراق صعب جدًّا عليك وعلى ابنك. وهو لن يفهم إلّا أنّك قلقة وأنّك مسافرة وأنّه لن يسافر معك، فتكون النتيجة الحتمية «واع، واع، واع» إلى ما لا نهاية.

قبل أشهر قليلة تقرّر أن تجلب زوجة ابننا نانسي حفيدنا توماس البالغ من العمر سنتين ليبقى عندنا يومين لتتمكّن من حضور مؤتمر. وأبلغتني جدّته (زوجتي ويلي) أنّه طفل «لصيق» جدًّا «ومتعلّق بالماما» وسيجد بالتأكيد صعوبة في الابتعاد عن أمّه نانسي في نقطة الافتراق ـ أي المطار. شكّكت أنا في ذلك نظرًا إلى معرفتي بنانسي، لكنّي لم أقل شيئًا بناء على الدروس الثمينة الكثيرة التي تعلّمتُها خلال سبع وثلاثين سنة من الزواج.

استقبلتُ نانسي وتوماس عند نزولهما من الطائرة، وفيما نحن متّجهون إلى السيارة حيث كانت زوجتي في انتظارنا قلتُ لنانسي إنّ لحظة الافتراق يجب أن

تكون سريعة، فوافقتني. ولدى وصولنا إلى السيارة أجلستْ نانسي ابنها في مقعده الخاص وربطت حزام الأمان ثم قبّلته وأغلقت باب السيارة.

انطلقنا بالسيارة ومضت خمس دقائق تقريبًا قبل أنْ يدرك توماس أنّ أمّه لم تكن في السيارة، فبدأ وجهه في الانكماش وراح يشهق تمهيدًا للبكاء. فما كان منّا، جدّته وأنا، إلّا أنْ بدأنا نحدّثه عن الأمور الرائعة التي سوف نقوم بها، فتوقّف عن الشهيق.

وبعد يومين حضرت نانسي لتستعيد توماس فوجدَتْه مثالاً لطفل في الثانية من عمره تغمره السعادة.

وفي هذه المناسبة أقول إنّ عليكم، أنت وزوجك، أن تتوقّفا تمامًا عن السماح لطفل يتعلّم المشي بأن يقرّر مَنْ مِنْ والديه يفعل ماذا من أجله. كيف يمكن لطفل في الثانية من عمره يَزِن تسعة كيلوغرامات أن يمنع أباه من فعل أشياء من أجله؟ هل يصرخ؟ فليصرخ. هل يقاتل؟ فليقاتل. هل يتصرّف وكأنّه مصاب بنوبة ذعر في صيغة طفولية؟ فليكنْ. ما على الأب إلّا أن يمضي قُدُمًا بكل بساطة وأنْ يفعل ما جاء لفعله. واجبه أن لا يعير أيّ انتباه لصراخ الطفل أو ذعره. والأمر ذاته ينطبق عليكِ أيضًا.

قولي لطفلك: «نعم، أبوك سيغيّر حفاضك. آه، لا بأس في ذلك. اهدأ، اهدأ، كل شيء بخير. يمكنك أن تصرخ إذا شئت، لا بأس في ذلك. أبوك يحبّك وأنا أحبّك أيضًا.»

وإذا لم تتمكّنا، أنتِ وزوجك، من السيطرة على هذه العلاقة الآن فسوف تدفعان ثمنًا غاليًا في المستقبل. أكرّر: الآن، اليوم وليس غدًا.

سؤال: ساعِدني! جرّبتُ كلّ شيء دون جدوى. أنا أمّ لصبيّيْن عمرهما ستّة أشهر واثنان وثلاثون شهرًا. صعوبتي هي مع الأكبر، فهذا الطفل الوديع والمرِح والودود يعاني من مشكلة مع برنامج الرعاية الصباحية في مدرسة الحضانة أثناء غيابي، وهذه سنته الثانية هناك. في السنة الماضي كان يبكي كلّ يوم أوصله فيه إلى داخل المدرسة، ثم يتوقّف عن البكاء في غضون عشر دقائق. وفي هذه السنة

لم أعُد أسير معه إلى الداخل بل صرت أستعمل خطّ سيارات النقل المشترك (*Pool Line*) حيث لا أستطيع النزول من السيارة (وكي لا أُضطرّ إلى إنزال أخيه من مقعده). وعندما تحاول المعلّمة المشرفة إخراجه من السيارة يأخذ في البكاء ويسقط على أرض السيارة ويقاوم. وهذا الصباح زمجر فعلاً في وجه المعلّمة عندما حاولتْ فكّ حزام أمان مقعده. والآن أتلقّى تقارير تفيد أنّ سلوكه صار مطبوعًا بالتحدّي وقلّة الاحترام أثناء وجوده في المدرسة. وأمس راح يقذف أغراضًا في أرجاء الصفّ عندما وبّختْه المعلّمة لفعلةٍ ما. وتعتقد المعلّمة بأنّه غير واثق من نفسه بسبب وجود طفل آخر في الأُسرة. لكنّه لا يتصرّف على هذا النحو في المنزل. كذلك تفكّر المعلّمة في وضع نظام مكافآت خاصّ به، لكنّي أظنّ أنّ ذلك ضارّ له. هل لديك أيّة اقتراحات؟

جواب: أولاً، أنا أميل إلى الموافقة على أنّ هذا السلوك لا علاقة له بتاتًا بولادة أخيه الصغير. لقد بدأت هذه المشكلة قبل ولادة أخيه ثم تضخّمت ببساطة. ثانيًا، أوافق على أنّ وضع نظام مكافآت خاص فكرة سيئة. فعندما يسيء طفل التصرُّف يكون القصاص هو الجواب. ولسوء الحظّ لا تستطيع مدارس الحضانة ورياض الأطفال الحصول على تراخيص معيّنة إذا كانت تعاقب على سوء السلوك. وأنا مقتنع بأنّ هذا من الأسباب الكامنة خلف الاستنتاجات التي تتوصّل إليها الدراسات الآن، والتي تفيد أنّ الأطفال الموضوعين في الرعاية النهاية أكثر عدوانية وتمرُّدًا من الأطفال الذين يَلْقون الرعاية في منازلهم.

بعد هذا التمهيد لا بدّ من القول إنّ حقيقة كون هذا البرنامج (إرسال الطفل إلى الحضانة) أمرًا طوعيًّا تطغى على جميع الاعتبارات الأخرى. وعندما يعاني طفل في الثانية من عمره مشكلة من هذا النوع بسبب إدخاله في برنامج طوعي وعندما يزداد سلوكه الرافض سوءًا، تكون نصيحتي إخراج الطفل من الحضانة ببساطة. الأمر لا يستأهل المعركة، فضلاً عن كونها معركة قد لا تستطيعين ربحها. انتظري أسابيع قليلة ثم اعثري على برنامج آخَر أو ملعب تعاوني أصغر. وقد يُحدِث تغيير المكان فارقًا كبيرًا جدًّا.

سؤال: كيف تجعل طفلاً يترك سريرك؟ قبل ستّة أشهر سمحتُ لابننا الوحيد البالغ من العمر سبع سنين بالنوم معي لليال قليلة أثناء غياب زوجي في رحلة عمل. وعندما عاد زوجي إلى المنزل رجانا ابننا أن نسمح له بالنوم معنا ليلتين. اعتقدنا أن لا بأس في طلبه، لكنَّه صار يبكي بعد ذلك عندما حاولنا جعله ينام في سريره. ثم توصّلنا إلى حلّ وسط فسمحنا له بإبقاء جهاز التلفزيون شغّالاً في غرفته بعد ذهابه إلى سريره إلى أن يستسلم للنوم. لكنّ هذا الترتيب يُبقيه مستيقظًا حتى ساعة متأخّرة فيصعب عليه القيام في الصباح. وعندما نحاول إقناعه بإطفاء التلفزيون يستاء كثيراً ويطلب أن ينام معنا ـ مثلما حزرتَ أنت. إنَّنا نشعر وكأنَّنا خلقنا وحشًا ولا نعرف كيف نُبطِل ما فعلنا، نرجوك المساعدة.

جواب: المشكلة في جوهرها ليست أنَّ ابنكما يريد النوم معكما أو أنَّه يريد مشاهدة صندوق البلاهة (التلفزيون) حتى ساعات الصباح الأولى، بل إنَّكما، أنتِ وزوجك، لا تستطيعان إرغام نفسيكما على اتخاذ قرارات تزعجه. نعم، لقد ارتكبتما خطأ في السماح له بالنوم في سريركما، ثم ارتكبتما خطأ آخَر في السماح له بمشاهدة التلفزيون بعد فوات موعد ذهابه إلى النوم. وقد أخطأتما في الواقع عندما وضعتما جهاز تلفزيون في غرفته، لكنّ هذا موضوع آخَر. ولا بدّ أن تكونا قد تعلَّمتما الآن أنَّكما «إذا أعطيتما ابنكما إصبعًا فسيريد الذراع كلّها» لاسيما وأنَّكما تعيشان معه منذ أكثر من سبع سنين. لكنّ الخطأ الأكبر الذي ما انفككتما ترتكبانه خلال معظم هذه السنين السبع هو تراجعكما عن قرارات تعكّر مزاجه. والواقع أنَّكما لم تجبراه مطلقًا على التخلّي عن سلوكه كطفل دون الثالثة من العمر والبدء في قبول المبدأ الأساسي للحقيقة وهو: إنّ ما يريده الإنسان نادرًا ما يتطابق مع ما يحتاج إليه، أو كما قال مايك جاغر (Mike Jagger) عضو فرقة رولنغ ستونز (Rolling Stones) الغنائيَّة بفصاحة بالغة: «لا تستطيع أن تنال دائمًا ما تريد، لكنْ إذا حاولت فقد تعثر أحيانًا على ما تحتاج إليه.»

لا يهمّ إطلاقًا إذا كان ابنكما يبكي عندما تحرمانه من ترف النوم في سرير الزوجية. هذا أمر تافه، فالطفل لا يعرف مصلحته الحقيقية. والدليل على ذلك أنَّ

الأطفال كثيرًا ما يستاؤون عندما يتّخذ ذووهم قرارات صائبة (مثل قولهم: «كلاّ لا تستطيع الحصول على بندقية ضغط»). وكثيرًا ما يقفز الأطفال فرحًا عندما يتّخذ ذووهم قرارات خاطئة (مثل قولهم: «نعم سأشتري لك بندقية ضغط»). المشكلة أنّكما تعتبران بكاء طفلكما حدثًا سيكولوجيًا، شأنكما في ذلك شأن والدين آخرين كثيرين. تظنّان أنّ عليكما إصلاح (تصحيح، إزالة، تغيير) كلّ ما يدفع طفلكما إلى البكاء. وهذا مثال على ما أُسمِّيه أنا «التفكير السيكولوجي» الذي يؤدِّي إلى نتيجة حتمية واحدة هي تعطيل سلطة الوالدين وقدرتهما على اتخاذ القرار.

إنَّ الزواج مكوَّن من شخصين لا من ثلاثة ولا يجوز أن يكون تفكير الطفل مخالفًا لهذه القاعدة. ولهذا السبب البسيط ينبغي أن ينام طفلكما في سريره الخاصّ سواء أراد ذلك أم لا. وعندما يحين موعد ذهابه إلى السرير عليه أن يخلد إلى النوم لا أن يشاهد التلفزيون، شاء أم أبى. إنَّ حلّ مشكلتكما هو أن تعمدا، أنت وزوجك، إلى التحلِّي بالحزم وأن تقولا لابنكما بكلمات لا لبس فيها إنّ عليه الذهاب إلى سريره الخاص عندما يحين وقت نومه وإنّه لن يشاهد التلفزيون هناك ويستطيع أن يبكي قدر ما يتطلّب قبوله هذا الواقع.

هذا مثال على «العلاج الواقعي»، وما مِنْ شيء يشفي المشكلات السلوكية أسرع من جرعة مُعتَبرة من الواقع.

سؤال: عندما أدركْنا، زوجي وأنا، أنَّنا أخطأنا في تكوين منزل يحتلّ فيه الطفل موقع الصدارة بدأنا نتشدَّد مع ابننا المُدلَّل جداً البالغ من العمر خمس سنوات وصرنا نركِّز اهتمامنا على زواجنا. وبعد مرور ثلاثة أشهر بدأت الأمور تسير جيِّداً باستثناء واحد هو أنَّ ابننا يستمتع باللعب مع أخيه البالغ عشرة أشهر، لكنّ الصغير بكى ثلاث مرات في الآونة الأخيرة وعندما ذهبت للتحقّق من الأمر كانت علامات الذنب بادية في نظرات الأخ الكبير. وحتى الآن تعرّض الصغير لخدش تحت إحدى عينيه ولطخة حمراء على الوجه حيث أصابته كرة. وفي المرة الأخيرة كان الأخ الكبير خشناً جداً مع الصغير بحيث كاد هذا أن يتقيأ. وعندما يُؤمَرَ الأخ الكبير بالبقاء محتجزاً في غرفته بسبب هذه الأفعال يستاء من

تعرّضه للعقاب أكثر من استيائه لإصابة أخيه بالأذى. إننّا قلقان لانعدام شعور الندم لديه، ونتيجة لذلك حرمّنا على الأخ الكبير الاقتراب من الصغير لفترة من الزمن، سؤالنا هو هل نبالغ في توقّعاتنا؟

جواب: عندما يكون هناك تعاطٍ يومي بين صبيّ في الخامسة من العمر ورضيع في شهره العاشر لا بدّ وأن يعاني الأصغر بعض الألم بين الحين والآخَر. وهذه هي النتيجة الحتمية لإنجابك ابنَين صبيَّيْن، وسوف تصابين بالجنون تباعًا إذا حاولتِ أنْ تمنعي حدوث ذلك. وسيتعرَّض الأخ الصغير لأذى ناجم عن اللعب أكثر من أخيه الكبير خلال السنوات الثلاث أو الأربع القادمة حتى يبدأ التفاوت الجسدي بينهما في الزوال. وهذا الأمر ليس سيِّئًا بالضرورة، بل هذا هو واقع الحياة. يُضاف إلى ذلك أنَّ رغبة الأخ الكبير في اللعب حتى مع رضيع في شهره العاشر هي إشارة حسنة ودليل مبكّر على وجود علاقة متنامية، وعليكِ أن تكوني ممتنّة لغياب مؤشّرات البغضاء المبكّرة التي يمكن أن تظهر لو كان ابنك البكر مدلَّلاً إلى حدّ مفرط حقًّا كما يبدو أنَّك تظنّين.

أنا أعتقد أنَّك تحاولين أن تصحِّحي بين عشية وضحاها الوضعَ الذي احتجتِ أنت وزوجك إلى خمس سنوات لإنشائه، وهو جعل العائلة تتمحور حول الأطفال. ونفاد صبرك هو الذي يدفعك إلى المبالغة في ردّ فعلك على وضع طبيعي بحدّ ذاته. كما أنَّك تُسيئين تفسير ردّ فعل الأخ الكبير على معاقبته لإيذائه أخيه الصغير. تظنّين أنّه فاقد للشعور بالندم، لكنّي أعتقد أنَّه محقّ في استيائه من التعرّض لقصاص على أمر لم يقصد القيام به.

مثلاً، إذا كنتُ أحاول وأنا أقود سيارتي أن لا أتجاوز الحدّ القانوني للسرعة، وفاتتني رؤية إشارة تخفيف السرعة فدُوِّنتْ مخالفة بحقِّي فلن أشعر بالندم عندئذٍ بل سأستاء (داخليًّا) لنيلي المخالفة لأنّي في الأساس لم أكن أبيّت نية الإسراع. بالمقابل، إذا كنتُ أُسْرع عن قصد محاولاً اختصار وقت الرحلة ثم ضبطتْني الشرطة فسوف أقبل المخالفة وأعتذر للشرطي وألوم نفسي أيّما لوم. ولديّ شعور قوي بأنَّ ابنك

الكبير يُعطى «مخالفات» لأنَّه يتجاوز عن غير قصد «حدود السرعة» المفروضة حول أخيه الصغير. وفي ظروف كهذه أتوقَّع منه أن يكون مستاء لا نادمًا، إنَّه يُعاقب على خشونة تصرُّفه في أسوأ الأحوال.

وعندما تقع حوادث من هذا النوع يجب أن تغتنمي الفرصة لمساعدة الأخ الكبير على فهم حدود أخيه الرضيع. مثلاً يمكن أن تقولي له: «أعرف أنَّك تريد تعليم أخيك لعبة الالتقاط، لكنْ لا يمكنك تعليم طفل رضيع كيف يلتقط الأشياء برمي أغراض عليه.» حاولي بعد ذلك أن تعلِّميه أساليب في اللعب لا تنطوي على خطر إيلام الرضيع، مثل لعبة دحرجة الكرة بدل رميها. كذلك عليك أن تُثني عليه لمحاولته أن يكون أخًا كبيرًا محبًّا، مهما تكن حركاته خشنة في بعض الأحيان.

وفي ما يتعلَّق بتصحيح تَمَحْوُر عائلتك حول الطفلين، أوصيك بأن تهدّئي اندفاعتك. فمن الواضح بالنسبة إليه أنَّك وزوجك لم توجِدا مشكلة بالحجم الذي تتصوَّرانه. وما من علاج شافٍ لحالة طفل تلقّى قدرًا مفرطًا من الاهتمام أفضل من إضافة جديدة إلى العائلة.

سؤال: لدينا، زوجي وأنا، ابن في الرابعة من عمره وابنة في الثامنة. إنّهما ينوحان ويبكيان عندما لا ينالان ما يريدان ويظنّان أنّ كلمة «كلا» لا تعني «كلا» كما يبدو. وهناك أيضًا قدر كبير من تنافس الإخوة والمشاحنة بينهما عندما يكون عليهما القيام بما يُطلب منهما. وتقتضي متطلِّبات عملنا في أحيان كثيرة أن أتناوب مع زوجي في رعاية الطفلين، لاسيّما عند أخذهما إلى نشاطات ما بعد المدرسة، وإطعامهما والتأكّد من إتمامهما واجباتهما المدرسية، ولديّ شعور بأنّ كلّ ما نفعله هو الصراخ والصياح. أنا أدرك أنّ هذه مشكلة عويصة، لكنْ هل تستطيع تزويدي باقتراحات مفيدة؟

جواب: إنّك تصوّرين في سردك ما أُسمّيه أنا «ظاهرة العائلة المسعورة» التي تنشأ نتيجة لإنهاك الطاقات العاطفية للإنسان إلى أقصى حدودها عن طريق الإفراط في تحميلها التزامات خارجية. ومن الواضح تمامًا أنّك وزوجك تُمضيان معظم وقتكما

جريًا بين التزام وآخَر بما يشبه حركات البهلوان الذي يركض باستمرار على المسرح لترقيص أطباقه الدوّارة. وبحكم هذا الواقع أصبحتم عائلة بالاسم فقط. وأراهن على أنّكم نادرًا ما تجلسون معًا لتناول وجبة عشاء هادئة ومتمهّلة وأنّ زمنًا طويلاً انقضى وطواه النسيان منذ قمتم بنزهة عائليّة أو تمشّيتم الهُوَيْنا في حديقة الحيوان. أُراهن كذلك على أنّكِ وزوجك تكونان منهكَين تمامًا في المساء عندما يذهب طفلاكما إلى النوم بحيث يتعذّر عليكما أن تكونا زوجًا وزوجة.

يحقّ لراشد أو راشدين وأطفال تجمع بينهم روابط بيولوجية أو قانونية أن يسمُّوا أنفسهم عائلة. لكنّ الانتماء فعلاً إلى عائلة بالمعنى الحقيقي للكلمة يقتضي التزامًا بتخصيص كثير من الوقت لا لشيء إلّا المكوث معًا والاستمتاع بصحبة الآخرين (لا يشمل ذلك الجلوس معًا في غرفة والتحديق في جهاز التلفزيون).

نعم، لديّ اقتراحات مفيدة. أولاً، أنا مؤمن تمامًا بأنّ المستوى العام للإجهاد النفسي في عائلتك سينخفض بنسبة كبيرة إذا تخلّى أحدكما عن وظيفته. وقد أظهرت دراسات أنّ الدخل الثاني للعائلة يؤدّي في معظم الحالات إلى زيادة نفقات العائلة ورفع تصنيفها الضريبي إلى درجة أعلى فيما يتكوّن انطباع واهم بأنّ العائلة تتمتع بمستوى معيشي أفضل. والنتيجة النهائية لهذا الوضع هو زيادة معتبَرة في أعباء الديون المتراكمة على العائلة ما يجعل الدخل الثاني ضروريًّا، علمًا أنّه لم يكن كذلك في البداية. وإن كنتِ لا تستطيعين أن تتصوّري كيف يمكنكما أن تتخلّيا عن أحد الدَّخْلَين نظرًا إلى الدَّيْن الذي تراكم عليكما، أنصحكما بمراجعة مستشار مالي. وقد تضطرّان في نهاية المطاف إلى الاختيار بين التخفيض المستمرّ للضغوط المالية والتصاعد المستمرّ للفوضى العائلية. وسيظل الوضع يزداد سوءًا إذا حاولتما إبقاء الأمور كما هي الآن.

ثانيًا، أوصي بإخراج الطفلين من معظم نشاطات ما بعد المدرسة التي يمارسانها، أو على الأقلّ عدم تجديد أيّ نشاط ينتهي أمده. وفي المستقبل اجعلا كلًّا من طفليكما يمارس نشاطًا واحدًا بعد المدرسة في كل موسم (باستثناء فصل

الصيف الذي يجب أن يُخصَّص كلّيًا للنشاطات العائلية). وهناك تنبيه لا بدّ منه هو أنَّه لا يجوز لأي نشاط أن يتعارض ومقدرتكم على الجلوس معًا كل مساء لتناول وجبة عشاء عائلية في جوّ مريح.

وأنا واثق من أنَّ مشكلات التهذيب التي تعانين منها مع طفليك ستبدأ في «حلّ» نفسها بنفسها فيما تكتسب عائلتك إحساسًا بالتوازن. وفي أيّ حال لن تتمكّني من تهذيب طفليك بصورة فعّالة قبل أن تعيدي التوازن والانتظام، إلى كيانك العائلي.

سؤال: لديّ ابنان عمرهما عشرون شهراً واثنان وثلاثون شهراً. أريد أن أعرف كم من الوقت يجب أن أُمضي في القيام بنشاطات معهما كلّ يوم بالإضافة إلى الدقائق الثلاثين التي أخصّصها يومياً لمعانقتهما والقراءة لهما قبل أن يخلدا إلى النوم؟ أيضًا، هل هناك دلالة لطريقة لعبهما؟ فكثيراً ما يطارد أحدهما الآخَرَ في أنحاء البيت ويلعبان بخشونة ويتسلّيان أحيانًا بألعاب الركوب، لكنّهما نادراً ما يستعملان ألعابهما التثقيفية مثل المكعّبات والأحاجي. هل توجد طريقة أستطيع من خلالها استثارة اهتمامهما بهذه الألعاب؟

جواب: في ما يتعلّق بالمدّة التي تُمضينها في القيام بنشاطات مع طفليك تذكّري أنَّ أهمّ شيء يمكن للوالدين القيام به مع الأطفال الصغار هو القراءة لهم، وهذا ما تقومين به أنت بالفعل. والرأي المنادي بضرورة جلوس الوالدين على الأرض للعب مع أطفالهم الصغار لفترة من الوقت كلّ يوم فكرة حديثة جدًّا، أي أنّها دون أيّ مضمون. والحقيقة هي أنَّك تستطيعين الجلوس على الأرض وبناء قلعة من مكعّبات اللعب مع طفليك إذا كنت ترغبين في ذلك.

أمّا إذا انتفت رغبتك فلا تفعلي، إذ لا يجوز أن يتعلّم طفلاك أنَّك علاج جاهز للسأم ـ أي رفيقة لعب. لا تحاولي أن تضعي نظام حصص للّعب مع الطفلين مثل نظام الكوتا، وعندما تلعبين معهما لا تمارسي «نشاطات» بل العبي فقط من أجل اللهو. وعندما تكتفين من اللعب قولي لهما ذلك ببساطة واذهبي إلى شؤونك الخاصّة. ومن الأفضل لهما على المدى الطويل أن يتعلّما اللعب وحدهما. وإن شعرتِ

بالحاجة إلى التفاعل معهما مرّات عدّة في اليوم، اقرئي لهما مدّة ثلاثين دقيقة مرَّتين أو ثلاث مرات يوميًا. فالقراءة لهما تنمّي مخيّلتهما وتهدِّئهما لبعض الوقت، ما يعود بالفائدة عليك أنت كما أظنّ.

في عمر طفليك لا يكون اللعب منظَّمًا جدًّا، وليس من الضروري أن يُجهد أحد نفسَه لتنظيم اللعب أو تحويله إلى «تجربة تعليمية» محدَّدة. فلعب الطفل الذي يتعلَّم المشي تلقائي وكثير الحركة (في الغالب) وقليل التوجُّه نحو هدف ما. ويمكن القول باختصار إنَّ ما يمارسه ابناك من جري ومطاردة وقفز ينسجم تمامًا مع طبيعة عمرهما، وهما يتعلّمان الكثير بطريقتهما الصاخبة. وثمّة وسيلة أخرى لجلب بعض الهدوء إلى حياتك هي تحديد فترات عدّة في اليوم ينفصل خلالها الطفلان ويلعب كلّ منهما وحده بهدوء لمدة خمس عشرة دقيقة على سبيل المثال. استخدمي منبّه توقيت لتحديد فترة الهدوء. وعندما يتكيَّف الطفلان مع فترة الدقائق الخمس عشرة، مدّديها إلى عشرين دقيقة وهكذا دواليك. وإذا واظبتِ على استخدام هذه الوسيلة فقد تصلين إلى فترات تمتد كل منها ساعة كاملة مع بلوغ ابنك الكبير عامه الثالث.

وفي ما يتعلَّق بألعابهما، أنصحك بأن تسحبي من التداول الألعاب التي لا يستخدمانها. وكما قلتُ، ينبغي أن تبقى معظم اللُّعَب المُصنَّعة في هذه الأيام على رفوف المتاجر لأنَّها عديمة القيمة والفائدة. وتسترعي طريقة التغليف والألوان الزاهية انتباه الطفل، لكنْ عند تصل اللعبة إلى يديه قد لا تتجاوز حياتها «اللَّعِبية» خمس عشرة دقيقة. إنَّ الألعاب التي يستعملها طفلاك يجب أن تختفي بهدوء، فتسحبين لعبة أو لعبتين كلّ مرة وتضعين عوضًا عنها علبًا وأواني وأطباقًا وملاعق خشبية وما شابه ذلك. أمّا اللُّعَب، فتصدّقي بها.

وعندما تعثرين على خمس لعب أو عشر يطيب لطفليك اللعب بها ابدئي في تكوين مكتبة للُّعب. احفظي اللعب في خزانة ولا تسمحي لكلّ طفل باستعمال أكثر من لعبة أو لعبتين في آن واحد، وعندما يملّ من لعبة معيَّنة يعيدها ويحصل على لعبة أخرى مكانها. سيساعد ذلك بالتدريج على جعل طريقة لعبهما أكثر تركيزًا وانتظامًا، ناهيك عن التخلُّص إلى حدّ بعيد من فوضى اللُّعب المبعثرة في أنحاء المنزل.

سؤال: نعتزم، زوجي وأنا، أن نقوم قريباً برحلة تستغرق أربعة أيام وخطّطنا لترك ابنتنا البالغة من العمر ثمانية عشر شهراً مع والديْ زوجي. والدته، أيْ جدّة الطفلة، تعمل لكنّها تعتزم أخذ إجازة لتبقى مع ابنتنا خلال النهار. وكنّا قد تفاهمنا مع جليسة أطفال تعرفها ابنتنا للقيام بالمهمّة، لكنّ الجدّة ترفض ذلك رفضًا قاطعًا. وقالت لنا إنّ علينا ألا نُدْهش عند عودتنا إذا نظرتْ ابنتنا إلينا وكأنّنا غريبان تمامًا. وقد جعلني ذلك أُعيد التفكير في ما إذا كنت سأسافر أصلاً. ما رأيك في الأمر؟

جواب: أعتقد أنّك وزوجك محقّان في القيام برحلة قصيرة معًا. لقد ترك ابني وزوجته طفلهما الأوّل لدينا، زوجتي ويلي وأنا، لمدّة أربعة أيام عندما كان عمر الطفل ستّة أسابيع فقط.

وقد كنّا نشجّعهما دائمًا على القيام بذلك ونذكّرهما بأنّ زواجهما يأتي أولاً، لا أطفالهما، وبأنّ بقاء الزواج في المرتبة الأولى هو في مصلحة الأطفال.

أظنّ كذلك أنّك محقّة بخصوص الجليسة. فابنتك ستكون في أحسن حال مع شخص تعرفه، وقد تبكي قليلاً في الواقع عندما تسلّمها الجدّة إلى الجليسة في الصباح، لكنّ ذلك سينتهي في غضون دقائق من مغادرة الجدّة. وهذا أكيد بنسبة 99.9 في المائة. وفي مثل هذه الحالات ينبغي أن يدرك الوالدون والأجداد أنّ بكاء الطفل ليس مؤشّرًا على أنّ الفراق بحدّ ذاته سيكون صعبًا، بل أنّ فعل الافتراق هو الصعب. ويتغلّب الطفل على صعوبة الافتراق بأسرع ما يمكن إذا تمّ الافتراق بسرعة.

كذلك أتّفق مع الجدّة. إذا كانت تريد أخذ إجازة من عملها للبقاء في المنزل مع حفيدتها خلال النهار، فلا بأس في ذلك، فلتفعل الجدّة ما تريد فعله بالتمام وعليك أنتِ ألّا تتدخّلي. ولا تنسي أنّ الجدّة ستشعر بالقلق طوال النهار وهي في العمل.

إذًا لماذا لا يكون هناك شخصان مطمئنّان آمنان عوضًا عن واحد فقط؟ لذلك الأفضل أن تبقى الجدّة في المنزل وتوفّر عليك بعض المال أيضًا.

أنا متّفق مع الجدّة على وجه العموم، لكنّ عليّ أن أخالفها في توقّعها أنْ تنظر إليكما ابنتكما وكأنّها لا تعرف مَن تكونان. هيّا أيّتها الجدّة العزيزة، عليك أن تكوني أعلمَ من ذلك! تذكّري أنّ جروًا صغيرًا عمره أربعة أشهر يتعرّف إلى صاحبه بعد غيابه عنه أسبوعًا كاملاً ويجدّد الصلة معه بصورة فورية تقريبًا. ولا أظنّ أنّنا نبالغ إذا افترضنا أنّ كائنًا بشريًّا ذكيًّا عمره ثمانية عشر شهرًا سيتعرّف إلى والديه بعد أربعة أيام من الفراق. عندما كان حفيدنا جاك رضيعًا عمره ستّة أسابيع وَجَّهَ انتباهه فورًا نحو والديه لدى عودتهما من عطلة نهاية أسبوع طويلة. وجاك موهوب جدًّا جدًّا نظرًا إلى كونه حفيدي، لكنّي لا أظنّني مخطئًا في افتراضي أنّ ذكاء ابنتكما البالغة ثمانية عشر شهرًا مساوٍ على الأقل لذكاء جاك ابن الأسابيع الستّة.

كلا، لن ترجعا لتجدا ابنة تحدّق في الفضاء ولا تتجاوب وترفض أن تأكل ولا تُصدِر أيّ صوت. سوف تعرفكما وتستقبلكما بكلّ الحماسة التي يستطيع طفل في شهره الثامن عشر أن يُظهرها. كذلك لن تضطرّ ابنتكما في عامها الخامس والعشرين إلى الخضوع لعلاج نفسي بسبب رحلتكما.

لكنْ سايري الجدّة بكلّ تأكيد ولا تدخلي في جدال معها حول هذا الموضوع لأنّك لن تغيّري رأيها. سافري أنت وزوجك واستمتعا برحلتكما. هيّا!

سؤال: لا تستطيع ابنتي البالغة من العمر أربع سنوات النوم إلا إذا تمدّدتُ معها في السرير، ونادراً ما أمضت ليلة كاملة في سريرها الخاص. وقد باءت كل محاولاتي لتصحيح هذا الوضع بالفشل. لقد كانت تُصاب بنوبات هستيرية عندما تستيقظ في منتصف الليل وتكتشف أنّي لم أعد موجودة إلى جانبها، والآن تكتفي بالمجيء إلى سريري والاندساس فيه. وإذا بذلتُ أي محاولة لإقناعها بالعودة إلى سريرها تبدأ في البكاء. أقول بصراحة إنّي والدة وحيدة عاملة ولا أمتلك القوة الكافية لأكافح ضد هذا الوضع. إنّها تعرف ماذا أريدها أن تفعل، لكنّها تعرف أيضًا أنّني لست قادرة بعد على فرض إرادتي. هل تستطيع تزويدي بخطّة قابلة للتنفيذ ولا تسبّب لها ـ ولي بالتالي ـ ألمًا شديداً؟

جواب: كلا. لا يوجد شيء يُسمّى خطّة بلا ألم لتحويل ابنتك إلى شخص مستقلّ في نومه. لكنْ قبل أن أقول لك كيف تفعلين ذلك، دعيني أُسجِّل أنَّ حالتك تُثبت أنَّ الأطفال المستقلّين في نومهم هم أطفال سعداء. لنكنْ صريحين ونعترف بأنّك لم تصِفي لي طفلاً سعيدًا، فابنتك البالغة من العمر أربع سنوات فاقدة الاستقلالية تمامًا وتعاني من ذعر وقت النوم. إنّها ضحية أخرى في القائمة الطويلة من ضحايا ما يُسمَّى «النوم الجماعي العائلي». وما أرهب التفكير في أنَّ هناك «خبراء» (مثل الدكتور ويليام سيرز) بنوا شهرتهم على نصح الناس باتّباع هذه العادة التي تشلّ العائلة وتضع الزواج في المرتبة الثانية التي تلي العلاقة بين الوالدين (الأمّ عادة) والطفل الذي يصبح في المرتبة الأولى!

وتعود تجربتي مع هذه المشكلة إلى أواسط سبعينيات القرن الماضي عندما بدأتْ حركة أنصار «السرير الجماعي العائلي» تتقوّى. ومنذ ذلك الحين أصبح نوم الأمّ مع طفلها أو السماح للطفل بالإخلاد إلى سرير الزوجية رمزًا لالتزام الأم تجاه طفلها وتفانيها من أجل مصلحته.

أولاً، دعيني أؤكّد لك أنَّ حلّ هذه المشكلة الآن أسهل من التأجيل إلى الأسبوع القادم أو السنة القادمة. أنصحك بإعادة تأهيل ابنتك في ما يتعلّق بعادات نومها مساء الجمعة القادم على أبعد تقدير. خذي إجازة يومَي الخميس والجمعة إذا استطعت وطبِّقي الحلّ الذي سأفصِّله لاحقًا مساء الأربعاء، ما يعطيك أربع ليال من «العلاج» قبل أن تُضطرّي للعودة إلى العمل. ومن المفترض أن تكون أربع ليال كافية. ثانيًا، ما من سبيل للنجاح في هذا المسعى من دون إزعاج ابنتك. تذكَّري فقط أنَّ صراخها هو من أعراض الانقطاع عن عادة أَلِفَتْها وأنَّ الانقطاع مؤلم، لكنَّه غير ضارّ. ثالثًا، إنَّ الحلّ سيكون أصعب على الجميع إذا طُبِّق على مراحل، ومن الضروري بالمطلق تطبيقه مرّة واحدة دون تردّد، ولا يجوز لك أن تتخاذلي متى بدأتِ في التطبيق.

هذا هو الحلّ: قبل يومين من التطبيق أبلغي ابنتك أنّكِ تحدَّثت مع طبيبها الذي قال إنَّه لم يَعُدْ جائزًا لك أن تتمدَّدي معها ساعة نومها كما لم يَعُدْ جائزًا لها أن تأتي إلى سريرك في منتصف الليل ابتداء من اليوم المحدَّد لبدء العلاج.

قولي لها إنَّك آسفة، ثم هزّي كتفيك وأبلغيها أنَّ عليك أن تنفّذي ما يقوله الطبيب. الطبيب هو الآمِر، لكنَّك قرَّرت أن تسمحي لها عندما تضعينها في سريرها وتخرجين من الغرفة (لا تماطلي) بأنْ تضيء جميع الأنوار في غرفتها وأن تأخذ وقتها حتى تستسلم لسلطان النوم. يمكنك حتّى أن تزوّديها بكيس نوم وأن تنصبي لها خيمة تنام داخلها إذا أرادت ذلك. فالنوم يمكن أن يكون مغامرة، لكنّ عليها أن تنام في غرفتها. هذا ما قاله الطبيب ولا نقاش في الموضوع.

قال الطبيب علاوة على ذلك إنَّ عليك أن تقفلي باب غرفة نومك عندما تأوين إلى سريرك، وفي وسعها هي أن تجرّ كيس النوم إلى الردهة بمحاذاة باب غرفتك وأن تنام هناك، لكنّك لا تستطيعين أن تفتحي الباب حتى الصباح.

أُكرِّر مرة أخرى أنَّ مفتاح النجاح هو عدم التخاذل. ومن المرجّح أنَّ ابنتك ستصرخ وتبكي وتتوسّل وتطلق وعودًا بأنَّك إذا سمحت لها أن تنام معك ليلة واحدة أخرى فقط فلن تطلب أن تنام معك بعد ذلك على الإطلاق. ستصدّق هي وعودها. لا تصدِّقيها أنت.

تذكَّري جيِّدًا: عندما تنتهي المرحلة الانتقالية، وستنتهي قريبًا، ستجدين ابنة تستيقظ في الصباح وهي أكثر سعادة من ذي قبل وبما لا يُقاس.



2
الـمبدأ الأساسي الثانـي للرعاية الوالدية:

عندما يتعلَّق الأمر بالتأديب، الـمهم هو التواصل لا التبعات، والقيادة لا العلاقة

طلب إلـيّ والدا طفل مشاغب في الرابعة من العمر أن أساعدهما على وضع خطّة تهذيبية فعالة. سألتهما ماذا يعنيان بكلـمة خطّة، فتبادلا نظرات حائرة ثم أجاب الأب: «حسنًا، نقصد أساليب نستطيع استخدامها لتقويـم سلوك ابننا وجعله يُحسِن التصرُّف.»

لا توجد في موضوع الرعاية الوالدية قضية مـحاطة بسوء الفهم أكثر من التأديب والتهذيب والقصاص، أي التأديب اختصارًا. والالتباس الأكبر والأكثر شيوعًا يتعلَّق بطبيعة التأديب ذاته. وكالأب والأمّ اللذَين وصَفْتهما الآن واللذَين قرآ كتبًا كثيرة جدًّا عن الرعاية الوالدية ومقالات كتبها أناس يروِّجون للتربية السيكولوجية ما بعد الـحداثية، يعتقد معظم الوالدين عن خطأ أنَّ التأديب الفعّال لا يعدو أن يكون اختيار النتيجة الصحيحة وتطبيقها. بعبارات أخرى يؤمن الوالد النمطي الـمعاصر (أو الوالدة النمطية الـمعاصرة) بأنَّ التأديب هو تكنولوجيا ـ وأنَّ كلّ الـمطلوب هو إجادة التقنيات، مثل الـمنع من اللعب لفترة والـحرمان من امتيازات معيَّنة وتدوين لائحة بالذنوب وما شابه ذلك.

لكن الأمر مختلف تمامًا، فالتأديب لا يتكوّن أساسًا من مجموعة تقنيات أو أساليب تُستخدم بصورة ملائمة. التأديب لا علاقة له بالتلاعب الذكي بالنتائج وليس كناية عن معرفة التوقيت أو الأسلوب الملائمَين للضرب أو المنع من اللعب أو الحرمان من الامتيازات لأي فترة من الزمن.

الأمر لا يتعلّق بنتائج «طبيعية» أو «منطقية»، فالتأديب الفعّال هو وجهة نظر، هو سلوك. وعن هذا السلوك تصدر بصورة طبيعية لغة جسدية هادئة تنمّ عن الثقة بالنفس ونبرة صوت معيَّنة تتّسم بالهدوء والثقة الذاتية ونظرة آمِرة محدّدة. ولعلّ وضوحَ الكلام أهمّ ما يصدر عن هذا السلوك.

إنَّ التأديب الفعّال ليس لائحة من القواعد بل هو ممارسة الحُكْم. إنَّه عملية تحويل طفل إلى تلميذ يتبع توجيهاتك. والطفل الذي يؤدَّب بصورة فعّالة سيكبر وهو يحبّ القائد والقيادة. وسيكون مطيعًا لأنَّه اكتشف أنَّ والديه يؤدِّبانه بسبب حبّهما له وأنّه يطيعهما بسبب حبّه لهما وثقته فيهما، أي أنَّه يتقبّل حكمهما على الأمور، ولسوف يتساءل عن بعض قراراتهما لأنَّ في استطاعته أن يفعل ذلك، لكنَّه لن يتمرّد رغم قدرته على التمرُّد.

لا يحاول الوالدان السيطرة على طفلهما لأنَّهما يعرفان أنَّهما لا يستطيعان ذلك. إنَّهما يفهمان ما عَنَتْه امرأة ربّت أطفالاً قبل خمسين عامًا عندما قالت: «لكلّ طفل عقلية خاصّة به.» لذلك لا يسيطر الأب والأمّ إلّا على ما يستطيعان السيطرة عليه ـ أي العلاقة بينهما وبين طفلهما.

ولأنَّ الوالدَين يدركان أنَّ طفلهما لن يميِّز على الأرجح بين الحاجة والرغبة فسيقرران هما ما يحتاج إليه وما لا يلزمه، وباتخاذهما هذا القرار سيوفّران له كل ما يحتاج إليه، سواء رضي بذلك أم لا، بالإضافة إلى قليل ممّا يريده، رغم إصراره على أنَّه في حاجة إلى المزيد. وعندما يسعى الوالدان إلى السيطرة على العلاقة فقط فسوف يقرِّران:

1 ـ ما سيفعلانه أو يمتنعان عن فعله على المستوى الشخصي من أجل طفلهما؛ يقرِّران مثلاً نوع ومقدار المساعدة التي سيقدِّمانها له لإتمام واجباته المدرسية.

2 ـ ما سيوفّران له أو يـمتنعان عن توفيره من حاجيات ماديَّة؛ أيْ أنَّهما يقرِّران مستوى حياته دون أن يكون ذلك بالضرورة انعكاسًا لـمستوى حياتهما هما.

3 ـ القواعد التي يُنتظر منه أن يتبعها في الـمنزل، مثل موعد ذهابه إلى سريره وما يتناوله في وجبة العشاء والواجبات التي عليه القيام بها؛

4 ـ مدى وطبيعة الـحرّيّات والامتيازات الـممنوحة له؛

5 ـ نتائج تصرفاته التي يستطيعان السيطرة عليها بنسبة كبيرة وهو صغير وبنِسَب متناقصة وهو يكبر ويكتسب مزيدًا من الـحرّيّات. وهذا ما يفسِّر الأهمية الكبرى لوضع أسس التأديب الفعّال في مرحلة مبكّرة.

لكنَّ الوالدَين لا يحاولان السيطرة على سلوكه، بل يتوقّعان منه ابتداء من سنّ مبكّرة أن يُحسِن ضبط نفسه ويقبل بأنَّ ما هو تصرُّف جيِّد في سنّ الثالثة هو أقلّ بكثير من جيِّد في سنّ الثانية عشرة. يساعده والداه في تعلّم السيطرة على سلوكه بكونهما نـموذجَيْن لـحُسْنِ السيطرة على النفس، ويُبرزان بصورة خاصّة حُسْن سيطرتهما على نفسيهما عندما يفقد هو سيطرته على نفسه. يساعدانه في تعلّم طريقة اتّخاذ القرارات الصائبة وعمادُها موازنة الـخيارات الـمتاحة وتجنّب الإرضاء الآنـي للذات والقيام بـما هو صحيح، لا ما يحقِّق هدفًا معيَّنًا ببساطة. يفعلان ذلك بأن يبيّنا له أنَّ كل قرار يُنتج تبعات. يعلِّمانه أنَّ عليه تـحسين سلوكه لكي تتـحسّن تبعات هذا السلوك.

هناك والدون يحاولون السيطرة على ما لا يستطيعون ووالدون يفشلون في السيطرة على ما يستطيعون ووالدون يسيطرون فقط على ما يستطيعون، وسوف أصف كل نوع من هؤلاء على حدّة.

الوالدون الذين يحاولون السيطرة على ما لا يستطيعون

يظنّ هؤلاء الوالدون أنّ في وسعهم السيطرة على أطفالهم و/أو سلوك هؤلاء الأطفال. وبـما أنَّهم يحاولون أمرًا مستـحيلاً فإنَّهم يعانون من ألـم نفسي شِبْه مستـمرّ نتيجة مناطحتهم جدار الواقع الذي لا يتزحزح. ونـجد هؤلاء الوالدين، حسب الوقت

الذي ننظر فيه إليهم، مُحبَطين أو ناقمين أو حانقين أو غاضبين أو مُستَهلَكين عاطفيًّا. إنَّهم في حال عجز عن التصرُّف! ومَن هو الشخص الوحيد الذي يستطيع السيطرة على سلوك طفل؟ الطفل نفسه طبعًا.

الوالدون الذين يفشلون في السيطرة على ما يستطيعون

يعجز هؤلاء الوالدون عن السيطرة على الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوضع تحت السيطرة: العلاقة بين الوالدين وأطفالهم. ويسمح هؤلاء الوالدون لأطفالهم بالسيطرة على هذه العلاقة فيكونون هم أيضًا في ألم نفسي مستمرّ. إنَّهم لا يفهمون لماذا لا يُنتج ما يُبدونَه من نوايا حسنة وكرم نبيل وتضحيات جمّة أطفالاً مقدِّرين للجميل ومستعدِّين للردّ بالمثل بالتعاون مع ذويهم بين الحين والآخَر. ومن حيث الأساس لا يريد هؤلاء الوالدون إلّا أن يكونوا محبوبين من أطفالهم! والشعور بالذنب هو الشيء الوحيد الذي يميِّز مخزونهم العاطفي عن مثيله لدى الوالدين الذين يحاولون السيطرة على أطفالهم. وأطفال الوالدين الذين يفشلون في السيطرة على ما يستطيعون هم في طريقهم إلى أن يصبحوا نرجسيِّين أصيلين. والمعروف أنَّ النرجسيِّين يتغذّون كمصّاصي الدماء على شعور الآخرين بالذنب.

الوالدون الذين يسيطرون فقط على ما يستطيعون

يسيطر هؤلاء الوالدون على العلاقة بينهم وبين أطفالهم، لا أكثر ولا أقلّ. وليس من الممكن طبعًا ممارسة هذه السيطرة خلال الجزء الأعظم من العامَيْن الأوّلَين من عمر الطفل لأنَّ اتّكاليَّته التامّة في هذه المرحلة من حياته تَحُول دون ذلك. لكنّ في وسع الوالدين ومن واجبهم البدء في وضع أسس هذه السيطرة بتمهّل وثبات بحلول عيد الميلاد الثاني للطفل على أبعد تقدير. وبعملهم هذا يبدأ الوالدون في السيطرة على مدى وصول أطفالهم إليهم وتحديد ما يقبلون وما يرفضون فعله من أجل أطفالهم (مثلاً الأمور التي يصرّ الوالدون على أن يقوم بها الطفل بنفسه)، وكذلك السيطرة على تبعات سلوك الأطفال. ومن الممكن السيطرة على قطاع كبير من هذه

التبعات عندما يكون الأطفال صغارًا، ثم يتقلّص هذا القطاع تباعًا مع نموّ الأطفال. ولهذا السبب يصبح من الضروري للوالدين أن يفرضوا أكبر قدر ممكن من السيطرة على التبعات عندما تكون هذه السيطرة متاحة لهم أكثر من أي وقت آخَر، فينشئون حالات سابقة من التأديب الفعّال. ونادرًا ما يكون الوالدون الذين يُنشئون حالات سابقة من هذا النوع، محبَطين أو مستائين أو حانقين أو غاضبين أو معذّبين بمشاعر الذنب. ويقيم هؤلاء الوالدون عادة علاقات غير متكلّفة نسبيًّا مع أطفالهم. كذلك يتميَّز أطفالهم بنفسيات مرتاحة وبكونهم مطيعين وقادرين على تسلية أنفسهم ومُتَحلّين بروح المسؤولية ومتمتّعين بالنعمة الكبرى: السعادة.

وهناك طريقة أخرى لوصف سلوك تأديبي صحيح هي تسميته «القيادة المُحِبّة». ومن المؤسف أن يكون عنصر الحبّ في الرعاية الوالدية القيادية المُحبّة قديمة الطراز قد اختفى خلال السنوات الأربعين الماضية أو نحوها وحلّت مكانه عناصر التساهل والتمكين والإنقاذ*. وزال الحب القوي الحقيقي وجاء عوضًا عنه حبّ ضعيف عاطفي وليس حبًّا حقيقيًّا بالمعنى الحسّي للكلمة (مستقيمًا ثابتًا) بل هو حبّ «يترجرج» على امتداد الساحة العاطفية. ويمقت المنادون بالتمكين مقتًا لا هوادة فيه ضرورة التمكين، ثم يشعرون بالذنب نتيجة مقتهم هذا. ولتخفيف شعور الذنب لديهم يمكّنون أكثر فأكثر. والأمر ذاته ينطبق على «القيادة» في الرعاية الوالدية القيادية المُحِبّة قديمة الطراز، إذ حلّت مكانها رغبة طاغية في قيام علاقة «رائعة» بين الوالدين وأطفالهم. وفي ظلّ الظروف السائدة يتراجع التأديب القوي أمام زحف التأديب الضعيف. والتأديب الضعيف، مثله مثل الحبّ الضعيف، ليس حقيقيًّا أيضًا. إنَّه «يترجرج» جيئة وذهابًا من «لا» إلى «نعم» ومن «نعم» إلى «لا»، ومن التلاعب بالمكافأة إلى التلاعب بالقصاص في محاولة لجعل الطفل يلتزم حُسن السلوك.

(*) التساهل والتمكين والإنقاذ: ١ ـ التساهل مع الطفل والسماح له بحرّيّات واسعة والامتناع عن معاقبته. ٢ ـ تمكين الطفل هو إعطاؤه القدرة (المجال والوسائل) على القيام بما يريد. ٣ ـ إنقاذ الطفل من أي ورطة أو مشكلة يقع فيها بسبب سلوكه من دون تحميله أي مسؤولية.

الحبّ الحقيقي يقوّي. وعلى الحبّ الحقيقي أن يقول أحيانًا: «لا، لن أساعدك، تستطيع القيام بذلك وحدك»، وأن يقف موقفًا ثابتًا في وجه المطالبة الدرامية للطفل بتصديق تظاهره الخادع بالضعف وعدم المقدرة ومسايرته في ذلك. إنّ الوالدين المحبِّين حقًّا يقبلون أن يسبِّبوا مشاعر إحباط ومقت لدى أطفالهم، بل حتى أنْ يكرههم أطفالهم، فهم يعرفون أنّ الأطفال لا يدركون ما هو الصالح لهم. يعرف الوالدون أنّ أطفالهم كثيرًا ما يكرهون قرارًا صائبًا ويهلِّلون لقرار خاطئ.

يعرفون أنّ «الحماقة تَعلَق بقلب الولد وعصا التأديب تُبعِده عنها» (كتاب الأمثال 22:15) وأنّ الحبّ القوي وحده قادر على تطهير هذه الصفاقة. نعم، إنّ معظم الوالدين المعاصرين يحبّون أطفالهم، لكنّهم لا يكنّون لهم الحبّ الحقيقي الذي يقوِّيهم.

ومن الأمور المؤسفة بالقدر ذاته في هذه الأيام ذلك العدد من الوالدين الذين يحاولون أن يكونوا أصدقاء لأطفالهم. وهذا ما صار عليه تمامًا النموذج المثالي الجديد للأبوّة في أميركا: كن أفضل صديق لطفلك! خَسِئ آباءٌ من هذا النوع! إنّ الوالدين الذين يدركون أنّ تربية الأطفال هي قيادة يدركون أيضًا أنّ القائد لا يمكن أن يكون صديقًا لشخص يقوده، فالصداقة تلغي القيادة. وعندما يكون الأطفال صغارًا يحتاجون إلى والدين يمارسون القيادة، وعندما يكبرون ويصبحون راشدين يحتاجون إلى والدين لا يكونون مربّين بل أصدقاء. هناك موسم لكلّ شيء في الرعاية الوالدية، والخلط بين المواسم يعني تشويش الطفل.

والمفتاح هو كيفية التبليغ

كثيرًا ما أطرح على الجمهور الذي يستمع إلى محاضراتي السؤال التالي: «إذا كان التأديب يشمل ثلاث كلمات هي التواصل والتبعات والاستمرارية، فأيّ هذه الكلمات تعتبرونها الأكثر أهمية؟»

«الاستمرارية!» يردّ الجمهور بصوت واحد.

كان الردّ ذاته يأتيني كلّما طرحت هذا السؤال دون استثناء، ما يعكس حقيقة أنّ الآباء والأمهات يظنّون اليوم أنّ تأديب طفل لا يختلف عن تدريب جرذ تجارب في المختبر على كبس زرّ للحصول على طعام أو ماء. وهذا سوء فهم بريء لأنّ هذا هو المفهوم الذي جعل علماء النفس يُقنعون الوالدين به. يتعلّم كل طالب في مادة علم النفس كيف تُدرَّب جرذان المختبر على أداء حِيَل مختلفة، كالضغط على أزرار والالتفاف في دوائر وعبور المتاهات، عن طريق مكافأتها عندما يكون أداؤها صحيحًا وتجاهلها أو معاقبتها عندما يكون أداؤها خاطئًا. ويترك أساتذة علم النفس لدى طلابهم انطباعًا خاطئًا بأنّ تطبيق هذه التقنية المسمّاة تعديل السلوك هو الطريقة المُثلى لتأديب الأطفال بشكل صحيح. وإذا فكّرتم في الموضوع لرأيتم أنّ المعنى الضمني لذلك هو أنّ البشر والجرذان شركاء في سيكولوجية واحدة وأنّنا ـ تحت أستار مدنيّتنا ـ لسنا إلّا مخلوقات شديدة الغباء يمكن التحكّم بها عن طريق التلاعب البسيط بالمكافأة والعقاب. ويبدو لي ذلك سخيفًا إلى أبعد حدّ. بل إنّ الأمر أكثر سخافة في الواقع من أن يسبّب أقلّ قدر من الاستياء.

أولاً، البشر يمتلكون إرادة حرّة، أمّا الجرذان فلا. ويستطيع البشر أن يختاروا تجاهل التبعات العقابية لأفعالهم السيئة وأن يواصلوا ارتكاب هذه الأفعال. أمّا الجرذان فلا تستطيع ولا تفعل ذلك. ثانيًا، ليس السلوك هو الذي يُعاقَب عليه بل الخُلُق. وليس للجرذان خُلُق فتُعاقَب عليه. الأمر كلّه يتعلّق بسلوك الجرذان. الأمر كلّه يتعلّق بِخُلُق الطفل. ازرع الخُلُق الحميد في الطفل عن طريق تأديبه وسَلْيه السلوك الصحيح.

كلا، الاستمرارية ليست الأهمّ بين الكلمات الثلاث. ولنتذكّر أنّ التأديب هو قيادة في حقيقته؛ إنّه عملية تحويل طفل إلى تلميذ، إلى إنسان يتبع قيادة والدَيْه. ما هي أهمّ صفة يتحلّى بها قائد جيِّد؟ هل هي مقدرته على اختيار التبعة الصحيحة عندما يسيء أحدهم التصرُّف؟ كلا. إذًا صِفَتُه الأهمّ ليست المقدرة على تنفيذ التبعات باستمرارية، فماذا يقى لدينا...؟ التواصل.

هذا صحيح! الصفة الأهمّ لقائد فعّال، سواء لشركة أو منظّمة خيرية أو هيئة عسكرية أو جماعة دينية، هي مقدرته على التواصل وإبلاغ الآخرين ما يريد بطريقة تحفزهم على عمل ما يُفترض بهم أن يعملوه وعلى إرادة القيام بما يُفترض بهم القيام به.

كثيرًا ما يشكو الوالدون في هذه الأيام من أنّ أطفالهم لا ينفّذون ما يؤمَرون به. وهذا غير صحيح بكلّ بساطة. ومع مراعاة استثناءات قليلة يمكن القول إنّ الطفل ينفّذ ما يُؤمَر به في معظم الأحيان. وهذه حقيقة وليست نظرية. إنّ التباين بين ما هو صحيح بالمطلق عن الأطفال (ينفّذون ما يؤمرون به) وما يقوله الوالدون (أطفال كثيرون لا ينفّذون عامة ما يؤمَرون به) له تفسير يسير هو أنّ معظم الوالدين المعاصرين لا يأمرون أطفالهم بما يفعلون، بل يطلبون إليهم، حتى إنّهم يستأذنون أطفالهم في أن يطلبوا منهم أمرًا ما. مثال ذلك مواربة ما يعتبرونه تعليمات بأسخف وأغبى كلمة في الرعاية الوالدية المعاصرة، وهي «أوكي؟» بالإضافة إلى سؤال أطفالهم يلجأ هؤلاء الوالدون إلى المناشدة والمساومة والترضية ومحاولات الإقناع، لكنّهم نادرًا ما يأمرون مباشرة، ومنهم من لا يأمر أبدًا.

أمثلة على ذلك:

«كريم، ألا تظنّ أنّ من الأفضل أن نفعل ذلك في يوم آخَر؟»

«سارة، الماما تفضّل حقًّا لو جلستِ هنا، أوكي؟»

«أظنّ أنّ الوقت حان لتذهبي إلى النوم يا هناء، ألا توافقين؟»

«لنبدأ الآن عزيزتي في لملمة هذه الألعاب، أوكي؟»

ونلاحظ أنّ الوالدين في هذه الأمثلة لا يأمرون بل يقدّمون طلبات آملين أن تلقى صدى إيجابيًّا لدى أطفالهم. إنّ التواصل بهذا الشكل يفتقر إلى السلطة. إنّه كلام خانع، والسيِّد الذي هو الطفل في هذه الحالات، لا يطيع خادمه. ليست في أطفال اليوم أيّ علّة على الإطلاق تجعلنا نعتقد أنّهم لا يستطيعون أن يكونوا مطيعين بقدر

ما كان الأطفال قبل خمسين عامًا. عندما كنت في السابعة من عمري كنّا، أقراني وأنا، أطفالاً مشاغبين بالتأكيد. لكنّنا كنّا نطيع عندما نتلقّى أمرًا مباشرًا من شخص راشد. لماذا؟ لأنّ والدينا ومعلّمينا وراشدين آخَرين كانوا يأمروننا بما نفعل. لم يكونوا يتكلّمون بلغة ملتبسة بل بعبارات واضحة لا تقبل التأويل. قبل خمسين عامًا كان الوالدون يعطون التعليمات ذاتها على النحو التالي:

«كلا، لن نفعل ذلك اليوم يا كريم. في وقت آخَر ربّما.»

«أريدك أن تجلسي هنا تمامًا يا سارة. لا، ليس هناك بل هنا تمامًا.»

«هناء، حان وقت النوم. لستِ متعبة؟ حسنًا يا عزيزتي، تستطيعين التمدّد في السرير والتحديق في السقف طوال الليل.»

«أريدك أن تلمّ هذه اللُّعَب فورًا يا عزيزي، وسيظلّ التلفزيون مطفأً حتى تنتهي من جمع اللعب ووضعها في مكانها.»

إنّ معظم الوالدين لا يتكلّمون مع أطفالهم بهذه الطريقة لأنّهم (الوالدين) مصابون بمتلازمة القيادة الضعيفة. وهم لا يفهمون كما يبدو أنّ الرعاية الوالدية تفرض عليهم أن يكونوا خدمًا عندما يكون أطفالهم رُضّعًا وصغارًا حتى يتعلّموا المشي، ثم يصبحوا قادة بعد ذلك، والأهمّ من كل شيء أنّ القادة الجيّدين يتصرّفون دائمًا وكأنّهم يعرفون ماذا يفعلون حتى لو كانوا غير متأكدين. لا يُضطرّ القادة الجيّدون أبدًا إلى الصياح أو دعوة الآخرين إلى الانتباه بطرق درامية أخرى لأنّهم يتكلّمون بنبرة مالك السلطة، وكلام مالِك السلطة يفرض على الآخرين الانتباه.

إنّ الوالدين الذين يجدون أنفسهم مضطرّين إلى مطالبة أطفالهم بالإصغاء والطاعة لم يتعلّموا ببساطة بعد كيف يأمرون. الأوامر لا تصدر بطريقة السرد المتواصل للتبعات بل بطريقة إيصال المطلوب. وتذكّروا أنّكم لا تتواصلون بالكلمات فقط بل بنبرة الصوت وحركات الجسم وتعابير الوجه. إذًا هناك حالات تتواصلون فيها من دون أن تقولوا أيّ شيء على الإطلاق. وأُكرِّر مرة أخرى (لا أكتفي

من هذا التكرار) أنّ التأديب هو قيادة والقيادة ليست تكنولوجيا بل هي سلوك يعبِّر للآخرين عن حبّ لامحدود وقيادة موثوقة يمكن الركون إليها ـ أي الحبّ الحقيقي والقيادة الحقيقية.

أستخدم تسمية «فئة أَلِف» على الوالدين الذين أتقنوا اللغة المسموعة والصامتة التي يتكوَّن منها سلوكهم القوي المحبّ. إنَّهم «فئة ألف» لأنَّ لهم تأثيرًا كبيرًا على حياة أطفالهم، لكنَّه ليس بالتأثير المهدِّد. التأديب الذي يمارسونه يفرض نفسه، لكنَّه ليس صاخبًا أو دراميًا. وكما كان الحال مع أمّي ومعظم الأمّهات من بنات جيلها، فإنّ وسيلة هذه الفئة في التأديب لا تتجاوز أحيانًا تسديد نظرة معيَّنة لا يمكن تجاهلها. وبالنسبة إلى الوالدين أصحاب سلوك الفئة ألِف سينجح أيّ أسلوب تأديبي يطبّقونه في أيّ وضع. كذلك لن تتطلّب العملية التأديبية إلّا قليلاً من الجهد. بالمقابل نجد الوالدين غير المنتمين إلى الفئة ألِف الذين لا تنجح لفترة طويلة أيٌّ وسيلة تأديبية يطبّقونها. والشاهد على ذلك أنَّ والدين معاصرين كثيرين يقولون: «جرّبنا هذه الوسيلة أو تلك ونجَحَتْ لفترة ثم بطل مفعولها فلجأنا إلى هذا الأسلوب أو ذاك ونجح لفترة ثم بطل مفعوله فـ...»

إنَّ التقنيات لا تنتج طفلاً حَسَنَ السلوك، فهي مجرّد وسائل للاستمرارية بعد التوصّل إلى تهذيب الطفل كما ينبغي. السلوك الحسن يُنتِجه والدون يتكلَّمون ويتصرّفون كأشخاص يعرفون ماذا يفعلون وماذا يريدون. إنَّ عملية التأديب تتكوَّن في الغالب من تواصل واضح محدَّد المعاني وليس من تقنيات.

إنَّ حملة «هذا هو مقعدك» تؤدِّي عادة إلى جلوس الطفل فعلاً في المقعد المحدَّد له. وجملة «ماما تريدك أن تجلس في هذا المقعد يا حبيبي، أوكي؟» تؤدِّي في أحيان كثيرة إلى رفض الطفل الجلوس في المقعد المحدَّد له. الجملة الأولى تنمّ عن الحسم والجملة الثانية تنمّ عن أمنية، والأطفال لا يستجيبون لأمنيات ذويهم.

والدون بلا مهابة

بما أنّي إنسان كثير السفر أُمضي جزءًا معتبرًا من وقتي في أماكن عامّة حيث يطيب لي أن أستمع إلى المناقشات التي تدور بين والدين وأطفالهم. وبعد أن استمعت إلى 457832 محادثة من هذا النوع بالتمام والكمال (حتى تاريخ هذه الكتابة) لم أعد مندهشًا من العصيان الفاضح الذي يمارسه الأطفال ضدّ ذويهم. ما يدهشني هو أنّ هناك أطفالاً يطيعون أصلاً.

وقد توصّلتُ إلى استنتاج مفاده أنّ معظم الوالدين يكلّمون أطفالهم بلغة «ميلكتوست» (Milquetoast). اسمحوا لي أن أشرح: كاسبار ميلكتوست شخصية خيالية من مسلسل رسوم هزلية ابتدعها هارولد ويبستر (Harold Webster) في العام 1924.

كاسبار ميلكتوست شخص خجول منطوٍ على نفسه استمدّ اسمه من أكلة «باهتة» هي الخبز المحمّص المغمّس في الحليب. ونادرًا ما كان كاسبار يخرج على الملأ ويقول بوضوح ما يجول في خاطره، ناهيك عن أنّه لم يكن ليتجرّأ على طلب أي شيء. كان يدمدم ويهمهم ويقول كلامًا ملتبسًا ويتصرّف كإنسان جبان. وعلى شاكلة كاسبار ميلكتوست، نادرًا ما يبلّغ والدو اليوم أطفالهم ما يتوقّعونه منهم بعبارات مباشرة صريحة بل يلفّون ويدورون.

مثال: تريد الماما أن تبدأ بنتُها «ملكةُ الزمان» في الاستعداد للذهاب إلى سريرها. تقول لها: «ألا تظنّين أنّ الوقت حان كي تكوني في الفراش يا ملكة الزمان؟» ملكة الزمان ليست غبيّة. تضرب الأرض بقدمها وتزأر: «دعكِ من هذا يا أمّاه! ما زال الوقت مبكّرًا. أريد أن أظلّ صاحية فترة أطول قليلاً.» ومن الطبيعي أن ترتبك الماما وأن تتمتم شيئًا ما عن حاجة الأطفال إلى النوم. هكذا تَمضي ساعتان وترضى ملكة الزمان بعد زمن بالذهاب إلى سريرها. هل كانت الماما تتوقّع من ملكة الزمان أن تجيب بقولها: «حقًّا يا أمّي، أنتِ محقّة تمامًا. لم أنتبه إلى الوقت. شكرًا جزيلاً لاهتمامك بصحّتي ومصلحتي؟»

مثال آخَر: يريد البابا أن يساعده ابنه «أبو العزّ» في إتمام واحد من الأعمال الكثيرة التي يحتاج إليها المنزل. يسأله بنبرة ذليلة: «أبا العزّ، أتظنّ أنّ في وسعك الانفكاك عن الإنترنت لدقائق قليلة وإخراج القمامة نيابة عنّا؟» غنيّ عن القول إنّ البابا هو الذي أخرج القمامة في نهاية الأمر.

يستخدم الوالدون خطاب كاسپار ميلكتوست كلّما انتحبوا وتذمّروا وناشدوا وراضوا وأغروا ورشَوا وفسّروا مقاصدهم كي يقنعوا أطفالهم مستعينين بالمبرّرات. النقيض هو خطاب الفئة ألِف الذي يستخدمه القادة الفعّالون. الرعاية الوالدية هي قيادة، ما يعني أنّ الوالدين الفعّالين يستخدمون خطاب الفئة ألِف عندما يبلّغون أطفالهم القواعد والتعليمات والتوقُّعات. هذا الخطاب كلام مباشِر ومُختصر وخالٍ من الشروح أو التهديدات أو الوعود في مجمله. لنلقِ نظرة عن كثب على كلّ من هذه الصفات:

مباشِر: هذا الوصف يعني التوجُّه رأسًا إلى المقصد دون ترك أيّ مجال للتخيّل أو التأويل. وجملة «هل تظنّ أنّك تستطيع إطفاء جهاز التلفزيون ومساعدتي هنا؟» ليست كلامًا مباشرًا. الواقع هو أنّ التعليمات التي تتّخذ صيغة أسئلة ليست تعليمات على الإطلاق. إنّها طلبات وهي أمثلة على خطاب اللفّ والدوران. هكذا يكون الكلام المباشر: «أريدك أن تطفئ جهاز التلفزيون وأن تُخرِجَ القمامة من المنزل.»

مختصَر: هذا الوصف يعني عدم استخدام عشرين كلمة عندما تكفي خمس كلمات. إنّ الوالدين من الفئة ألِف ليسوا بالضرورة مقتّرين في الكلام، لكنّهم لا ينمّقون تعليماتهم بعبارات معسولة. ولن يصدر عن والد أو والدة من الفئة ألِف كلام كالتالي: «أنا أعرف أنّك تتسلّى لكنّك تسبِّب كثيرًا من الضوضاء فيما أحاول أن أقرأ. أتمنّى عليك أن تتوقّف أو ربما أن تذهب إلى مكان آخَر، أوكي؟» ما يقوله أيّ منهما سيكون: «أنت تسبِّب ضوضاء أكثر من اللازم وأنا لا أستطيع التركيز. من فضلك خذ لعبتك إلى مكان آخَر.» قد لا تكون الصيغة الثانية لطيفة كالصيغة الأولى، لكنّ من المُستبعَد أن تؤدّي الصيغة اللطيفة إلى انصياع الطفل

فيما يُرجَّح أن تنجح الصيغة الأقلّ لطفًا. وعندما توجِّهون تعليمات إلى طفل اسألوا أنفسكم ما إذا كنتم تتمنّون أن يكون الطفل راغبًا في إطاعتكم أو ما إذا كنتم تبلغونه بوضوح أنَّ الطاعة هي خياره الوحيد. والمفهوم الثاني وحده يؤدِّي إلى نتيجة.

خالٍ من الشروح أو التهديدات أو الوعود: هذا وصف غني عن التفسير. وفي حين لا يستصعب معظم الوالدين إطلاق تهديدات أو وعود، لماذا لا يجوز لكم أن تشرحوا مبتغاكم لطفل؟ السبب هو أنَّكم تتصرَّفون عندئذ وكأنَّكم تسعون إلى نيل رضا الطفل، وكأنَّكم لا تأمرونه بل تحاولون إقناعه. إنَّ القادة نادرًا ما يقدِّمون شرحًا لمقاصدهم، وبعض القادة لا يفعلون ذلك إطلاقًا. السياسيون يشرحون خططهم لأنَّهم يحاولون إقناع الناس بالموافقة على سياساتهم. السياسيون يسعون إلى نيل موافقة الشعب أما القادة فيكتفون بالتعبير عن أفكارهم. إنَّهم لا يسعون إلى الإقناع بل إلى الإمرة. القادة لا يطلبون موافقة الشعب، ومن البديهي أنَّ والدين كثيرين يتصرَّفون كسياسيين أكثر ممّا يتصرَّفون كقادة.

ولتوضيح هذه النقطة بصورة أوفى أعرض عليكم في ما يلي «لائحة المحرَّمات العشرة الأولى في التخاطب مع أطفالكم»:

1 ـ صياغة التعليمات وكأنَّها أسئلة. هذا الأسلوب يوحي بوجود مجال للاختيار حيث لا يوجد خيار.

الخطأ: «ما قولك في لملمة هذه الألعاب لكي نستطيع البدء في الاستعداد للذهاب إلى الفراش؟»

الصواب: «ساعة ذهابك إلى الفراش تقترب. عليك أن تلمّ ألعابك الآن وأن تضعها في مكانها.»

2 ـ التعبير عمّا يُتوقَّع من الطفل بعبارات مبهمة بدل استخدام عبارات واضحة محدَّدة المعاني. واستعمال كلمات مثل «جيد» و«جميل» يترك باب التأويل مفتوحًا حول المعاني الفعلية التي أرادها الوالدون.

الخطأ: «أريدك أن تكون جيدًا في المتجر.»

الصواب: «عندما نكون في المتجر أريدك أن تسير إلى جانبي وأن تطلب إذني قبل أن تلمس أيّ شيء.»

3 - إصدار تعليمات متعدّدة في آن واحد. يصعب على عقل طفل دون الخامسة من العمر حفظ أكثر من تعليمة واحدة في آن. وبالنسبة إلى الأطفال الذين تجاوزوا الخامسة ولم يبلغوا العاشرة يُفضَّل عدم إعطاء أكثر من تعليمتين في الوقت ذاته. وإن لم يكن من المناسب تكليف الطفل بأعمال بهذه الطريقة التي تحتمل النسيان، أعطوه قائمة. وإذا كان لا يستطيع القراءة بعد، فارسموا له صورًا.

الخطأ: «اليوم أريدك أن تنظّف غرفتك وتُخرِج القمامة وتطعم الكلب وتجمع الألعاب في الشرفة المسقوفة وتساعدني في نقل هذه العلب إلى العلّيّة.»

الصواب: «أول شيء أريدك أن تفعله اليوم هو تنظيف غرفتك. عندما تنتهي من غرفتك أعلِمْني وسأقول لك ما تفعل بعد ذلك.»

4 - بدء التعليمات بكلمة «دعَنْا». هذه صيغة ضعيفة أخرى للتواصل تفتقر إلى نبرة السلطة. وعندما تتوقّعون من طفل أنْ ينفّذ عملاً بمفرده قولوا ذلك بوضوح. لا تفتحوا الباب للمقاومة بتلميحكم إلى أنّكم مستعدّون للمساهمة في العمل.

الخطأ: «دعنا نرتّب المائدة، أوكي؟»

الصواب: «حان الوقت لكي نرتّب المائدة.»

5 - إتباع التعليمات بأسباب وشروح. إنّ ذكر السبب في النهاية يشدّ انتباه الطفل إليه وليس إلى التعليمة نفسها. وهذا الترتيب في الصياغة الكلامية يزيد احتمال الدخول في نقاش.

الخطأ: «حان وقت نزولك عن الأرجوحة لنتمكن من الذهاب إلى الدار.»

الصواب: «حان وقت ذهابنا إلى الدار. انزل عن الأرجوحة وتعال معي.»

6 ـ تحويل التعليمات إلى مغريات.

الخطأ: «هاي سيسي! احزري ماذا؟ لقد أعدّت الماما عشاء رائعًا لهذه الليلة! دعينا نقول «وداعًا» لِسالي ونذهب لرؤية مفاجأة الماما!»

الصواب: «حان وقت العشاء يا سيسي، عليك أن تودّعي سالي وأن تدخلي المنزل.»

7 ـ إعطاء تعليمات ذات إطار زمني مفتوح.

الخطأ: «سليم، أريدك أن تجزّ عشب فناء البيت في وقت ما هذا اليوم، عندما تتاح لك الفرصة.»

الصواب: «سليم، أريدك أن تجزّ عشب فناء البيت اليوم، وأريد أن تكون انتهيت من ذلك عند عودتي إلى البيت في الساعة السادسة.»

8 ـ صياغة التعليمات في شكل أمنيات. لا يعدو هذا الأسلوب أن يكون شكوى خانعة من سلوك الطفل. الأطفال لا يحقّقون الأمنيات، فهذه وظيفة جنيّات الأساطير.

الخطأ: «ليتك تتوقّف عن مضغ الطعام وفمك مفتوح.»

الصواب: «رجاءً توقّف عن المضغ وفمك مفتوح.»

9 ـ صياغة التعليمات كأسئلة تنمّ عن الغضب:

الخطأ: «كم مرّة يجب عليّ أن أقول لك ألّا تمضغ الطعام وفمك مفتوح؟»

الصواب: «رجاء توقّف عن المضغ وفمك مفتوح.»

10 ـ صياغة التعليمات بلهجة التهديد. يستجرّ هذا الأسلوب مقاومة من قِبَل الطفل لأنّه سيريد أن يعرف بتأكيد كامل تقريبًا ما إذا كنتم ستنفّذون التهديد فعلاً.

الخطأ: «توقّف عن مضغ الطعام وفمك مفتوح و إلّا سأخيّط شفتيك وأجعلك تأكل عبر مصّاصة السوائل.»

الصواب: «رجاءً توقّف عن المضغ وفمك مفتوح.»

أُعيد وأُكرِّر من جديد: التأديب في جوهره ليس نوع التبعات التي يلجأ إليها الوالدان عندما يسيء طفلهما التصرُّف. إنَّه في الأساس مسألة تواصل فعّال، أي أنَّه إعطاء التعليمات بصورة صحيحة. ومن شأن التواصل الصحيح منع نشوء تسعين في المائة من مشكلات التأديب.

نعم، إنَّ للتبعات العقابية دورًا في مجمل العمليات التأديبية/التهذيبية للطفل. ولكن لن تثمر أيّ عقوبة على المدى الطويل من غير السلوك الوالدي الصحيح، سلوك الفئة ألِف والخطاب الذي يرافقه. وبالسلوك الوالدي الصحيح ستنجح أيّ تبعة في أي وقت، ذلك أنَّ الرعاية الوالدية للأطفال ليست عِلْم صناعة الصواريخ.

ثلاث كلمات قوية

يُمضي ثلاثة من أحفادنا الستة كثيرًا من الوقت في منزلنا، فبيتهم لا يبعد عنّا أكثر من خمسة كيلومترات. وخلال زيارة للأحفاد في الآونة الأخيرة رفضتُ طلبًا للحفيد الأكبر سنًّا جاك، فقال لي: «لماذا لا» بنبرة فيها مسحة من الأسى.

قلتُ له: «انظر إليّ يا جاك» فوجَّه كامل انتباهه نحوي وتابعتُ قائلاً بصوت لا أرقّ: «هل سبق لي أن أجبت عن هذا السؤال سوى بجملة «لأنّي قلت ذلك»؟»

أمعن النظر فيَّ ثوانيَ قليلةً ثم أجاب قائلاً: «كلا.»

فقلت له: «إذن أنت تعرف الحوار، أليس كذلك؟»

هزّ كتفيه وقال: «نعم، هذا ما أظنّه»، ثم عاد إلى شأنه غير مبالٍ. وفي اليوم التالي طلب جاك وأخوه الأصغر باتريك إلى والديهما أن يجلباهما إلى منزلنا. أنا أسرد هذا الأمر كدليل على أنَّ لغة الفئة ألِف لا تجعل الأطفال يرفضون الكبار أو يخافونهم أو يكرهونهم، بل العكس هو الصحيح لأنَّ هذه اللغة تسهِّل أمور حياتهم. قد لا تعجبهم هذه اللغة آنيًّا، لكنَّهم يرتاحون إليها على المدى الطويل.

وتمنع لغة الفئة أَلِف المشاحنات التي تحدث عندما يتكلم المرء مثل كاسپار ميلكتوست. وتأكَّدوا أنَّ الأطفال لا يحبّون التشاحن مع والديهم بقدر ما ينفر الوالدون من التشاحن مع أطفالهم.

هل تتكلَّمون مع أطفالكم بلهجة حازمة أم بأسلوب كاسپار ميلكتوست؟ اختبِروا أنفسكم. اشتروا عدّادات يدوية وأبقوها معكم خلال يوم تمضونه بصحبة أطفالكم. اضغطوا على زرّ العداد مرة كلّما استعملتم كلمة «أوكي» في نهاية تعليمة تصدرونها إليهم. ستُفاجأون على الأرجح بقدر ما فوجئت امرأة قامت بهذا الاختبار ثم بعثت إليّ برسالة إلكترونية لإبلاغي النتيجة.

كتبتْ تقول: «جون، في يوم واحد فقط وبرفقة ثلاثة أطفال أحصيتُ اثنتين وخمسين كلمة «أوكي»! والأسوأ من ذلك أنّني لم أستطع أن أمنع نفسي من قول هذه الكلمة بالرغم من معرفتي أنَّ عليّ أن أعدّها كلّ مرة.»

يا كاسپار ميلكتوست، أفسِح لها مكانك!

باتريك وحادثة السباغيتي الكبرى

كنت أظن خلال مرحلة من الماضي أنَّ التأديب كناية عن قصاص في مجمله. وكانت لهذا الفهم الخاطئ علاقة وثيقة بالتدريب الذي تلقَّيتُه كطالب متخرِّج في علم النفس، لاسيَّما موضوع السلوك. وعندما كان جرذي الأليف ماد دوغ ـ الكلب المجنون ـ (mad dog) يرتكب خطأ ما كنت أعاقبه بلسعة كهربائية فيصحّح خطأه فورًا. وأعتقد الآن أنَّ عصر التسامح مع المعاملة القاسية والشاذّة للجرذان قد انقضى، ومع ذلك أقدِّر عدم تبليغ جمعية الرفق بالحيوان بسوابقي البغيضة كمدرِّب جرذان. ومهما يكن من أمر فقد أدركت منذ زمن طويل أنَّ التأديب مسألة تواصل لا قصاص.

لكنْ لا تُسيئوا فهمي الآن، فهناك زمان ومكان للقصاص ويجب أن تكون لدى جميع الوالدين خطّة لهذا الاحتمال بحيث يتصرَّفون بناء على تفكير مسبق، لا بشكل

متهوّر، عندما تدعو الضرورة. لكنَّ التأديب، أي أسلوبَ تحويل الطفل إلى تلميذ، إلى إنسان صغير منصاع لقيادتكم، يتلخّص إجمالاً في إبلاغ الأطفال ماهية الأمور وكيف ينبغي أن تصبح. ولا بدّ أن يكون الإبلاغ واضحًا وأن يتمّ بهدوء وأن يكون محددًا (بكلمات يفهمها الأطفال). ومن المحتّم أيضًا أن يكون الإبلاغ مقتضبًا خاليًا من أيِّ التباس. وهناك ضمانة تامّة على أنَّ هذه الوصفة آنفة الذِّكْر ستجعل الطفل يُصغي وينفِّذ ما يُطلب إليه من أجل خيره ومصلحته (على افتراض أنْ يكون مُعطي التعليمات شخصًا راشدًا مسؤولاً).

أمضى اثنان من أحفادنا عطلة نهاية أسبوع طويلة في منزلنا، وفي إحدى الأمسيات أعددتُ صلصة السباغيتي على طريقتي المُميّزة وطَهَوتُ قَدْرًا من السباغيتي إلى حدّ الكمال فلا هي مهروسة ولا هي عصيّة على الأسنان. وعندما قدّمت إلى الحفيد الأصغر باتريك، وكان في الخامسة من العمر، طبقه من الطعام قال لي دون تردّد إنَّه لا يحبّ صلصة السباغيتي. قال إنّه لا يأكل إلّا المعكرونة وعليها زبدة. سكبتُ الطعام للجميع وجلست.

قلت بهدوء: «باتريك، هذا هو عشاؤك.»

كرَّر قوله إنَّه لا يحب صلصة السباغيتي، فقلت له بدوري إنَّنا في هذا المنزل نأكل جميعًا الطعام المُعَدّ للوجبة. وما من شخص على الإطلاق يحصل على طعام آخَر. عاد من جديد وبنبرة شاكية ليقول إنَّه لا يحبّ صلصة السباغيتي. قلت له إنَّ من قلّة الأدب أن تُبلِغ شخصًا أعدّ طعامك أنَّك لا تحبّ ما طهاه. واصلت كلامي قائلاً: «وبما أنَّ الخالق هو الذي وفّر الطعام لنا تكون قلّةُ الأدب موجَّهةً إليه» (قد يدّعي بعضهم أنَّ قولي هذا مثال على «تحميل الآخَر الشعور بالإثم». وأُصِرّ أنا أنَّ هذه هي الحقيقة وأنَّ إخفاء مثل هذه الحقيقة عن طفل قد يسبِّب له آنيًا قَدْرًا أقلّ من الانزعاج، لكنَّه سيخلِّف المزيد من الألم والتعاسة في نهاية المطاف). نظر باتريك إلى جدّته على أمل أن تنقذه من مصير أشدّ مرارة من زيت الخروع. تطلَّعتْ إليه ويلي بنظرة واضحة المعنى أن لا خيارَ ثانيًا أمامه، فعاد إليّ بناظريه في محاولة جديدة وأخيرة.

قال بمنتهى الحلاوة والصدق: «لكنّي لا أحبّ حقًّا صلصة السباغيتي. لم آكلها من قبل ولا مرّة.»

أجبتُه: «يا باتريك، أنا لا أقول إنّ عليك أن تأكلها. أنا أقول هذا عشاؤك. لستَ مجبرًا على تناوله. لكنّنا، أي جدّتك وأنا، لن نُعِدّ لك طعامًا آخَر. كذلك يجب أن تعلم أنّنا حضّرنا البوظة كحلوى. لكنْ لا ينال الحلوى إلّا مَن أكل عشاءه ـ بالكامل.»

(ملاحظة: لم أكن أرشو باتريك بل كنت أُبلغه ببساطة كيف تسير الأمور. لو أردتُ رشوته لقلت له شيئًا من قبيل: «باتريك، إذا أكلتَ عشاءك بالكامل تستطيع الحصول على زبدية من البوظة، فماذا تقول»)

نظر باتريك إليّ ثوانيَ عدّة أُخَر ثم التقط ملعقته وبدأ يأكل. أتى على كلّ الطعام الذي كان في طبقه (ولم أكن قد سكبت له حصّة «تجريبية»)، ثم أعلن بنبرة لم تَخْلُ من فخار أنّه أحبّ صلصة السباغيتي التي أعددتُها أنا وأنّه مستعدّ لتناولها مرّة جديدة. ولسوف يتناولها من جديد بما أنّي لا أعرف أنْ أطهو أكثر من حوالى سبع أكلات.

إذا ظننتم أن هذه قصّة عن جعل طفل يأكل عشاءه فقد أصبتم أقلّ من نصف الحقيقة. هذه قصّة عن تعليم طفل آداب المائدة، لاسيما عندما يكون في منزل أناس آخرين. إنّها أيضًا قصّة عن مساعدة طفل على فهم ضرورة الشعور بالشكر على كلّ شيء نملكه حتى لو لم يكن مطابقًا تمامًا لِما نبتغي. وكما رأيتم، يحقّق التأديب الفعّال نتائج على المَدَيَيْن القريب والبعيد، عِلمًا أنّ المدى البعيد هو المهمّ حقًّا.

عندما تمسّ الحاجة إلى عقوبات

أعطى أخصائيّو الصحّة العقلية الآباءَ والأمهات الأميركيين خلال السنوات الثلاثين الماضية، أو نحو ذلك، انطباعًا بأنّ الاستخدام الصحيح لعقوبة العزل القصيرة (إجلاس الطفل على كرسي لدقائق قليلة بعد تصرُّف مسيء) سيضع حدًّا لأي مشكلة تأديبية. وكنتُ أنا في وقت ما من المؤمنين الحقيقيين بعقوبة العزل، وقد استخدمتُها

مع طفليّ إيريك وآمي. وكثيرًا ما نصحتُ والدين كانوا يستشيرونني كأخصّائي نفسي عائلي باستخدامها مع أطفالهم. لكنّني استنتجت مع الوقت أنَّ عقوبة العزل تنجح فقط مع الأطفال ذوي السلوك الحسن. إنَّها لا تُجدي مع أطفال تطوَّرت لديهم مشكلات سلوكية سيِّئة جدًّا من حيث النوع أو التواتر.

إنَّ طفلاً يسير على الصراط المستقيم للسلوك الحسن يحتاج إلى وكزة صغيرة فقط إذا حاد عن هذا الصراط.

وتمضية دقائق قليلة جالسًا على كرسي هي وكزة كافية له. لكنَّ ألف وكزة لن تكون كافية لوضع طفل جامح على الصراط المستقيم الذي لم يطأه من قبل. وكمثال على ذلك أقول إنَّ استخدام عقوبة العزل للتعامل مع سوء سلوك «سيِّئ جدًّا» هو مثل محاولة إيقاف فيل هائج بمصفقة ذباب. الحقيقة هي أنَّ المشكلة شديدة السوء تحتاج إلى علاج لا يقلّ شدّة.

المشكلة مع والدي اليوم هي أنَّهم يتردَّدون في تطبيق عقوبات متشدِّدة، وأنا لا أقصد بذلك عقوبات مؤذية أو وحشية، لأنَّ محترفي الهذيان السيكولوجي أخافوهم ودفعوهم إلى الاعتقاد بأنَّ التأديب المتشدِّد ضارّ من الناحية النفسية. ولا ريب في أنَّ العقوبات الكبيرة تسبِّب كثيرًا من الإزعاج والضيق للأطفال، وهذا هو القصد بعينه. هل هذه العقوبات ضارّة نفسيًّا؟ كلا، إلّا إذا كنتم تعتقدون بأنَّ السلوك الأفضل أمر سيِّئ.

العقوبة الكبيرة هي التي يُقصَد منها أن تُثبِتَ نهائيًّا وبشكل قاطع أنَّ الوالدين جادّون فعلاً وعلى الدوام. ومن شأن تبعات كهذه أن تمنع سلوكًا سيِّئًا معيَّنًا من التجذُّر في العائلة، وهو ما كانت تقصده الجدّات بقولهنّ: «القضاء على الشرّ في مهده». كما يمكن استعمال عقوبة كبيرة لوضع حدّ نهائي وفوري لمشكلة سلوكية ضخمة تجاوزت مرحلة المهد. وكانت الجدّات يعبِّرن عن ذلك بقولهنّ: «إنزال خشبة الحاجز.»

عقوبة إريك الكبيرة: بعد بدء السنة الدراسية بأسبوعين اتّصلتْ بنا معلّمة تدرّس إريك في الصف الخامس لتبلغنا أنَّ إريك لا يؤدِّي الواجبات المطلوبة منه في أيّ من

المواد. وقالت إنَّه ليس مزعجًا لكنَّه يتلهّى مع رفاقه بدل أن يدرس. جلسنا، أمُّه وأنا، معه وقلنا له مباشرة وبعبارات واضحة: «حُلَّ هذه المشكلة». وكانت لنا في الواقع ثقة كبيرة في مقدرته على القيام بذلك بحيث لم نعتزم مراقبة واجباته الدراسية المنزلية أو الاتصال بمعلِّميه بصورة منتظمة أو التعاطي بأي طريقة عصبية مع هذا النذير.

قلت له: «لكنْ يا سيِّد إريك إذا كانت ورقة علاماتك المنتظرة بعد ستة أسابيع تُنبِئ بأنَّك لم تحلّ هذه المشكلة فسنتولى، أمّك وأنا، حلّها نيابة عنك. هل عندك أيّ سؤال؟»

قال إنَّه فهم المقصود، لكنَّ جميع الأطفال يقولون ذلك عندما يكونون محشورين في مأزق. وصلَتْ ورقة العلامات بعد ستة أسابيع، وكانت بالغة السوء. جلسنا مع إريك من جديد وقلنا له: «إنَّك لم تَحُلّ المشكلة، لذلك سنتولى نحن حلّها نيابة عنك كما سبق وأبلغناك. خلال الأسابيع الأربعة القادمة ستكون في غرفتك عندما لا تكون في المدرسة أو الجمعية الشبابية. تستطيع الخروج منها للذهاب إلى الحمام والقيام ببعض الأعمال وتناول الطعام معنا، وسترافقنا إذا ذهبنا خارج المنزل كعائلة. وخلال هذه الفترة ستكون الساعة السابعة موعد ذهابك إلى سريرك، حتى لو لم تكن لديك مدرسة في اليوم التالي. وذلك يعني إطفاء الأنوار في الساعة السابعة. وبعد أربعة أسابيع سنطلب من معلِّميك تقريرًا عن التقدّم الذي تحرزه. وإذا أشار أحدهم إلى أنَّك لم تحلّ المشكلة حلاً كاملاً، فسنجدِّد هذا الإجراء لأربعة أسابيع أخرى. دعنا نذكِّرك يا إريك أنَّ أمامك سبع سنوات باقية تعيش معنا خلالها.»

غنيّ عن القول إنَّه ذُهل تمامًا. لم يخطر في أكثر خيالاته جموحًا أنَّنا سنفعل أمرًا بهذا الحجم. وبعد أربعة أسابيع عندما طلبنا تقريرًا عن تقدُّمه كتب المعلِّمون: «لا نعرف ماذا فعلتما، لكنَّ إريك أصبح طفلاً مختلفًا تمامًا، أصبح تلميذًا نموذجيًّا!»

ومنذ ذلك الوقت ومع ظهور أصغر مؤشّر إلى مشكلة ما في المدرسة، كان يكفينا أن نقول له: «تُرى هل تذكر الصفّ الخامس؟» وسرعان ما كانت المشكل تُسوَّى، وليس بأسلوب العجائب!

عقوبة بِنسون الكبيرة

كان بنسون مشكلة سلوكية كبرى في المدرسة والمنزل على السواء. كان معطِّلاً لِمَن حوله وفاقد الاحترام للآخرين ومتمرِّدًا على التعليمات. وفي اجتماعات ضمَّت معلّمته في الصف الثالث ومدير المدرسة ومستشارها أُشير بصورة متكرِّرة إلى أنَّه مصاب باضطراب نقص الانتباه. وقيل لوالدَيْ بِنسون من باب الطمأنة إنَّ جينات سيئة تسبِّب هذا الاضطراب وإنَّ سلوكه ليس ذنبهما. قيل لهما إنَّ ابنهما يحتاج إلى تناول أدوية تساعده في السيطرة على نزواته. وقاوم والداه هذا الهراء المُغَلَّف بحُسن النيّة طوال أشهر عديدة (ملاحظة: خلافًا لما قيل لكثيرين من ذوي الأطفال المصابين باضطراب نقص الانتباه، لا يوجد إثبات علمي ـ نعم لا يوجد إثبات علمي ـ على كون هذا الاضطراب وراثيًّا أو ناتجًا عن اختلال توازنٍ بيوكيميائي أو عن اعتلالات بنيوية في الدماغ).

قالت لي أمّ بنسون: «في آخر الأمر وصلنا إلى الحدّ النهائي لتسامحنا مع ألاعيبه وحِيَله. وعندما عاد إلى المنزل من المدرسة في أحد الأيام اكتشف قفلاً مُحْكَم الإغلاق على باب غرفة نومه التي تحتوي متاعه من تلفزيون وجهاز ألعاب الفيديو وأدوات الرياضة ولعبة سباق السيارات وما إلى ذلك. قلنا له إنَّنا سنسمح له بدخوله غرفته لمدّة خمس عشرة دقيقة في الصباح ليرتدي ثيابه من أجل الذهاب إلى المدرسة، ولمدّة خمس عشرة دقيقة في المساء كي يستعدّ للذهاب إلى النوم. وسيكون موعد نومه الساعة السابعة وثلاثين دقيقة سبعَ ليال في الأسبوع. وسيكون فراشه أريكة غرفة الجلوس، وهي مريحة جدًّا كما أعرف.»

صُعِق بنسون تمامًا، وعندما هدّد بالتبليغ عن والديه بتهمة إساءة معاملة طفل، ذكّراه بأنَّه سيُطعَم كما يجب وسيُحمى من عوامل الطقس حماية كاملة وسينام في فراش آمن بكثير من سريره لأنَّه لا يستطيع أن يسقط عن الأريكة إلّا من جهة واحدة!

وأضاف والدا بنسون قائلَيْن له: «لكنْ خذ حريَّتك وأبلِغ مَن تشاء كيف تتعرَّض لسوء المعاملة.»

أعلـم الوالدان ابنَهما أنَّ هذا الإجراء الصارم سيستـمرّ أربعة أسابيع على الأقلّ ولن يُسمح له خلال هذه الفترة بالـمشاركة في أيّ نشاط بعد الـمدرسة أو باستقبال أصدقائه في الـمنزل أو استعمال الهاتف أو مشاهدة التلفزيون أو الذهاب إلـى أي مكان إلّا بصحبة والديه. فضلاً عن ذلك سيؤدّي أيُّ سوء تصرّف في الـمدرسة أو الـمنزل إلـى إضافة أسبوع واحد إلـى فترة «نَفْيِه» التي لن تُقصَّر مهما حسّن سلوكه.

أضافت أمّه قائلة: «كان الأمر مدهشًا. اتّصلت بنا معلّمته بعد عدّة أيّام لتبلغنا أنَّ بنسون أصبح طفلاً مـختلفًا تـمامًا، وهي لـم ترَ من قبل تـحسُّنًا يحدث بهذه السرعة. كذلك أصبح طفلاً نـموذجيًّا في الـمنزل، أي صار مهذَّبًا ومتعاونًا ومـحبًّا للكلام، يُشيع البهجة حوله.»

بعد أربعة أسابيع أُزيل القفل عن باب غرفة بنسون مع التأكيد على أنَّ القفل سيعود عند أوّل إشارة تنمّ عن ارتداده إلـى سلوكه القديـم، وما زال بنسون يسير على الصراط الـمستقيم بعد سنة كاملة، وهو أمر لا يجوز أن يدهش أحدًا.

عقوبة ستومپانِلا* الكبيرة

كانت ستومپانلا في السنة الـخامسة من عمرها عندما قرَّر والداها أنَّهما لن يتغاضيا بعد ذلك عن سورات الغضب التي تنتابها. كانت هذه النوبات تأتيها كلّما رفضا لها طلبًا أو أصرًّا على أن تقوم بأيّ عمل يدوي مهما يكن بسيطًا، مثل لـمّ ألعابها. كانت نوبات غضب ستومپانلا تتـمثّل في الصراخ بأعلى صوتها ورمي نفسها على الأرض وقذف الأغراض، وقد بدأت عندما كان عمرها سنتين، وهي مرحلة عمرية صعبة وقد كانت سيئة جدًّا بالفعل. وازدادت سورات غضب ستومپانلا سوءًا مع الوقت، وكانت في بداية الأمر تطلق العنان لنوباتها في الـمنزل فقط، لكنَّها أصبحت تدريجيًّا أقلّ مبالاة بـمن يراها ويسمعها. وعندما اتّصلت معلّمة روضة الأطفال لتعبِّر عن قلقها تـحرَّك والدا ستومپانلا متأخّرَيْن، لكنْ قبل فوات الأوان.

(*) هذا اسم رمزي استعمله الكاتب ويعني مـجازاً «الدبّاكة» أي التي تضرب الأرض بقدميها تعبيرًا عن الغيظ أو الغضب.

كانت الخطّة بسيطة. في أوّل سورة غضب لها، تُرسَل ستومپانلا إلى حمّام الطابق السفلي، وهو مكان آمِن لها لكنّه مُمِلّ تماماً، ثم يُغلَق عليها الباب. وعندما تستعيد السيطرة على نفسها يُسمح لها بالخروج.

وفي المرة الثانية تُرسل إلى الحمّام وتُحرَم من جميع امتيازاتها بقية ذلك اليوم، بمعنى أنَّها تُمْنع من مشاهدة التلفزيون والخروج من المنزل واستقبال أحد من أصدقائها. أما سورة الغضب الثالثة في ذلك اليوم فكانت نتيجتها بقاء ستومپانلا في غرفتها بقية النهار والذهاب إلى النوم بعد العشاء مباشرة. أنا أُطلق على هذا الأسلوب تسمية «ثلاث ضربات خاطئة وتخرج من اللعبة!» وقد اكتشفت أنَّه أسلوب فعّال في معالجة قطاع عريض من المشكلات السلوكية. كذلك أبلغ الوالدان ابنتهما ستومپانلا أنَّها لن تحصل على ألعاب أو ملابس جديدة (إلّا إذا كانت ضرورية جدًّا) أو أيّ حلوى كما أنَّها لن تذهب إلى السينما أو أيّ مناسبة خاصة أخرى إلى أن تتوقَّف نوبات غضبها تماماً طوال شهر كامل.

وانسجاماً مع المثل الشعبي القائل: «لا بُدَّ أن تَخرب حتّى تَعمر»، ساءت الأمور مع ستومپانلا قبل أن تتحسّن (وهذا ما يحدث في كثير من الأحيان عندما يحاول الوالدون معالجة مشكلات سلوكية بصورة فعّالة). لكنَّ والدَيْ ستومپانلا لم يحيدا عن المسار الذي قرَّراه. وغنيّ عن القول إنَّ ستومپانلا أمضت معظم الأسبوعين الأوّلين من الخطّة في غرفتها. وفي نهاية المطاف فهمت الفتاة المسألة برمّتها وتوقّفت سورات غضبها فجأة وكأنَّها لم تكن. نعم، هذا صحيح. توقَّفت النوبات تماماً. ويلاحظ الوالدان من حين إلى آخَر مؤشّرات على بداية غليان داخل ابنتهما، لكنَّها سرعان ما تحبس أنفاسها قبل خروج الصرخة الأولى وتستدير ضاربة الأرض بقدميها لتذهب إلى غرفتها وفمُها مغلق لكي تحرد هناك. ويرى والداها أنَّ الحرد يمثّل تحسُّنًا يُقاس بالسنوات الضوئية لذا، فقد اتّخذا قرارًا حكيماً بعدم خوض هذه المعركة.

في حالة إريك نجحنا، زوجتي وأنا، في حلّ مشكلة وهي في بدايتها باستخدامنا عقوبة كبيرة. وفي حالة كلّ من بِنسون وستومپانلا، أنزل والدوهما «خشبة

الحاجز» ووضعوا حدًّا لمشكلتين دامتا وقتًا طويلاً نسبيًا. وفي جميع الحالات الثلاث انتصر أسلوب الجدّات التقليدي في التأديب على الهراء السيكولوجي الحديث، ما يثبِّت مرّة أخرى أنّ لا جديد تحت الشمس.

في بعض الأحيان أصِف العقوبات الكبيرة بالعقوبات التي لا تُنسى، بمعنى أنَّها تستقرّ بشكل دائم في مخزون ذاكرة الطفل، وهو المُبتغى أصلاً. أمّا العقوبات التي لا تُنتِج ذكريات دائمة ومزعجة فهي غير مُجْدية. إلّا أنّ ذلك لا يعني أنَّ تجربة واحدة مع تبعة كبيرة ستكون كافية لحلّ مشكلة سلوكية. من المحتمل أن تكفي تجربة واحدة مثلما حدث مع إريك وبنسون، لكنْ لا تراهنوا على ذلك وتذكَّروا أنَّ تطبيق العقوبة الكبيرة في كلّ من الحالتين استغرق أربعة أسابيع. وحتى عند لجوئكم إلى عقوبة كبيرة سيتعيَّن عليكم أن تُثبتوا لأطفالكم التزامكم وتصميمكم على حلّ المشكلة. وفي الحالات النمطية تكفي ثلاثة استخدامات لعقوبة كبيرة لحلّ المشكلة، لكنَّ طفلكم قد يكون واحدًا من الأطفال الذين يحتاجون إلى أكثر من ثلاثة استخدامات ليقتنع بأنَّكم جادّون في مسعاكم.

أن تكونوا صارمين...

أتلقّى عددًا لا بأس به من الرسائل البريدية والإلكترونية من أناس يكتبون للإعراب عن موافقتهم على أنَّ التأديب الأفضل هو التأديب الصارم. وأحيانًا يفاتحني أشخاص من الآباء أو الأمهات أثناء جولات المحاضرات التي أقوم بها ليعلنوا انضمامهم إلى عضوية جمعية الصرامة التأديبية (Society for Disciplinary Strictness).

«أنا صارمة جدًّا»، تقول سيّدة من هؤلاء وأمارات الزهو ترتسم على محيّاها، ثمّ تحدّثني عن عبارات الإطراء الكثيرة التي تتلقّاها من أناس آخرين كثيرًا ما يُدهشون لحسن سلوك أطفالها.

ولسوء الحظ اكتشفتُ أخيرًا أنَّ ما يظنُّه بعض الناس صرامة ليس صارمًا على الإطلاق. ما يفعلونه منهِك وسيِّئ واستحواذي وسخيف، لكنَّه ليس صارمًا.

وقد راقبتُ في مناسبات عدّة خلال السنة الماضية أو نحو ذلك بعض هؤلاء المُدَّعي «الصرامة» مع أطفالهم. وإليكم مثالاً حيًّا على الطريقة التي يُهينون بها أولادهم:

ـ رامبو، أعطِني هذا الغرض.

(رامبو، في السابعة من العمر، يتظاهر بعدم الانتباه.)

ـ رامبو، هل سمعتني؟

ـ نعم.

ـ والنتيجة؟

ـ أنا ألعب به فقط.

ـ لا يهمّني. أعطنيه. إنّه ليس لعبة.

ـ لكنْ. ماما!

ـ كلا، أعطنيه.

ـ دعيني فقط ألعب به لفترة، من فضلك.

ـ لا. الآن! (تمدّ الأم يدها متوقّعة أن يتجاوب. يَنْتُر رامبو «اللعبة» بشدّة بعيدًا عن يدّ أمّه.)

ـ رامبو! أعطني هذا الشيء. الآن!

أظنّ أنّكم فهمتهم قصدي، قد تستمرّ هذه المهزلة دقيقتين أو ثلاث قبل أن تنتصر الأم، بعد أن نجح رامبو في إقناعها بتركه يلعب بالغرض لفترة أطول، أو يتدخّل الأب فيسلّم رامبو الغرض بصورة فورية. وبالمناسبة، أنا لا أقصد أن أشير ضمنًا إلى أنّ الأمّ يجب أن تكون هي الجهة الصارمة دائمًا، فالأب يمكن أن يكون ذلك. وقد يكون الأب والأم صارمَين أيضًا.

قبل فترة ليست بالطويلة كان الوالدون من هذا النوع يوصَفون بالنزقين. وكان الوالدون الآخرون ـ الصارمون حقًّا ينظرون إليهم باستخفاف. غير أنّ معظم

الوالدين كانوا صارمين في ذلك الوقت. واليوم يتحلّى معظم الوالدين بأي صفة إلّا الصرامة. ووالدو اليوم، بالإضافة إلى كونهم نزقين، هم جبناء، مُدَّعو بأس، رفاق عبث، خدّامون، غائبون، اتكاليون. وليس هناك إلّا القليل القليل من الصارمين الحقيقيِّين. ولأُبيِّن لكم ما هي الصرامة الحقيقيَّة سأعود إلى المثال ذاته وأعطيه نتيجة مختلفة:

ـ رامبو، أرجو أن تعطيني هذا الشيء، إنَّه ليس لعبة.

(يتظاهر رامبو بعدم الانتباه.)

تتقدَّم الأم دون أيّ مظهر أو شعور بالغضب وتأخذ رامبو من يده وتقوده إلى غرفة نومه وتقول له: «أيُّها الشابّ، ستبقى هنا مدّة ساعة. كذلك سوف أُلغي خطّة مبيتك لدى صديقك. تستطيع المبيت في منزله في وقت آخَر.»)

ـ ماما! أوكي! أنا آسف.

ـ هذا حسن. لكنَّ اعتذارك لا يغيِّر حقيقة أنَّك لم تنفِّذ ما قلته لك.

ـ ماما! هذا ليس عدلاً!

ـ رامبو، أنتَ فتى ذكي جدًّا. أنتَ في الواقع ذكيّ إلى حدّ كافٍ لتعرف أنَّني أقصد ما أقول عندما أتكلَّم معك. وبالتأكيد لن أهين ذكاءك بتكرار كلامي. هذا ما كان. سأبلغك عندما تنتهي ساعة بقائك في غرفتك (تسير الأمّ مبتعدة).

هذا ما وجب قوله، وأظنُّ أنَّكم فهمتم الوضع تمامًا. لكنْ لعلّ من المفيد أن أؤكِّد ما يلي: الصرامة تعني أنْ تجعلوا الطفل يفهم أنَّ الكلمات ليست مجرَّد نفثات من الهواء الساخن، بل إنَّها تعني شيئًا. الصرامة ليست لؤمًا (بالرغم من أنَّ الأطفال يعتقدون ذلك أحيانًا) ولا صوتًا عاليًا ولا تهديدًا ولا حتى قصاصًا. والواقع كما أقرأه من خلال تجربتي الشخصية والمهنية هو أنَّ الوالدين الصارمين يعاقبون أطفالهم على نحوٍ أقلّ ويستمتعون برفقتهم أكثر لأنَّهم أقنعوا أطفالهم بأنَّ الكلمات تعني شيئًا.

قالت لي إحدى الأمهات مرّة إنّها تشعر بأنّني أُشدِّد أكثر من اللازم على الحاجة إلى الصرامة وأقلّ مما ينبغي على الحاجة إلى التعامل مع الأطفال بارتياح ومودّة. وأضافت أنّها ترى عبر تجربتها أنّ الوالدين غير المتوتّرين يؤدّبون أطفالهم بفاعلية أكبر.

أوافق على ذلك، لكنْ ليس هناك تناقض بين كون الإنسان غير متوتّر وكونه صارمًا. وفي واقع الأمر، تقودني خبرتي الشخصيّة والمهنية إلى استنتاج أنّ أكثر الوالدين صرامة هم أقلّ الوالدين توتّرًا.

إنّ التأديب الصارم قوي، لكنّه ليس فظًّا. التأديب الصارم ثابت المعالم، لكنّه ليس بالضرورة إجراء يمكن التكهّن به أو عملية تكرارية. لهذه الأسباب يضع التأديب الصارم نهاية سريعة لمشكلة ما ويقضي عليها في مهدها، فهو يخدم بالتالي مصلحة الوالدين والأطفال على حدّ سواء.

نرجع إلى مثال رامبو ونفترض أنّه فهم الرسالة وبدأ يفعل ما يطلبه منه والداه فور سماعه طلبهما. غير أنّه ينتكس ويعود إلى سابق عهده بعد أسبوعين فيُرسَل إلى غرفته للبقاء ساعة أخرى هناك ويُبلَّغ أنّه لن يلعب في مباراة كرة القدم ذلك اليوم.

يحتجّ رامبو ويصرخ ويناشد، لكنّ والديه يثبتان على موقفهما. وينقضي شهر آخر قبل أن يعصي رامبو تعليمة أخرى من تعليمات والديه فيُعاقَب بهدوء. هذه المرّة ينقضي شهران قبل أن يرتكب مخالفة جديدة، وهكذا دواليك. وببقائهما صارمَين عكَس والدا رامبو المثل الشائع «جعل من الحبّة قبّة» فحوّلا «قبّة» تأديبية إلى «حبّة» تهذيبية. ورامبو أفضل سلوكًا اليوم كما خفّ الإجهاد النفسي عن والديه. وبهذه الطريقة تزداد العفوية والمحبّة الحقيقية في العلاقة بين رامبو ووالديه.

بعبارات أخرى يمكن القول إنّ الارتياح هو المكافأة التي ينالها المؤدِّب الفعّال.

التأديب الضعيف مقابل التأديب القوي

قبل فترة من الزمن أبلغني صديق حميم أنَّ ابنه البالغ من العمر خمس سنوات تجاهل تمامًا القواعد الموضوعة له وخرج على درّاجته من الزقاق المسدود الذي يقيمون فيه وعُثِرَ عليه بعد ساعة في الجهة الأخرى من الحيّ.

قال الرجل: «تملّكنا الذعر. جميع الأمور جالت في خاطرنا عندما كنّا نبحث عنه.»

سألته: «حسنًا، ماذا فعلتما حيال ذلك؟»

أجاب بنبرةِ مَنْ يحذّر أيًّا كان من العبث معه هو الرجل الصنديد، قال: «أخذنا منه الدرّاجة ليوم واحد.» وقبل أن أتمالك نفسي خرجتْ من فمي «أووووووه» ساخرة.

فوجئ صديقي وسألني: «ما الأمر؟»

أجبت وأنا أضحك بيني وبين نفسي: «كم أنت لئيم حقًّا!»

ردّ مستهزئًا وقال: «بالضبط! ماذا كنت لتفعل أنت يا حضرة خبير الرعاية الوالدية؟ هل كنت لتأخذ درّاجته لمدّة شهر؟»

قلت: «أوه. شهر على الأقل.»

نظر إليّ صديقي برهة من الزمن وقال: «أنت جادّ، أليس كذلك؟»

كنتُ جادًّا إلى أقصى حدود الجدّ. إليكم توقُّعاتي: بما أنَّ ابن صديقي لم يتعرَّض إلّا لإزعاج لا يُذكر بسبب مخالفته القاعدة المتعلّقة بركوب درّاجته، فسوف يخالفها مرة أخرى. والأرجح أن يكون قد خالفها بالفعل. فمن حيث الأساس مَن يهتمّ فعلاً إذا بقي يومًا واحدًا دون درّاجة؟

لكنْ لو أنَّ والدَيه أخذا منه الدرّاجة لمدّة شهر وعلّقاها على خطّاف في المرآب على سبيل المثال لَدَفَع هذا الصبيّ الصغير ثمنًا باهظًا (بالنسبة إلى عمره) لمخالفته القاعدة. وظنّي أنّه ما كان ليعود قطّ إلى مخالفة قاعدة عدم الخروج إلى الشارع العام بدرّاجته. أجل ما كان ليكرِّر المخالفة أبدًا.

يشبه معظم والدِي اليوم صديقي هذا. عندما يرتكب أولادهم خطيئة ما يتساهلون معهم في العقاب. وعندما يتطلّب الوضع تأديبًا إصلاحيًّا يرفضون إغضاب أطفالهم.

ومن سخرية القدر أنَّ امتناع هؤلاء الوالدين عن إغضاب أطفالهم يؤدِّي في نهاية المطاف إلى إصابتهم هم بالغضب فإذا بهم يصيحون: «كم مرّة قلنا لك ألّا تخرج بدرّاجتك من الزقاق إلى الشارع العام؟ أجِبْ يا فتى، كم مرّة قلنا لك؟» وبعد ذلك يشعرون بالضيق لأنَّهم فقدوا هدوء أعصابهم فيعتذرون ويعود كلّ شيء إلى المربّع الأول.

إذا أردتم منع طفل ارتكب خطأ من تكراره، فافرضوا عليه فور حدوث المخالفة عقوبة لا تنسجم والذنب، عقوبة أكبر بكثير من الذنب، بهذه الطريقة تتركون انطباعًا لا يُمحى لدى الطفل ويكون من المرجّح ألّا تتكرّر المخالفة ذاتها أبدًا وإطلاقًا. وبالمناسبة، أنا لا أتحدَّث عن الضرب بل عمَّا كان يسمِّيه الآباء والأمهات في الماضي «القضاء على الشرّ في مهده».

ولن تدعو الحاجة كثيرًا إلى تطبيق تبعات شديدة من هذا النوع، لأنَّ بعضًا منها، أو واحدة فقط بين الحين والآخَر ستكون كافية كإجراء وقائي لتفادي أيَّة مخالفات تأديبية في المستقبل. والحقيقة هي أنَّ الوالدين الذين يطبّقون تبعات من نوع «مصادرة الدرّاجة لمدّة شهر» نادرًا ما يضطرون إلى المعاقبة، فأطفالهم يأخذون كلامهم على محمل الجدّ ويطيعون تعليماتهم. لكنَّ الوالدين الذين يتساهلون في العقاب ينتهي بهم الأمر مُجبرين على التساهل والتساهل والتساهل. وبما أنَّ أطفالهم لا يأخذونهم على محمل الجدّ ويواصلون ارتكاب المخالفات ذاتها، لا يبقى لهم إلّا الصياح. ثم يشعرون بالضيق ويعتذرون لأولادهم قائلين: «أنا آسف. كان يومي عصيبًا. لم أقصد أن أُسلِّط عصبيتي عليك.» ويبدأ التساهل من جديد.

هناك خيار بين أن تكون مجهَدًا نفسيًّا طوال الوقت أو أن تكون متشدِّدًا من وقت إلى آخَر مع احتفاظك ببرودة أعصابك طول الوقت تقريبًا. الاختيار لا يحتاج إلى ذكاء مفرط في رأيي.

الحبّ الضعيف في مواجهة الحبّ القوي

الآباء والأمهات الذين يقرأون كتب الرعاية الوالدية يتّسمون بالمسؤولية ويقظة الضمير والاهتمام بالآخرين والالتزام. لا ريب في حُسن نواياهم، لكنّ ذلك لا يعني أنّهم يفعلون الشيء الصحيح.

هؤلاء الوالدون يحبّون أطفالهم، لكنّ أنواع الحبّ لا تتساوى، وكما يمكن للإنسان أن يخطئ في التأديب، يمكنه أن يخطئ في المحبّة. ومن سوء الطالع أنّ والدين كثيرين من ذوي النوايا الحسنة يحبّون أطفالهم حبًّا عميقًا وخاطئًا في الوقت ذاته، حبّهم ضعيف مثل تأديبهم. حبّهم ليس قويًّا.

الحبّ الضعيف يساير ويتسامح ويُراضي والوالدون الذين يحبّون حبًّا ضعيفًا يتوقّعون عمومًا الكثير من أنفسهم والقليل نسبيًّا من أطفالهم. يريدون مثلاً أن يحقّق أطفالهم علامات جيدة في المدرسة، لكنّهم لا يضمنون الحصول على هذه العلامات الجيّدة إلّا بالجلوس مع أطفالهم وتوجيه كل حركة لهم عندما يقومون بواجباتهم المدرسية في المنزل. بعملهم هذا يسيء الوالدون إلى أطفالهم أكثر ممّا يساعدونهم. يتّسم الحبّ الضعيف أيضًا بالخوف من إغضاب الأطفال وبالخوف من سماع طفل يصيح: «أنتما لا تحبّانني!» أو «أنا أكرهكما!»

الحبّ القويّ، بالمقابل، يمكّن الوالدين، لكنّه قد لا يعجب الأطفال طول الوقت. والوالدون ذوو الحبّ القوي يدركون أنّ على أطفالهم أنْ يتعلّموا أمورًا معيّنة - وربما أهمّ الدروس على الإطلاق - بالطريقة الصعبة من خلال مجابهتهم الصعوبات منفردين تقريبًا، ومن خلال ارتكاب الأخطاء والتعلّم منها. الحبّ القوي موجود ليحمي، لكنّه يعرف أيضًا أنّ الصعوبات بحدّ ذاتها ليست سببًا كافيًا لبسط الحماية على الطفل.

الحبّ القوي يساعد الطفل على الوقوف على قدميه والاعتماد على نفسه والحبّ الضعيف يجعل الطفل يقف على أقدام والديه. الحبّ القوي يقضي بأن يوضّب الطفل السرير الذي ينام فيه والحب الضعيف يتمدّد في سرير الطفل من أجل

إرضائه. الحبّ القوي يعلّم الطفل الصبر والتحمُّل والحبّ الضعيف يجعله مُهَلْهَلاً. الحبّ القوي يدعم الطفل لكي يُلزمه بأن يخوض معاركه بنفسه والحبّ الضعيف يخوض معارك الطفل نيابة عنه.

إليكم قصة عن الحبّ القوي: تحمِل والدتي شهادة دكتوراه في مورفولوجيا النباتات، وهو علم نخبوي من علوم الحياة. إنَّها لامعة الذكاء ويشمل ذكاؤها حقول الرياضيات. في إحدى المرات عندما كنت في الصفّ الخامس أو نحو ذلك، جئتُ إليها شاكيًا من مسألة حسابية استعصت عليّ. تفحّصتْ كتاب الرياضيات ولاحظتْ أنَّ الموضوع ما زال يُدرّس مثلما تعلَّمَته هي، فأعادت الكتاب إليّ وقالت:

«فهمتُ هذه المسألة عندما كنت في عمرك. وأنت تستطيع ذلك أيضًا.»

قلتُ محتجًّا: «أمّاه، أنا أعمل عليها منذ ثلاثين دقيقة تقريبًا.»

أجابت: «أوه، أنت تقول ذلك للشخص الخطأ. أنا أعمل على بعض المسائل منذ خمسة أعوام ولم أحلّها بعد، لكنِّي سأواصل العمل إلى أن أحلّها.»

بقولها هذا صرفتني بإيحاءة مهيبة كما لو كانت ملكة إنكلترا. شعر قلبي الأحمق ابن الأعوام الأحد عشر بالكراهية لأمي. لهذا السبب، أذكر أنَّني جريتُ بأقصى سرعتي مبتعدًا عنها وقلتُ كلامًا من نوع «إنَّكِ لا تهتمِّين حتّى!» لكنَّ أمّي كانت تهتمّ في الواقع وإلى درجةِ الامتناع عن تسهيل كلّ شيء طوال الوقت. وفي مناسبات كهذه جعلتْني أتعلَّم أنَّني قادر على حلّ مشكلاتي الخاصة. كانت تعرف ذلك عنِّي بالفعل، وكان عليّ أنا أنْ أتعلَّم ذلك عن نفسي. تلك كانت الأيام التي تُجبَر فيها على الذهاب إلى المدرسة الصيفية، إذا قصّرتَ عن فهم موضوع ما. وأنا لم أذهبْ إلى المدرسة الصيفية، ما يعني أنَّني حللت المسألة الحسابية تلك بكلّ تأكيد.

ليس من الممكن استخراج أفضل ما في الطفل بمجرّد القول له إنَّه قادر. من الضروري حفزه على اكتشاف طاقاته بنفسه، وذلك يتطلَّب كفاحًا، ومن واجب الوالدين دعم أطفالهم في هذا الكفاح لا أن يخوضوا الكفاح نيابة عنهم. الحبّ القوي، الحبّ الصلب، سمّوه ما شئتم. إنَّه الحبّ الحقيقي.

المنزل ليس منبرًا لحريّة الرأي والكلام

قبل فترة قصيرة دار حوار مَرِح بيني وبين موظّفة في قسم المبيعات التابع للشركة التي تصنع الكومبيوتر المحمول، والتي كانت موضع ثقتي. فقد اتّصلتُ بالشركة لأطلب قطعة غيار، وفي سياق التثبّت من أنّني المالك الشرعي للكومبيوتر سألتني السيدة: «ما هو مركز الرعاية الوالدية التقليدية؟»

أجبتها: «أنا أؤلّف كتبًا وأعقد ندوات عن تربية الأطفال.»

أسعدها جوابي لأنّها كانت تعاني من مشكلات مع ابنيْها البالغَيْن من العمر أربع سنوات وثلاث سنوات. قالت إنّهما يجيبانها بقلّة أدب عندما تطلب إليهما أمرًا ما ويقولان لها صراحةً إنّهما لن يطيعاها وأنّها ليست رئيستهما وما إلى ذلك.

ومضت السيدة في شرحها قائلة: «الواقع هو أنّني أحاول تربيتهما بأسلوب يُشعِرهما بأنّهما يستطيعان دائمًا التحدُّث إليّ بحريّة.»

قلتُ لها بصوت حازم: «إذًا أنتِ تُبلين أحسن بلاء». سألَتْ والدهشةُ باديةٌ في صوتها: «أُبلي بلاء حسنًا؟»

فقلتُ: «نعم. تُبلين بلاء حسنًا. من البديهي أنّ ابنيك يشعران بأنّ لديهما إذنًا كاملاً للتحدّث إليك بحريّة.»

ردّت قائلة: «لكنّ ذلك ليس النوع الذي عنيتُه من حرية الكلام. أريد أن يطيعاني لا أن يُبديا قلّة احترام تجاهي.»

أجبتُها: «حسنًا. يؤسفني أن أقول لك إنّك لا تستطيعين أن تنالي الغايتين معًا.»

وفجأة اتّخذ حوارنا طابعًا جدّيًا ثم أنهيناه بعد فترة قصيرة.

تحاول هذه الأمّ، شأنها في ذلك شأن والدين كثيرين اليوم، أن تضع العربة أمام الحصان. في هذه الحالة تتمثّل العربة في علاقة «ديموقراطية» بين الوالدة أو الوالد والطفل. أمّا الحصان فيتمثّل في علاقة سِمَتُها أن يُنفِّذ الطفل ما يؤمر به لأنّه أُمِر بذلك. الوالدان يأمران ولا يسألان. بعبارات أخرى: الأطفال لن يقدِّروا ثمار الديموقراطية

مثل حريّة الرأي والكلام إلّا إذا كانوا قد حُرِموا منها لفترة زمنية كافية لشحذ حُسْن تقديرهم. وسيسيء الأطفال استخدام الحرية إذا أُعطيت لهم قبل أن يحين أوانها. وطفلا الأم التي تحدَّثنا عنها يتحوَّلان بسرعة إلى طاغيتين. يا للسخرية! هي تعطيهما حرّيّة وهما يطلبان امتيازات.

هذه هي الحالة التعيسة لتربية الأطفال في أميركا حيث يسود الهراء السيكولوجي لا المنطق السليم. قلتُ لأبٍ قبل فترة قصيرة إنَّ الطريقة الصحيحة لضمان جدارة الطفل بالثقة خلال سنوات المراهقة هي الإصرار على الطاعة العمياء عندما يكون هذا الطفل صغيرًا ثم تخفيف القيود بالتدريج على «حرّيّة التفكير» عندما يقترب الطفل من سنّ المراهقة، فذلك وحده يضمن التزام المراهق الضوابط الملائمة لكلامه وسلوكه.

قال لي الرجل: «أوه! لا أشعر بالارتياح إلى ذلك.»

أردتُ أن أقول له إنَّ الأمر لا يتعلَّق به بل بطفله، لا يتعلَّق بما يفعله هو وبما إذا كان لا يشعر «بالارتياح» لفعل ذلك. الأمر يتعلَّق بمصلحة الطفل. الرعاية الوالدية في أميركا أسطورة، أسطورة وهمية تدور حبكة خيالها حول إنقاذ الطفولة التي طال حبسها في غياهب سجن البطالة على أيدي جحافل من الآباء والأمّهات المحبّين العطوفين الذين يريدون لأطفالهم أن يعبّروا عن أفكارهم بحرّيّة، وهو ما يفعلونه في نهاية المطاف لسوء حظّ جميع المعنيّين.

قالت أخيرًا أمّ تجاوزت عامها الأربعين بقليل وهي تكاد تنفجر باكية: «ما كنتُ لأُكلِّم والديّ قطّ مثلما يكلّمني أطفالي أحيانًا.»

كلام السيدة ليس صحيحًا تمامًا. كان في وسعها فعلاً أن تكلِّم والديْها بقلّة احترام لو سمحا لها بذلك. لكنّهما لم يفعلا. لم يسمحا لها بحرّيّة الكلام قبل الأوان ولهذا السبب لم تكن طفلة مستبدّة. كانت مهذَّبة ومطيعة، تحترم الآخرين. ونتيجة لذلك لم تُسِئ استخدام حرية التعبير عندما جاء وقت تمتّعها بهذه الحرّيّة.

ومن المؤسف أنّ كثيرين من أطفال اليوم لا يستمتعون أبدًا بحرّيّة الكلام. لقد كانت هذه الحرية متاحة لهم دائمًا، فما الجديد الذي يستمتعون به؟

هل هناك أسئلة؟

سؤال: كثيراً ما ينادي ابننا البالغ من العمر سنتيْن أباه باسمه الأول. ولم يناديني باسمي إلا مرّات قليلة. نفضّل لو ينادي أباه بكلمة «دادي». نشعر بأنّ هذه الكلمة تنمّ عن قَدْرٍ أكبر من الاحترام، ناهيك عن رغبة زوجي في التمتّع بحقوقه «الدادية». وحتّى الآن لم نصحّح سلوك ابننا لأنّنا نشعر بأنّ لفت الانتباه إلى السلوك قد يؤدّي فقط إلى زيادة الأمر سوءاً، عوضًا عن ذلك يُشير أحدنا إلى أبيه عندما يناديه باسمه الأول ويسأله: «مَن هذا؟» ويأتي جوابه صحيحًا كلّ مرة فيقول: «دادي!» ومع ذلك يواظب على مناداة والده باسمه الأول. إنّني أتفهّم تعطُّش ابني الذكي إلى الاستكشاف واستعمال أسمائنا، لكن كيف يمكنني إفهامه أنّ هذا الأمر غير مقبول؟

جواب: بديهي أنّك لا تُجيدين التفكير مثل طفل في الثانية من عمره. اسمحي لي بمساعدتك، عندما ينادي ابنك أباه باسمه الأول وتشيرين أنتِ إلى زوجك (أو يشير هو إلى نفسه) وتقولين (أو يقول) بصوت درامي: «مَن هذا؟» يظنّ ابنك أنّك تقومين بالحركة الثانية في لعبة من نوع «الحزّورة»، فيردّ باعتزاز: «دادي!» وتقولان أنتما بابتهاج: «هذا صحيح!» وهكذا يربح ابنكما اللعبة مرة أخرى.

إذا اكتشف طفل في الثانية من عمره أنّه يستطيع استثارة تجاوب مؤثّر في شخص ما فسوف يحاول تكرار السياق ذاته في كلّ فرصة مؤاتية، وذلك ليس عملاً صادرًا عن إرادة (بالرغم من أنّ الأطفال في الثانية يمكن أنْ يمتلكوا إرادة)، بل هو نوع من المرح! إنّها محاولة كوميدية لطفل في الثانية من عمره.

بعبارات أخرى عليك أن تصحّحي هذا السلوك، بالرغم من أنّه ليس «سيِّئًا». قد يبدو لفظا «مامي» و«دادي» غير متكلّفَيْن إلّا أنّهما لقبان بالفعل. الأسماء الأولى

للأشخاص ليست ألقابًا، ومن الثابت أنّ الألقاب تقترن بالاحترام أكثر من الأسماء الأولى. لذلك ينبغي أن يدعوكما طفلك (وأن يدعو جميع الأطفال والديهم) «مامي» و«دادي»، و«ماما» و«بابا» وما شابه.

ولكي يُبطل طفلك هذه العادة عليكما أن تتوقّفا عن الدخول معه في ما يفسّره هو كلعبة وأنْ تصحّحاه بوضوح وحزم. وعندما ينادي أباه باسمه الأوّل على الأب أن يقول: «أنا لستُ فلانًا، أنا دادي». وعليكِ أنت في الوقت الحاضر أن تنادي زوجك «دادي» أيضًا. ومن المؤكّد أنّ هذا سيضع حدًّا للّعبة وأن يزيل الالتباس.

سؤال: زوجي يعشق الرياضة وقد علّم ابننا البالغ من العمر سنتين التحية الشائعة بين الرياضيين بفتح أكفّهم وصفقها معًا. وما يفعله ابني هو شدُّ يده إلى الوراء ثم صَفْق يد الشخص الآخَرَ بكل ما أوتي من قوّة. وأنا أظنّ أنّ هذا يساوي تعليم الطفل أن يضرب، لكنّ زوجي يعتقد بأنّ تفكيري سخيف بالرغم من أنّ ابننا أبكى طفلاً آخرَ في مثل عمره بعد أن سددَّ إلى يده صفقة بالغة القوة. ويبدو أنّ عادة تعليم الأطفال صَفْق الأيدي المفتوحة لأناس آخَرين شائعة هذه الأيام. وبدأتُ أشعر وكأنّي رجعية قديمة متخلّفة عن العصر. ما رأيك في هذه المسألة؟

جواب: أقترح أن نشترك، أنتِ وأنا، في تأسيس جمعية قدماء الرجعيّين المعارضين لتعليم الأطفال صفق الأكفّ لأنّني أعتقد أنا أيضًا أنّ هذه عادة غبيّة وخطرة إلى حدّ ما ومقلّلة من احترام الأطفال للكبار. وأؤكّد لك أنّني لا أبالي عندما يتبادل الكبار صَفْق أكفّهم، بالرغم من امتناعي قدر المستطاع عن ممارسة هذه الظاهرة اللاحضارية للتعبير عن الفرح. ولا أعارض حتى قيام الأولاد الأكبر سنًّا برفع أيديهم المفتوحة وتبادل الصفقات. فهذه حركة صبيانية في الأساس.

من المشكلات المرتبطة بتعليم أطفال ما قبل سنّ المدرسة عادة صفق الأكفّ افتقار هؤلاء الأولاد عمومًا إلى ضبط النفس، لاسيّما عندما يكونون ذكورًا. وكما جاء في وصفِك، يميل الصِّبية في سنّ ما قبل المدرسة إلى الانحناء خلفًا ثم صفق اليد الممدودة المفتوحة لشخص آخَر بكل ما يستطيعون من قوة. وفي

المرات القليلة التي كنت فيها غبيًّا بما يكفي للمشاركة في هذه التفاهة تعرَّضَتْ يدي لقدر لا بأس به من الألم اللاذع. وفي المرّة الأخيرة التي حاول فيها أبٌ فخور إغرائي بتبادل صفق الكفّ مع ابنه البالغ من العمر سنتين، سحبتُ يدي في اللحظة الأخيرة ما جعل ضربة الطفل تطيش في الهواء وينقلب إلى الأمام بقوّة الدفع الكامنة في عنف ضربته. وقد ارتطم بطاولة وبكى، ولم أكن أنا الشخص الأكثر شعبية في الغرفة آنذاك، وكما ذكرتُ سابقًا، كانت هذه المرة الأخيرة وأقول بصدق إنَّه ما كان يجوز أن توجد مرّة أولى.

وبِغَضّ النظر عن الألم في راحة اليد، تنمّ حركة صفق الأكفّ عن إلفة لا يجوز ببساطة أن تقوم بين راشد وطفل، وحتى بين والدَيْن وطفلهما، وفي تقديري قديم الطراز أنّ هذه العادة يجب أن تكون حكرًا على أقران متوافقين في ما بينهم في العاشرة من العمر فما فوق. طفلان كبيران يتبادلان صفق الأكفّ؟ جيّد. راشدان يتبادلان صفق الأكفّ؟ جيّد. راشد يتبادل صفق الأكف مع طفل؟ غير جيّد. بالنسبة إليّ هذا هو الفعل الجسدي المساوي لقيام طفل بمناداة راشد باسمه الأول. يجب تعليم الأطفال مخاطبة الكبار بألقاب وعبارات الاحترام المتعارف عليها في كلّ لغة ومجتمع، والمصافحة باليد لا صفعها.

إنّ ظاهرة صفق الأكفّ هذه تعبير نموذجي عن حاجة قوية يشعر بها الراشدون المعاصرون إلى نيل قبول الأطفال لهم واعتبارهم من قِبَل أطفالهم لطيفين ومحبوبين. أنا شخصيًا لا أشعر بمثل هذه الحاجة ولا قدرة لي على التماهي مع ما تنطوي عليه من انعدامٍ للثقة بالنفس. وقد تكون لذلك صلة بحقيقة اقتناعي منذ زمن طويل بأنَّ الأطفال لا يقبلونني، لاسيّما عندما يكتشفون أنّني الشخص الذي «يخرِّب حياة الأطفال» كما قال عنّي أخيرًا طفل في التاسعة من عمره. وكوني فاقدَ الشعبية تمامًا لدى المتطفّلين المسترخين في ديار التهاون والدلع أمرٌ محرِّر لنفسي في الواقع وأنا أوصي باقتباسه. فضلاً عن ذلك أعلم أنّ أحفادي يحبّونني وهذا كل ما يهمّني.

قد يكون لكلامي بعض الوزن لدى زوجك، أو ربّما لا. إنَّه مهووس بالرياضة وإطلاق صيحة «اصفق كفّك» جزء أساسي من ثقافة عشاق الرياضة وهو يريد بالتأكيد

أن يستميل ابنه إلى هوايته في أصغر عمر ممكن. إنّ رجلاً يؤمن حقًّا بأنّ نتيجة مباراة لها أهمية كونية كبرى قد يعتبر مسعاك إلى وضع حدّ لصفق الكفّ عملاً هدّامًا بالكامل وكأنّ عدم صفق الكفّ مُنافٍ تمامًا للرجولة الحقّة. وهذا يوحي إليّ بفكرة: تستطيعين دائمًا أن تهدّدي زوجك بأنّك ستعلّمين ابنه في أوّل فرصة فنّ تنسيق الزهور إذا لم يتوقّف عن إعطاء الطفل دروسًا في صفق الكفّ.

أستطيع أن أتصوّر زوجك الآن وهو يقول: «باقة جميلة يابنيّ، اصفق كفّك!»

سؤال: استمعتُ قبل فترة قصيرة إلى محاضرتك في ويسكونسن وأدركت أنّني لم أُكمِلْ بعد تحوُّلي من منزلة الخادمة إلى منزلة القائدة مع ابنتيّ البالغتَين من العمر ستّ سنوات وأربع سنوات. ولقد فات منذ زمن طويل الوقتُ الذي كان ينبغي أن أسيطر فيه على علاقتي بهما. لكنّهما ما زالتا تقرّران كثيراً من الأمور. ومن الخطوات الأولى التي أريد اتّخاذها التوقّف عن كوني رفيقتهما في اللعب. أنا ألعب حالياً مع كلٍّ منهما أو كلتيهما تسعين دقيقة على الأقلّ كل يوم، وأحياناً فترة أطول من ذلك.

هل أستمرّ في اللعب معهما؟ أم أبدأ في توقُّع أن تُبادرا إلى تسلية نفسيهما دوني؟ وكيف أقوم بالتغيير في كلتا الحالتين؟

جواب: لقد قلتُ لجمهور محاضرتي في ويسكونسن إنّ ثقافتنا لم تَعُد تدعم المرأة التي تعبر مرحلة التحوّل الحاكم من خادمة إلى قائدة. هناك ما أدعوه «حاجز الأمومة» الذي تشعر النساء بأنّ عليهنّ عبوره ليثبتنَ أنّهنّ أمهات جيّدات، وقد كُتِبت عليه رسائل من نوع «المرأة التي تُمضي الوقت الأطول مع أطفالها هي الأمّ الأفضل» و«المرأة التي تفعل كلّ ما في وسعها من أجل أطفالها هي الأمّ الأمثل»، و«المرأة الأنجح في حلّ المشكلة كلّما غضب أطفالها هي الأم الأحنّ». إنّ النساء اللواتي يقعن تحت تأثير هذه الدعاية يحبسنَ أنفسهنّ في دور خادمة الأطفال. وبالمقابل لا يقيم أطفالهنّ أيّ وزن لهنّ ولا يستمعون إليهنّ كما يجب. ولماذا يجب عليهم الاستماع؟ فليس من المفترض أن يُصدِر الخدمُ التعليمات، وعندما يفعلون يستحقّون أن يُقابَلوا بالتجاهل.

أهنئكِ على قرارك تحريرَ نفسك من قفص ما يُسمَّى «الرعاية الوالدية السليمة». أُثني عليك، لكنَّ واجبي يقضي بأن أُحذِّرك من أنَّ أمهات أخريات قد لا يشعرن بالارتياح لتحرّرك. عليك أن تعلمي أنَّ هناك تبعات اجتماعية سلبية تعيب النساء اللواتي يتولَّينَ زمام القيادة في التعامل مع أطفالهنّ ويرفضنَ الامتثال للقواعد التي يضعها مدّعو «الرعاية الوالدية السليمة».

ومن دواعي السخرية حقًّا أنَّ نساءً يُفتَرض أن يكنّ متحرِّرات يبقينَ جواريَ في خدمة أطفالهنّ ويستأْنَ عندما تُحررِّ إحدى بنات جنسهنّ نفسها من هذا الهراء.

إنَّ تخلِّيك عن دور رفيقة اللعب لطفلَيْن قادرَيْن تمامًا على تسلية نفسيهما والتسلّي معًا نقطةُ بداية ممتازة لك. في هذا الصدد أنصحك بشدّة أن تشرحي لابنتَيك ببساطة مكوِّنات البرنامج الجديد بقولك:

«يا ابنتيّ، افهماني بوضوح. من الآن وصاعدًا لن أكون رفيقتكما في اللعب. لقد كبرتما بما يكفي لتعرفا كيف تُمضيان وقتكما. ابتداءً من الآن أتوقّع منكما أن تلعبا وحدكما أو معًا. وإذا طلبتما منّي أن ألعب معكما فسيكون ردّي الرفض. وأدعوكما إلى أن تكتشفا ذلك بنفسيكما. والأرجح أنَّني سأسمح ببعض الاستثناءات لهذه القاعدة لأنَّ هناك أوقاتًا أشعر فيها صراحة بأنَّني أريد أن أكون أنا نفسي طفلة. لكنَّ هذه المناسبات ستكون نادرة. أحبُّكما أنتما الاثنتين. هل من أسئلة؟»

أُعطيك نصيحة مشدَّدة بأن تغلقي هذا الباب ببساطة وأن لا تفتحيه أبدًا من جديد. لا تحاولي «فطامهما» عن عادة اللعب معك بتخفيض فترة مشاركتك في اللعب خمس دقائق كلّ يوم. إذا فعلتِ ذلك فلن تُكملي المهمّة أبدًا على الأرجح.

وعندما تتأقلم الفتاتان مع هذا التغيير ـ وقد يكون هناك بعض التذمّر وحتى البكاء لمدّة أسبوع تقريبًا ـ اعثري على مجال آخَر من عبوديّتك الطويلة وصحِّحي وضعك فيه. وما إن تَمضي شهور قليلة حتى تراك ابنتاك في صورة مختلفة تمامًا كشخص يرمز إلى السلطة والقوة والاحترام.

ففي أمام مرآة طويلة كلّ يوم وكرّري الجملة التالية عشر مرّات على الأقلّ: «أنا **الأمّ**، اسمعا زئيري.»

سؤال: ابنتي وأوّل أطفالي تبلغ من العمر ثلاث سنوات وثمانية أشهر. إنّها حسنة السلوك على وجه العموم باستثناء عادة سيئّة لديها هي الصراخ والهروب منّي عندما نهمّ بمغادرة المتاجر أو المكتبة وأماكن عامّة أخرى. ويبدو أنّ سورات الغضب هذه تنتابها لأنّها لا تريد الذهاب إلى المنزل. إنّها تتملّص من يدي وتركض مبتعدة. وقد ركضتْ إلى الشارع مرّات عدّة قبل أن أتمكّن من اللحاق بها. لقد عاقبتُها بالضرب كما أمرتُها بالبقاء في غرفتها بعد عودتنا إلى المنزل. بل إنّي أريْتُها قطّة دُهِست بعدما جرَتْ إلى الشارع. وعندما أُعاقب ابنتي تأسف لما فعلَته، لكنّها تُكرّر المشهد ذاته في المرة التالية التي نغادر فيها مكانًا عامًّا. وقد قرَّرتُ أخيرًا أنّي لم أعد أستطيع أن أحملها وهي ترفس وتصرخ لآخذها إلى السيارة، فقد أصبحتْ كبيرة جداً على ذلك. وقد دأبتُ على تركها في المنزل بقدر استطاعتي ريثما أقوم بالتسوّق، لكنّي لا أستطيع التخلّي عن أوقات فراغي إلى الأبد. ماذا يسعني أن أفعل للسيطرة على هذا السلوك؟

جواب: قبل أن أُجيب عن سؤالك أشعر بأنّي مُجبَر على أن أوضّح لكِ بكلّ جلاء أنّي لا أوافق على جعل الأطفال الصغار يشاهدون حيوانات منزلية مدهوسة كوسيلة لإخافتهم من الجري إلى الشارع. هذا نوع من الخطوات اليائسة التي يلجأ إليها الأهل عندما يشعرون بالاستياء.

إذا أصبحتْ ابنتك، التي صار عمرها ثلاث سنوات وثمانية أشهر، كبيرة جدًّا كي تحمليها إلى السيارة، فقد يكون من الضروري تقييم احتياجاتها الغذائية. إنّي أُجري منذ بعض الوقت بحثًا موسَّعًا عن الأخطار الصحية التي يُحتمل أن يتعرَّض لها الأطفال من جرّاء تركهم يسمنون في سنّ مبكّرة، ومنها الإصابة المبكرة بمرض سكّري الكبار (النوع الثاني).

وبناءً عليه دعيني أؤكِّد لك أنَّ هذه مشكلات لا يريد أيُّ أب وأمّ مسؤولَين أن يصاب طفل بها، وإذا كانت هذه هي المشكلة حقًّا (وليس كونك امرأة صغيرة البنية قليلة القوّة) فإنِّي أنصحك بإجراء تقييم على يد أخصّائي في تغذية الأطفال.

وفي ما يتعلَّق بسورات الغضب التي تنتاب ابنتك ومحاولاتها الهرب منك، فإنِّي أوصي في حالات كهذه باتّباع أسلوبٍ أُسمِّيه أنا «الجولة الخُلَّبية».

خُذي ابنتك إلى المتجر المفضّل لديها، لا لحاجة مُعيّنة بل لوضع سابقة تأديبية. عندما تصلان إلى المتجر تجوّلا وتفرّجا لفترة ثم اشتري لها شيئًا تريده. وعندما تهمّان بمغادرة المتجر من المهمّ أن لا تحملي أيَّ شيء إطلاقًا إلّا الغرض الذي اشتريته لابنتك. وفي لحظة الرحيل عندما تبدأ بالصراخ والمقاومة تضعين هذا الشيء على الأرض وتتركينه هناك سواء دفعتِ ثمنه أم لا (لا تشتري شيئًا غالي الثمن) ثم تحملينها وتذهبين بها إلى السيارة (في وسعك القيام بذلك!). أجلِسيها في مقعد الأطفال وضَعي لها حزام الأمان واذهبي إلى المنزل حيث تأمرينها بالبقاء في غرفتها بقية النهار ثم تجعلينها تأوي إلى سريرها في ساعة مبكّرة. احرصي على أن تقولي لها إنَّ هذا هو الأسلوب الذي ستطبّقينه من الآن وصاعدًا. وفي اليوم التالي اصطحبيها في جولة خُلّبية أخرى. وعندما تصلان إلى المتجر قولي لها: «أتذكرين يوم أمس؟ إذا صرختِ فسآخذك إلى المنزل وأضعك في غرفتك. وعندما تكونين في غرفتك أستطيع القيام بأعمال كثيرة في المنزل. إذًا اصرخي وحاولي أن تَهْربي إذا أردتِ.» تصرّفي بعدم اكتراث وكأنَّك لا تبالين إذا صرختْ وحاولتْ أن تجري بعيدًا عنك.

حدسي يقول لي إنَّها لن تصرخ، لكنْ إذا فعلت فلا بأس، في أيّ حال ستزول المشكلة بعد ثلاث جولات خُلَّبية إلى خمس. وخلال الأشهر الثلاثة القادمة عليك أن تذكّريها كلَّما ذهبتما إلى متجر بالعاقبة إذا فقدت السيطرة على نفسها.

سؤال: ابننُا البالغ من العمر ثلاث سنوات ونصف سنة يذهب إلى مدرسة روضة صباحية فقط. وقد كان منتسبًا إلى دورة ترفيهية صيفية، وكثيرًا ما ألـمّت به سورات غضب وهيجان أثناء النشاطات الجماعية. وقد عاد إلى مدرسة الروضة

لتوّه وأخبرتني معلّمته اليوم أنّه تسبّب كعادته بشغب كبير. وقالت إنّه أكثرُ أذًى وصخبًا من أن يوضَع في العزل فأخَذَتْه إحدى المعلّمات إلى الخارج وجلست معه لفترة. إنَّه لا يفلت من العقاب على مثل هذا السلوك في المنزل، بل إنّه لا يجرِّب ذلك أصلاً. والآن مع بدء سنة مدرسية جديدة ومزيد من سورات الغضب، أردتُ أن أضع حداً للمشكلة قبل أن تستفحل. عندما وصلنا إلى البيت وضعتُه في العزل (جلس على كرسي في زاوية الغرفة) لمدة ساعة. شرحتُ له أنّه معُاقب بسبب شغبه في المدرسة. هل كنتُ محقّة في وضعه في العزل هذه الفترة الطويلة؟ ماذا تقترح عليّ لأُعالج مثل هذه الحالة في المستقبل؟ أنا قلقة من أنَّه قد يُطرَد من الروضة.

جواب: إن كنتِ تتوسّمين الشجاعة في نفسك يمكنك أن تقولي لمعلّمة ابنك إنَّ العزل لفترة قصيرة (ثلاث دقائق إلى خمس) عقوبة مُجْدية لطفل في هذا العمر، لكنْ من المستبعد أن تترك أيّ تأثير على سوء سلوك يرتجّ له حتى مقياس ريختر للزلازل، بما في ذلك نوبات الغضب الشديد. وعقوبة العزل مفيدة عادة مع الأطفال في سنّ بداية المشي، لكنَّها تبدأ في فقدان مفعولها التأديبي في حدود عمر الثلاث سنوات إلى ثلاث سنوات ونصف، لاسيَّما إذا كان الطفل ذا إرادة قوية. كذلك تفيد هذه العقوبة مع الأطفال المهذَّبين أصلاً مهما تكن أعمارهم، خاصّة أنّ أيّ تبعة تأديبية تقريبًا (نظرة حازمة، كلمة توبيخ وما شابه) ستعيد طفلاً حَسَن التهذيب إلى الصراط المستقيم.

إنَّ الجلوس ساعة على كرسي لن يسبّب ضررًا لنفسية طفل في الثالثة من عمره. ولا شك في أنَّ بعض الناس سينكمشون ذعرًا لفكرة إرغام طفل على الجلوس في مقعد لمدّة ساعة، لكنْ صدِّقيني يا سيدتي أنَّ ذلك لن يصيب الطفل بأيّ سوء. تذكَّري أنَّ التبعة لن تترك مفعولاً دائمًا إلّا إذا تركت طبعتها في الذاكرة طويلة الأمد. لهذا السبب احفظوا مبدأ روزموند للذكرى الراسخة: كلّما كانت التبعة أكثر تجذّرًا في الذاكرة كلّما كانت الرسالة التأديبية أكثر قوة (الأطفال في سنّ بداية المشي لا يمتلكون قدرة التذكّر على المدى الطويل، ولهذا السبب كثيرًا ما يقول والدو أطفال دون سنّ الثلاث سنوات إنّ «لا شيء ينفع»).

أنا أنصح بأن تشكّلي مع معلّمات ابنك فريقًا مزدوجًا للتعامل مع ابنك عندما يجتاحه الغضب في الصفّ. وعلى معلّماته الامتناع عن محاولة تهدئته. وحالما تبدأ سورة هيجانه يجب أن يُخرِجنَه من الصفّ ببساطة وأن يتّصلن بك، وعليكِ أنتِ أن تذهبي إلى المدرسة بأسرع ما يمكن لكي تأخذيه. اذهبي به إلى المنزل وأبقيه في غرفته بقية النهار وأرسليه إلى سريره بعد العشاء مباشرة. وقبل أن تباشري برنامج إعادة التأهيل هذا قد يكون من المفيد أن تفكّري في تنفيذ عملية «تعقيم» خفيفة في غرفة ابنك: خذي ألعابه المفضّلة بلا تمهيد وخزّنيها في مكان آخَر.

إنَّ الحجز لفترة طويلة في غرفة مملّة نسبيًّا سيترك في الذاكرة طويلة الأمد انطباعًا أقوى بكثير من الجلوس ساعة على كرسي. ومهما يكن، تذكّري مقولة «الثالثة ثابتة». أنا لا أقول إنَّ استخدام التبعات ثلاث مرّات يجب أن يكفي لحلّ المشكلة بل إنَّ معظم التبعات لن تؤدّي مفعولها إلّا إذا استُخدمت ثلاث مرّات على الأقلّ. لِنَقُل الشيء ذاته بعبارات أخرى: لن تنجح أيّ تبعة مهما انطبعت في الذاكرة إلّا إذا اجتهدتِ في استخدامها.

سؤال: أنا أمّ وحيدة لا أعمل خارج المنزل ولَدَيّ ابن في الثالثة من عمره يتّسم بالعناد والتحدّي ولا يستجيب لجهودي في تأديبه. أضربه وأعزله وأحرمه من امتيازاته لكنْ دون جدوى. إنّه يضرب الأطفال الآخرين ويرفض إطاعتي ويهرب منّي عندما نكون في المتاجر وتلمّ به سورات غضب وهياج عندما لا يحصل على ما يريد، وهذا غيض من فيض. آخذه إلى الحمام وأضربه أو نلغي موعد اللعب، لكنّنا نواجِه المشكلة ذاتها في المرّة التالية.

يعتقد جدّه وجدّته وأصدقائي أنّ سلوكه رائع، لكنْ عندما لا أكون أنا موجودة. لا أستطيع إدراك سبب هذه المشكلة وأخالني أضرب رأسي بالحائط. ساعدني!!

جواب: باديء ذي بدء أقول لك إنّ محاولة إدراك سبب هذه المشكلات السلوكية ستشلّ قدرتك على التأديب بفاعلية. علاوة على ذلك، إذا كان لا بدّ لك من

معرفة السبب فهو أنّ ابنك مصمّم على تنفيذ إرادته دائمًا، شأنه في ذلك شأن أطفال كثيرين (وراشدين أيضًا). الآن وبعد أن قلناها، لنرَ ما نستطيع عمله بشأن هذا الوضع المزعج إلى أبعد حدّ.

من البديهي أنّك تشاركين معظم الآباء والأمهات إيمانهم بأنّ القصاص هو جوهر التأديب. الواقع ليس كذلك، إنّ التأديب الفعّال وظيفة تؤدِّيها القيادة الفعّالة وجوهر القيادة هو التواصل الصحيح. القادة لا يخلقون تلاميذ وأناسًا يتبعون قيادتهم عن طريق معاقبتهم. القادة يخلقون تلاميذ من خلال الخطاب الفعّال. ويتميّز الخطاب القيادي في حالات التوجيه والتعليم بالإيجاز والدقّة (مُختصر ومفيد) ولا يترك شيئًا للمخيّلة (لا عبارات مُقَلْقَلة) ولا يقترن بشروح مطوّلة.

على وجه العموم لا يعطي والدو اليوم تعليمات لأطفالهم بصورة صحيحة. وإنهاءُ تعليمة بكلمة «أوكي؟» هو مجرّد مثال واحد على ذلك. مثال آخَر هو إعطاء تفسيرات طويلة متداخلة (للتبرير). وفي معظم الحالات يخلق التفسير، خاصّة لدى الأطفال الصغار، انطباعًا بأنّ الوالد (الوالدة) يحاول إقناع الطفل بدل أنْ يتوقّع منه الإطاعة. بناء على ذلك أقترح عليك أولاً أن تدرّبي نفسك على التخاطب بشكل صحيح مع ثائرك الصغير. مثال: بدل أن تقولي له: «ما رأيك في مساعدتي على لمّ هذه الألعاب، أوكي؟» قولي له: «أريدك أن تلمّ هذه الألعاب الآن. فورًا.» ولكي لا تتيحي للطفل فرصة وجود شخص يحتجّ لديه، ابتعدي عنه فورًا. هل يضمن هذا الأسلوب أن يطيعك طفلك؟ بالطبع لا، لكنّه يزيد الاحتمال بنسبة كبيرة.

المشكلة الثانية الأكثر شيوعًا في الرعاية الوالدية هذه الأيام هي العجز البادي لدى والدين كثيرين عن قول «لا» والثبات عليها في مواجهة الإعصار العاطفي الذي قد يليها، لاسيّما مع طفل صغير. والأرجح أن تضطرّي إلى إرغام نفسك على تجاهل سورات غضب ابنك وأن تردّدي في نفسك: «لا تستسلمي أبدًا، لا ترضخي أبدًا». هناك استراتيجية أخرى ثبتَت لي فائدتها في معالجة سورات الغضب هي تحديد «مكان للغضب» يُرسَل إليه الطفل من قِبَل والديه كلّما انتابَتْه السورة. وعندما كانت ابنتنا في مثل عمر ابنك استحقّت لقب بطولة العالم في سورات الغضب والصريخ.

وكلَّما جاءتها نوبة كنّا نأخذها إلى حمّام الطابق السفلي (وقد عرَّفناه كمكانها الخاصّ والحصري للغضب والصياح) ونقول لها إنَّ في وسعها الخروج عندما تنتهي. لم يقضِ هذا الإجراء على غضبها قضاء كاملاً، لكنَّه سلبها قوّتها بالكامل.

ختامًا، بما أنَّ والديك وأصدقاءك لا يعانون من مشكلات مع ابنك أقترح عليه أن تسأليهم عن رأيهم في المشكلات التي تعانين منها أنتِ. اسأليهم ما هو الخطأ الذي ترتكبينه من وجهة نظرهم. الأرجح أنَّهم يعرفون. اطلبي النصح منهم لتتعلَّمي كيفية التعاطي مع مشكلة ابنك. باختصار، اطلبي منهم أن يكونوا مرشدين لك. والأرجح أنَّهم سيرحِّبون بفرصة كهذه لتقديم المساعدة.

أنا أعتقد في الواقع أنَّ الأجداد (والجدّات) والآباء والأمّهات الآخرين (ذوي الأطفال المهذَّبين على الأقلّ) أقدرُ على تقديم نُصْح سديد من أعظم عشرة أخصّائيين عالميِّين في عِلْم نفس الأطفال.

سؤال: سيبلغ ابننا سنته الرابعة قريبًا، وهو يمرّ منذ فترة بتبدُّلٍ لشخصيتّه. وقد تحوّلت نفسيتّه المرحة المشرقة إلى مزاج عَكِر ولا أعرف كيف أُعيدُ الأمر إلى سابق عهده. لقد سئمتُ التغاضي عن تعليقاته السخيفة ونظراته الغاضبة وعصيانه المتعمَّد. أرجو المساعدة!

جواب: تستطيعين أن تقضي تمامًا على هذا السلوك باستخدام أسلوبي الخاصّ ذي البطاقات الثلاث الفريد من نوعه والمشهور عالميًّا، وهو مضمون النجاح وسهل التطبيق.

اصنعي لائحة رسوم (ألصِقي قصاصات صُوَر إذا كانت موهبتك الفنية محدودة) تمثّل أفدح ثلاثة تصرّفات يشملها سوء سلوك ابنك (أو خمسة، لا أكثر!). من الممكن بل من الأفضل أن تشمل لائحتك عروضًا تصويرية لقوله «كلا» عندما تأمرينه بعمل ما ولتحديقه فيك بغضب ووصفك «برأس القرد» أو أي نوع آخَر من الرؤوس التي تخطر على باله. ثبِّتي هذه اللائحة على البرّاد. بعد ذلك اقطعي ثلاث بطاقات من الورق الملوّن وعلِّقيها على البرّاد أيضًا بواسطة ملقط مُمغنَط.

اختاري الآن مكانًا مناسبًا للعزل تضعين فيه كرسيًّا، مثلاً غرفة الطعام أو حمّام الطابق السفلي، أي في موضع آمن ومنعزل ومُمِلّ، أجل مملّ وهذا هو العنصر الأهمّ. اشتري ساعة مطبخ للتنبيه وضعيها قريبًا من مكان العزل.

يبدأ ابنك يومه بثلاث بطاقات معلّقة بملقط، وكلّما ارتكب تصرّفًا مسيئًا من النوع المعروض في لائحة الرسوم تقولين له: «التحديق فيَّ بِحَنَق مثلاً هو إحدى صورك. سيكلّفك ذلك بطاقة (مخالفة) وخمس دقائق في العزل.» اسحبي إحدى البطاقات الثلاث وضعيه في العزل واضبطي الوقت. وعندما يرنّ المنبّه يستطيع ابنك النهوض. وعند خسارته البطاقة الثالثة لذلك اليوم يذهب إلى غرفته حيث يظلّ بقية النهار ويذهب إلى سريره قبل ساعة واحدة على الأقلّ من الموعد العادي (هذا الحجز ليس كثيرًا بأي شكل من الأشكال على طفل في الرابعة من عمره). ويستطيع الخروج من الغرفة للذهاب إلى الحمّام وتناول وجبات الطعام مع الأُسرة (إذا أحسن التصرُّف) والخروج معك إذا احتَجتِ إلى الذهاب إلى مكان ما. لكنّه يظلّ في غرفته ما دام في المنزل.

إنّ العُنصر الأهمّ في هذه الوصفة هو الثبات. لن ينجح هذا الأسلوب إلّا إذا نفّذْتِه ببرودة أعصاب. وإذا بدأتِ تذكّرين ابنك وتهدّدينه وتنذرينه وتعطينه فرصًا ثانية فيجدر بك أن تمزّقي اللوحة والرسوم وأن ترمي المنبّه في القمامة وأن تستسلمي لمصيرك بتمضية السنوات الأربع عشرة القادمة مع طفل مشاكس قليل الأدب.

سؤال: أنا أعتني بصبيّ في الرابعة من عمره تقريبًا، والداه يعملان. وقد تطوَّرَتْ لديه عادة الشتم عندما يستاء لأسباب يعجز والداه عن تفسيرها. إنّه لا يقول كلامًا بذيئًا حتى الآن، لكنّه يصيح بعبارات من نوع «اللعنة» و«إلى جهنّم» عندما لا يعجبه أمر ما. يقول والداه إنّهما تحدّثا إليه بشأن الكلام الذي يتلفّظ به، لكنّ الوضع يزداد سوءًا. لقد سمحا لي بمعاقبته، لكنّي لست متأكّدة من السبيل الأفضل إلى ذلك. ماذا تقترح عليّ؟

جواب: الطفل، كما تعرفين بالتأكيد، لا يلتقط هذه المفردات من فراغ. إنَّه يقلّد شخصًا راشدًا أو طفلاً أكبر سنًّا أو شخصية في برنامج تلفزيوني يُسمح له بمشاهدته. وإذا لم يكن التأثير السيِّئ كامنًا في منزلك (ولا أخالك تسألينني إن كان الأمر كذلك) فالسبب يكون أمرًا يستطيع والداه التعرُّفَ إليه وإزالتَه. أنا لا أعتقد أنَّهما صادقان تمامًا معك، ما يعني أنّ كلّ جهد تبذلينه لضبط لسانه في منزلك سيضيع هباء عندما لا يكون هذا الصغير في رعايتك. ربّما تستطيعين أن تقترحي على والديه أن يبذلا جهدًا إضافيًّا شاملاً لاكتشاف مصدر هذه المفردات واستئصاله، من دون التلميح إلى أنَّهما قد يكونان هذا المصدر.

في الأيام التي يكون فيها هذا الطفل في رعايتك أنصحك بنوع آخَر من تقنية «البطاقات» التي استنبطتُها، وهي في الواقع تعديل لنظام قديم تستخدمه الفِرَق الكشفية لاحتساب مخالفات الكشّافين. ثبّتي ثلاث بطاقات مستطيلة الشكل من الورق الملوّن على البرّاد بواسطة ملقط مُمَغنَط. عندما يشتم الطفل لأوّل مرّة في أيّ يوم تختارينه يخسر بطاقة وعليه الجلوس في منطقة العزل مدّة عشر دقائق. في المرة التالية يخسر بطاقة ثانية ويبقى في العزل عشرين دقيقة. وإذا تكرَّر الأمر مرة أخرى يخسر البطاقة الثالثة والأخيرة وتصبح فترة جلوسه في العزل ثلاثين دقيقة.

لكنَّ هذا ليس كلّ شيء. إنَّ كل بطاقة يخسرها تعني فقدان امتياز ما في المنزل، أي حرمانه من أمر كان يتطلَّع إلى القيام به في العصر أو في ساعة مبكّرة من المساء. وعندما يخسر البطاقة الأولى قد يُحرم من اللعب في الخارج عند عودته إلى المنزل. وقد تمثّل خسارة البطاقة الثانية عدم مشاهدة التلفزيون والبطاقة الثالثة تسبيق موعده العادي للذهاب إلى الفراش. وإذا خسر البطاقات الثلاث كلّها في منزلك (وهو ما يُرجَّح أن يفعله خلال أيام عدّة على الأقل) يُمنع عند عودته إلى منزله من اللعب في الخارج أو مشاهدة التلفزيون ويُرسَل إلى فراشه قبل ساعة على الأقلّ من الموعد. إنَّ مزيج العقوبات في منزلك (فترات متزايدة من العزل) وما يقابله في منزله يبني جسرًا من التواصل والتبعات بين البيئتين. وإذا نفّذتُم أنتِ ووالداه هذا النظام كما ينبغي، أي بثبات وبأعصاب باردة، فإنِّي أتوقَّع أن يتعلَّم الطفل بسرعة السيطرة على إساءاته اللفظية.

غير أنَّ حلّ المشكلة بصورة فعلية يتطلّب قيام الوالدَين بالتعرّف إلى مصدر التأثير السيِّئ الذي سبّب هذا السلوك، ومن ثم استبعاده.

سؤال: لقد كانت ابنتنا التي تقترب من عامها التاسع، طفلة رائعة من كلّ ناحية تقريبًا. غير أنّا نشهد في الآونة الأخيرة أحداثًا صغيرة تكذب فيها علينا. يوم أمس مثلاً سألتُها: «هل تمضغين لبانًا؟» فأنكرت بالرغم من أنّ الأمر كان باديًا للعيان. دخلنا في أخذ وردّ عدّة مرّات إلى أن اعترفتْ في آخر المطاف وأخرجت اللبان من فمها. ويبدو أنّ منحى الكذب لديها يزداد سوءًا ونحن نشعر بالقلق إزاءه. لماذا تفعل ذلك وهل من طريقة لاستئصال هذه العادة وهي ما تزال في مهدها؟

جواب: ابنتكما تكذب عليكما لأنَّكِ تسألينها عندما تعرفين الردّ بالفعل، في هذه الحالة الشبيهة بلعبة القط والفأر يتولى الفأر دائمًا وضع قواعد اللعبة. إنّها (أي ابنتك) تسرق الجبنة (الحقيقة) ثم تغيظك بها فتبدأين في مطاردتها في أنحاء المنزل. وبالرغم من أنَّك تقبضين عليها في نهاية الأمر وتأخذين الجبنة منها تظلّ اللعبة مثيرة لها فتُدمنها مثلما يدمن الناس أنواع المَيْسر.

طريقة استئصال هذه العادة هي تطبيق القول المأثور «لا تسألوهم كي لا يكذبوا عليكم». وعوضًا عن توجيه سؤال تعرفين جوابه أعلني موقفك بوضوح وأتْبِعيه بتعليمات تنمّ عن سلطتك. وبالعودة إلى المثال الذي أعطيتِه، لا تسألي ابنتَك ما إذا كانت تمضغ لبانًا بل قولي لها: «إنَّك تمضغين لبانًا. تخلَّصي منه.» بهذا الأسلوب التوضيحي الآمر تحتفظين بالسيطرة الدائمة على الجبنة فتُحبِطين اللعبة بحركة استباقية وتمنعين الإدمان المسيء الذي لا بدّ وأنْ يليها.

سؤال: ينتظر ابني البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة حتى اللحظة الأخيرة الممكنة ليبدأ العمل على فروضه المدرسية. لم يَعُدْ لديه موعد محدّد للذهاب إلى سريره، لكنّ عليه أن يكون في غرفة نومه بعد الساعة التاسعة مساء. لا يبالي بكمية الفروض المدرسية المترتّبة عليه أو حتى بما إذا كان لديه امتحان في اليوم

التالي، فهو لا يفتح كتاباً إلى أن يستقرّ في غرفته. ولقد انبرى لساني لكثرة ما كلَّمْته عن أهمية أخذ علامات عالية في المدرسة. قلت له إنَّه ليس من الممكن ببساطة أن يقدمّ أفضل ما لديه إذا كان يتمّم فروضه المدرسية وهو متُعَب. لكنّه يقول إنّ علاماته جيّدة بما يكفي (معظم علاماته تتراوح بين «جيّد» و«جيّد جداً»، ويحصل بين الحين والآخر على علامة ممتاز) وعليّ أن أتركه يتّخذ هذا القرار بنفسه. أكاد أُصاب بالجنون من جرّاء هذا الوضع! ماذا أستطيع أن أفعل لأجعله يعمل على فروضه المدرسية في توقيت معقول؟

جواب: لا شيء كما يبدو. وأنا لا أستطيع أن أحلّ لك هذه المشكلة. كلا، أرفض أن أحلّ لك هذه المشكلة. أنا موافق على رأي ابنك. يجب أن يُسمَح له باتّخاذ هذا القرار بنفسه. لذلك أنصحك بأن تريحي نفسك وتتخلّي عن هذا الموضوع إلى الأبد. ومن البديهي أنَّك تسبّبين لنفسك الكثير من الأسى الذي لا داعي له وتتصرَّفين في هذا السياق كمصدر إزعاج مشهود له.

لقد سبق لي أن ذكرتُ في كتابي «تحصين المراهقين» أنّ الخطأ الأكبر والأعمّ الذي يرتكبه الوالدون المسؤولون طيّبو النيّة لأولاد مراهقين هو محاولة الإشراف على أصغر شؤونهم وأدقّ تفاصيلها. من واجبك أن تُوجّهي أصغر الأمور المتعلِّقة برضيع أو طفل يتعلّم المشي وتُشرفي عليها، وقد تتمكَّنين من ذلك أيضًا مع طفل في سنّ ما قبل المدرسة أو في سنّ المدرسة (مع أنَّني لا أنصح بذلك). لكنَّك لا تستطيعين إدارة التفاصيل الصغيرة لشؤون مراهق من دون خلق مشكلات أكثر من التي تحلِّينها. بل إنِّي سأمضي خطوة أبعد من ذلك. فقول إنَّ محاولةً كهذه مع مراهق لا تحلّ أيَّة مشكلات على الإطلاق والأرجح أنَّها تخلق فيضًا منها بالمقابل.

وينتمي قلقك المَرَضي إزاء موعد قيام ابنك بواجباته المدرسية إلى هذه الفئة الخطرة. هل تظنِّين فعلاً أنَّه سينال علامات أفضل إذا أتمّ فروضه المدرسية في الساعة التي تريدينها أنت؟ وإن تمكَّنتِ من إرغامه على إتمام فروضه المدرسية تحت إشرافك الصارم في فترة بعد الظهر أو أوائل المساء أُرجِّح أنَّه سيتسرّع في إنجاز عمله وستنخفض علاماته نتيجة لذلك. لماذا؟ لأنَّك أعطيته مسبِّبًا وجيهًا ليُثبِت أنَّك مخطئة.

عوضًا عن محاولتك إقناع ابنك بإتمام فروضه المدرسية في الوقت الذي ترينه مناسبًا، اسمحي له بأنْ يتعلَّم ـ حتى بالطريقة الصعبة إذا اقتضى الأمر ـ كيف يتصرَّف. وظيفتك ليست التصرُّف بوقته نيابة عنه بل أن تشرحي له أنّ الخيارات تُنتج تبعات. الخيارات الجيِّدة تُنتِج تبعات جيدة (علامات أفضل، حرّيّة أكبر) والخيارات السيِّئة تُنتج تبعات بغيضة (علامات سيئة، حرّيّة مقيَّدة). ولا توجد مشكلة في علاماته في الوقت الحاضر، لكنَّ ذلك قد يتغيَّر عندما يرتاد المدرسة الثانوية وتزداد المتطلِّبات الأكاديمية، ما يعطيك الفرصة لتكوني وكيلة الحقيقة وأداتها. وحتّى ذلك الحين أنزلي هذا الحِمْل عن كتفيك واعثري على متنفَّس أكثر جدوى لكلّ هذه الطاقة العامرة بالنوايا الطيِّبة.

سؤال: تكاد ابنتي البالغة من العمر أربع عشرة سنة أن توصلني إلى حافة الجنون! فهي تبدأ المشاحنة كلّما رفضتُ السماح لها بفعل أمر ما أو امتنعتُ عن إعطائها شيئًا ترغب فيه. تريد دائمًا أن تكون لها الكلمة الأخيرة. أشرح لها وأعيد الشرح ثمّ أشرح من جديد، بل إنِّي أحاول الوصول إلى حلول وسط معها. لكنّ ذلك لا يعجبها أيضًا. ولا يُسكِتها إلا رضوخي لرغباتها، هل هناك حلّ سوى إرسالها إلى مدرسة داخلية في السنوات الأربع القادمة؟

جواب: نعم، لكنْ قبل أن تحلّي هذه المشكلة عليك أن تخرجي من شرنقة الإنكار التي تختبئين فيها وتعترفي بأنَّك أنتِ، لا ابنتك، مَن خلق هذا الوضع المزري. العامل المحرِّك لهذه المشاحنات ليس هرموناتها أو عمرها أو عنادًا وُلِد معها أو قوّة إرادة لديها. العامل المحرِّك هو رغبتك النابعة من حُسن نيّتك في شرح قراراتك لها. وبعملكِ هذا تُشْرعين باب الجدال على مصراعيه فتهجم هي عبره قبل أن تتمكَّني من إغلاقه، ثم تلومينها على انتهاز الفرصة التي أتحتِها أنت.

إنَّ وضع حدّ لهذه المشاهد عديمة الفائدة يقتضي أن تعطي ابنتك الكلمة الأخيرة. نعم، هذا صحيح! فأنت لا تستطيعين أن تكوني صاحبة الكلمة الأخيرة إلّا مع شخص مستعدّ للتفكير عقلانيًّا في وجهة نظرك. وبما أنَّ ابنتك (كطفل) لا يمكنها أن تبدأ في فهم وجهة نظرك (كراشدة) لن تستطيعي نيْل الكلمة الأخيرة في أيّ نزاع

معها. إضافة إلى ذلك، هل وافقتْ ابنتك مرّة على شرحٍ واحد من شروحك؟ كلا، وهي لن تفعل ذلك أبدًا. حقيقة: إذا لـم يَرُقْ لطفل قرارٌ يتّخذه أحد والديه فلن يروق له شرحٌ يقدِّمه هذا الوالد.

بناءً على ذلك خذي بنصيحة الـمهاتـما غاندي في كتابه الشهير الـمفقود «الرعاية الوالدية بأسلوب الـمقاومة الأقلّ» (Parenting by The Path of Least Resistance) وأعطي ابنتك الكلـمة الأخيرة دائمًا. هذه هي الوصفة، خطوة فخطوة:

الـخطوة الأولـى: عندما لا يروق لطفلتك قرار اتّخذتِه وتطلب تفسيرًا، أعطيها تفسيرًا لا يحتاج قوله إلـى أكثر من عشر كلـمات، مثل: «لا أظنّ أنَّك كبيرة بـما يكفي لتفعلي ذلك.»

الـخطوة الثانية: عندما تسخر أو تصيح أو تتـحدَّى أو تفعل أيّ شيء لتُظهِر رفضها لتفسيرك، مثل قولها: «هذا أغبى تبرير سمعتُه في حياتي»، وافقي على كلامها ببساطة، قولـي لها: «طبعًا. لو كنتُ في مثل عمرك لفكّرت بـمثل تفكيرك. نعم أذكر أنّني كنت أفكّر بالطريقة ذاتها عندما كانت أمّي تعطيني تفسيرات من هذا النوع. أنتِ وأنا متشابهتان جدًّا يا ابنتي الـحبيبة.»

الـخطوة الثالثة: بعد الـخطوة الأولـى أو الـخطوة الثانية مباشرة سيري مبتعدة عنها. أنا أسمّي هذه الـخطوة «قطع التيّار عن صراع القوة». تغادرين الـمشهد ببساطة وتتركين ابنتك تتعرَّق في غيظها.

الـخطوة الرابعة: إذا لَحِقَتْك وأرادتْ أن تساوم فقولـي لها فقط: «آه، نعم. كنتُ أودّ أنا أيضًا أن أدخل في مساومة مع أمّي، لكنْ لـم يكن من طباع الـماما أن تغيِّر رأيها أيضًا. أمي وأنا متشابهتان جدًّا. مثلك ومثلي تـمامًا.»

بعد ذلك كرّري الـخطوة الثالثة.

إنَّ هذا الأسلوب يغيظ الأطفال إلـى حدّ الـجنون، لكنّ ذلك يظلّ حتـمًا أفضل من السماح لهم بإغاظتك إلـى حدّ الجنون.

سؤال: غرفة ابننا البالغ من العمر ستّة عشر عامًا غالبًا ما تكون أسوأ من زريبة دوابّ. ثيابه وأقراصه المضغوطة وأجهزته الإلكترونية ومجلاته وحاجياته الشخصية المتعدّدة الأخرى مبعثرة في كل مكان. إذا كان سريره مرتّبًا فالسبب هو أنّني رتّبته. وإذا وُضّبت ثيابه أكون أنا مَن وضّبها. وعندما أتذمّر يردّ بقوله: «إنّها غرفتي وأستطيع أن أفعل بها ما أشاء.» كذلك يشير إلى أنّ غرفته مُغلقة دائمًا تقريبًا ـ وهذا صحيح ـ لكنّ توقّفه عن التصرّف كفرد من العائلة هو مشكلة أخرى. وإذا لم يكن مستغرقًا في ألعابه الفنتازية الكومبيوترية، يكون على الهاتف مع أصدقائه. أرجوك ساعدني.

جواب: هذا الكلام عن «إنّها غرفتي...» هو هراء فارغ وفاجر وسخيف. الغرفة التي يشغلها ليست له بأيّ عُرْف أو قياس. إنّها ملكك أنت وهي من مسؤوليتك وذلك ثابت من كونك تدفعين حصّة تلك لغرفة من قسط المنزل والتأمين والكهرباء والماء والضرائب. ولو جاءتك زائرة ودخلتْ غرفته وتعثّرت فوقعت وآذت نفسها ستتحمّلين أنت المسؤولية، لا ابنك الغافل المغرور الغارق في أنانيته إلى أُذُنيه ولَمّا يتجاوز عامه السادس عشر.

إنّ الكرسي الذي يجلس عليه لتناول وجبات الطعام ليس مُلْكًا له يفعل به ما يريد. أليس كذلك؟ إنّه ليس حرًّا في تحطيم الكرسي للتعبير عن غضبه على جَوْر النظام الرأسمالي الذي يسمح له بالعيش في أحضان الرفاهية. هل هو حرّ في ذلك؟ سأستعير عبارة من الكلام الدارج على لسان جيله الفصيح فأقول: «لا وألف لا.» وفي وسعي أن أسرد عليك أمثلة عديدة أخرى، لكنّي واثق من أنّك فهمتِ قصدي.

ليست لابنك امتيازات يطالب بها بل عليه واجبات. ويستطيع أن يباشر الالتزام بواجباته بإبقاء غرفته على المستوى ذاته من النظافة والترتيب الذي تطبّقينه في منزلك. وسِيّان إنْ قَبِلَ أم لا.

الأرجح أنّك تقولين الآن: «لكنْ يا جون، لقد جرّبتُ كل شيء لجعله يحافظ على نظافة غرفته وترتيبها، لكن دون جدوى.»

من الواضح أنَّك لم توجِّهي إليه تحذيرًا صارمًا لا لبس في معناه وأنَّك لم تبلغيه بأية إجراءات عقابية، ولو فعلتِ لما كتبتِ إليّ عن المشكلة لأنَّها كانت ستصبح جزءًا من تاريخ العائلة.

التحذير الصارم: «لن نتغاضى بعد الآن عن الفوضى السائدة في الغرفة التي نسمح لك باستعمالها. من الآن وصاعدًا سترتِّب سريرك كلّ صباح وتضع ثيابك في الأمكنة المخصَّصة لها وستلمّ أغراضك عن الأرض وتحافظ على النظام في هذه البيئة. إذا تعاونتَ في هذا الأمر فسوف نتجاوب معك بمواصلةِ إعالتك بالطريقة التي اعتدتَها. وإذا رفضتَ التعاون فسوف تتوقّف فورًا كل الامتيازات والكماليات.»

الإجراءات الرادعة: «لِنكنْ دقيقَين. ابتداءً من الآن وفي أوّل مرّة نجد فوضى من أيّ نوع في غرفتك سنسحب وصلة الإنترنت لحاسوبك وسنعلِّق لمدّة أسبوع على الأقلّ الإذن الممنوح لك بقيادة السيارة. ولاستعادة هذا الإذن/المنحة، عليك أن تُبقي غرفتك نظيفة ومُنظَّمة وأن توضّب ثيابك كما يجب وأن ترتِّب سريرك كل صباح لمدّة سبعة أيام متتالية. وستؤدِّي المخالفة التالية إلى التبعات ذاتها، لكنّ إرجاع امتيازاتك سيتطلَّب التزامك بشروطنا لمدّة أسبوعين. وكلّ مخالفة بعد ذلك ستتطلّب التزامك لمدة شهر. هل من أسئلة؟»

إنَّ الجمع بين تقديم التحذير الصارم وإعلان الإجراءات العقابية الرادعة (التي توصَفُ أيضًا بإنزال عارضة الحاجز) هو بمثابة جرس إنذار أخير. ولا تُخطِئي التقدير في هذا الموضوع لأنَّكِ ستضطرِّين بالتأكيد إلى تطبيق إجراءاتك الرادعة مرّتين على الأقلّ قبل أن يستفيق صاحب الجلالة ابنك من غفلته ويدرك حقيقة ما يجري.

وهذا مثال على ما أُسمِّيه «مبدأ العرّاب» وفحواه: إذا أردنا حفز أطفال متمرِّدين فعلينا أن نقدِّم إليهم عروضًا لا يستطيعون رفضها، ونحن مدينون بهذا المبدأ لِـ «فيلسوف» من جزيرة صقلية رحل عن هذه الدنيا كان اسمه دون كورليون*.

(*) دون كورليون زعيم مافيا في الولايات المتحدة حسب رواية الكاتب ماريو يوزو «العرّاب» (The Godfather). جسّد الممثّل الراحل مارلون براندو هذه الشخصية في الفيلم الذي حمل الاسم ذاته. كان كورليون يبتزّ الناس عبر «عروض لا يستطيعون رفضها».

سؤال: عاد ابننا البالغ من العمر تسعة عشر عاماً من جامعته لتمضية عطلة الصيف معنا في المنزل، وكثيراً ما يخرج مع أصدقائه ويتناول مشروبات ثم يقرّر بعد ذلك أن يقود السيّارة عائداً إلى المنزل. ولقد تكلّمنا معه عن اختيار سائق نُعيِّنه ليقود السيارة بدلاً منه أو عن بقائه حيث هو إلى أن يصحو من تأثير المشروب أو الاتصال بنا كي نأتي للعودة به إلى المنزل. لكنَّه يقول إنَّه لا يشرب ما يكفي لإضعاف قدرته على القيادة، إلا أنَّنا لا نشاركه هذا الرأي. ماذا نستطيع أن نفعل؟

جواب: أوه، هذا واحد من أسهل الأسئلة التي طُرحت عليّ حتى الآن من قِبَل أبٍ أو أم! إنِّي أفترض أنَّ هذا الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عامًا يقود السيّارة ببوليصة التأمين العائدة لكما. وبناءً على ذلك ربّما خَطَر لكما أنَّكما ستكونان عرضة للمساءلة القانونية إذا أوقفته الشرطة وهو يقود تحت تأثير الكحول (جهاز تحليل النَّفَس غير معنيّ بما إذا كان ابنكما يظنّ أنَّه قادر على القيادة أم لا)، أو إذا وقع ما هو أسوأ كأنْ يتسبَّب بحادث، لن يُلاحَق هو قضائيًّا. ستُقام الدعوى على شركة التأمين التي تتعاملان معها. وإذا لم تكن تغطيتكما التأمينية كافية فستُلاحقان أنتما أيضًا في المحاكم. وفي أي حال يُرجَّح أن تتخلّى شركة التأمين عنكما بلا تردّد. وليس من المبالغة القول إنَّ العثور على تأمين جديد سيكون باهظ الكلفة.

من الواضح أنَّ ابنكما ذكيّ، لكنَّه ما زال واقعًا في قبضة وَهْم اللاغلبة لدى المراهقين. وكأيّ مراهق عادي يظنّ ابنكما أنَّه محصَّنٌ من الكوارث، عصيٌّ على الأذى، أمتنُ مِنْ أن يُدمَّر، خالدُ البقاء وغيرُ مرئيّ. لذلك لن يحقّق الحديث معه أيّ شيء إلا تورّم عضلات وجهيكما لكثرة الكلام. لن تتمكّنا من إقناع ابنكما بأنَّ تصرفه غير عقلاني لأنَّه يظنّ أنَّ قلقكما هو انعكاس لرغبةٍ والديّة حِمائية كامنة مفرِطة. لن تستطيعا إفهامه أنَّ سلوكه ينطوي على خطر كبير لأنَّه يظنّ فقط أنَّكما تتصرَّفان وفقًا لِما يعتبره هو طباعكما الهستيرية المعهودة. كذلك لا بدّ وأن تكونا قد انتبهتما إلى أنَّكما لا تستطيعان الوثوق فيه حاليًّا. وإذا حُشِر في الزاوية فمن المرجَّح أن يقول لكما أيّ شيء لجعلكما تتراجعان. لذلك توقّفا عن الكلام وافعلا شيئًا. وتجدان في ما يلي خيارات تستطيعان اللجوء إليها:

1 ـ اسحبا اسم ابنكما من بوليصة التأمين الـخاصة بكما وأبلغاه أنَّ عليه تسديد كلفة بوليصة خاصة به. وهناك حقيقة بسيطة فحواها أنَّ الطفل (والواضح أنّ ابنكما ما زال طفلاً) يـميل إلـى الاعتناء أكثر بالأشياء التي كدَّ من أجل الـحصول عليها. ألا يقوم بعمل مدفوع الأجر؟ حظّه سيِّئ. ربـما عليه أن يعيد تقييم أولوياته.

2 ـ إذا كانت السيارة التي يقودها مُلْكًا لكما، فبيعاها. لا تناقشا الأمر معه أو تُنبِّهاه سلفًا. بيعا السيارة فحسب.

3 ـ حرِّرا ابنكما تـمامًا، ما يعني أنَّكما تنفِّذان الـخيار الأوّل أيضًا.

4 ـ عندما يـخرج ابنكما مع أصحابه في الـمرّة القادمة استدعيا شرطيًّا لانتظاره في البيت عند عودته، في وسع الشرطي أن يُجري له اختبار تـحليل النَّفَس. وإذا كانت نتيجة الاختبار إيجابية يستطيع الشرطي اعتقاله للقيادة تـحت تأثير الكحول. وعندما يسألكما لـماذا فعلتـما ذلك قولا له إنَّكما لن تدعما وتشجّعا سلوكًا إجراميًّا خطرًا. نقطة على السطر.

5 ـ إنْ لـم يَرُقْ لكما أيٌّ من هذه الاقتراحات، أيْ إذا كنتـما عاجزَين عن إرغام نفسيكما على بذل حبّ قوي، أغمضا عيونكما وأَكْثِرا من الدعاء له.

سؤال: لديّ ابنان في السابعة والرابعة من العمر، وعندما يأتي أطفال في العمر ذاته من أقربائهما ينزل الـجميع إلـى الطابق السفلي للّعب وفي كلّ مرة من دون استثناء وبعد ثلاثين دقيقة يصعد ابني الصغير إلـى أعلى وهو يبكي لأنّ أخاه الكبير يسيء معاملته ويحرمه من الـمشاركة في اللعب ويحرّض الأطفال الآخرين على التكتّل ضدّه. وأرى نفسي مضطرّة للنزول إلـى الطابق السفلي كلّ نصف ساعة لوضع حدّ لواحد من هذه النزاعات. ما أريده هو إيجاد حلّ حاسم ونهائي لهذه الـمشكلة، ماذا تقترح عليّ؟

جواب: أنتِ مـحقّة تـمامًا. إنَّ وضع حدّ لواحد من هذه النزاعات لا يحلّ الـمشكلة. والواقع الذي اكتشفتِه بنفسِك هو أنَّ وضع حدّ لـ 1.358.495 نزاعًا من هذا النوع لن يحلّ هذه الـمشكلة، واستعدادك للقيام بدور الوسيط يزيد الطين بلّة. ومن

دون قصد منك يؤدِّي تدخّلك لإنقاذ ابنك الصغير إلى إثارة حقد الأطفال الآخرين عليه ورغبتهم في النيل منه. وعندما يفعلون ذلك يبكي هو فتهبّي لإنقاذه من جديد فيحقدون عليه وهكذا تستمرّ الدوّامة. وما هي إلا مسألة وقت حتى يبدأ فصل جديد.

قد يقول لك بعض الخبراء أن تتجاهلي الأمر برمّته، لكنّ ذلك ليس خيارًا واقعيًا. لو كنتُ أنا مكانك لَما استطعتُ تجاهل الأمر ولكنتُ منزعجًا مثلك تمامًا. وقد يقول خبراء آخرون: «دعيهم (أي الأطفال) يُسَوّوا نزاعاتهم بأنفسهم.» أنا أرفض ذلك لأنَّ الأطفال قد يحتاجون إلى سنوات للتوصّل إلى تسوية. وفي هذه الأثناء تصبحين أنتِ مرشّحة رئيسية لدخول مستشفى الأمراض العصبية. أعتقد أنَّ عليك أنتِ مساعدة الأطفال على تسوية أمورهم.

السرّ في مساعدتك لهم يكمن في نقل العبء العاطفي لهذه المشكلة من كاهلك إلى كاهلَي ابنيك. اتركي الأطفال الآخرين جانبًا فهم ضيوف في بيتك.

هكذا تتصرَّفين: في المرّة القادمة عندما يأتي الأطفال الآخرون لِلَّعب اسمحي لابن واحد فقط من ابنيك بالنزول إلى الطابق السفلي للّعب معهم. اختاري هذا الابن عن طريق القرعة.

قولي لهما: «من الواضح أنّكما لا تستطيعان النزول معًا إلى الطابق السفلي مع الأطفال الآخرين من دون أن تسبّبا مشكلة. لقد سئمتُ من الاستفزاز وسئمتُ من البكاء ولن ينزل إلى الطابق السفلي إلّا واحد منكما اليوم. وهذا ما سنفعله خلال فترة من الزمن. اليوم سأرمي قطعة نقود في الهواء لنرى مَن الذي سينزل ومَن الذي سيبقى هنا. وفي المرّة القادمة التي يجيء فيها الأطفال الآخرون سينزل إلى أسفل الذي بقي هنا اليوم وسيبقى هنا الآخَر الذي ينزل اليوم إلى الطابق السفلي. هل أنتما مستعدّان؟ ناحية الصورة للكبير وناحية النقش للصغير. ها هي تطير في الهواء!»

كلامٌ يقال وقطعة نقود تطير وقرارٌ يُنفَّذ! حُلَّت المشكلة. وإن كان الطقس ملائمًا للبقاء في الخارج اسمحي فقط للابن الموجود في الطابق السفلي بالذهاب إلى الخارج مع الأطفال الآخرين. وسيعطي ذلك الطفلين كليهما حافزًا كبيرًا لحلّ

المشكلة، ولسوف يحلّانها. التزمي بهذا الأسلوب خلال المرّات الأربع القادمة التي يأتي فيها الأطفال الآخرون إلى منزلك. وبعد أن يكون كلٌّ من ابنيك قد جرّب العزل الإجباري مرّتين اسأليهما قبل وصول الأطفال الآخرين مباشرة: «هل أحتاج إلى إبقاء أحدكما هنا اليوم؟» أظنّ أنَّ لا ضرورة لأن أقول لك ماذا سيكون الجواب. اسمحي لكليهما باللعب مع الأطفال الآخرين إلى أن تظهر مشكلة. عندئذٍ تسحبين الابن الذي كان يُفترَض به أن يبقى معزولاً ذلك اليوم.

سترغم هذه الاستراتيجية الطفلين على حلّ المشكلة، وهو أمر لا تستطيعين القيام به أنتِ. لكنَّ العبء العاطفي للمشكلة يجب أن يكون قد انتقل إلى ظَهرْيَهما قبل أن يتمكّنا من فكفكة عُقدتها.




@Ahmedyassin90

3
الـمبدأ الأساسي الثالث للرعاية الوالدية:

الأهمّ هو احترام الآخرين، لا شدّة الاعتداد بالنَّفْس

كنتُ أستعدّ لإلقاء كلـمة أمام طلاب مدرسة ابتدائية في ولاية ألاباما عندما أحسستُ بنداء الطبيعة لقضاء حاجتي. وعندما دخلتُ حمّامات الصبيان (عدم وجود رجال في الهيئة التعليـمية يعني عدم وجود حمّامات للرجال) لاحظتُ فورًا ملصقًا مثبّتًا فوق الـمرآة وعليه كتابة مطبوعة بأحرف كبيرة تـمّ تلوينها باليد:

أنت تنظر الآن إلى أحد أكثر الأشخاص
تـميُّزًا في العالم الواسع برمّته!

عرفتُ أنّ الإنسان الـمتـميِّز الـمقصود ليس شخصي أنا، فافترضت أنّ هذا ما تريد الـمديرة والـمعلّمات أن يعتقده كلّ طفل في الـمدرسة عن نفسه. ولا يـمكن لأحد أن يعيب القصد من هذا الـملصق. الـمشكلة هي أنّه لا وجود لشخص «متـميِّز» بحكم كونه إنسانًا، لأنّ كلّ إنسان مليء بالنقائص التي تؤثّر بقوة في سلوكه. ومن السهل جدًّا على الإنسان أن يستسلـم لطبيعته الـخاصّة الـمتـمحورة حول نفسه لتبرير سورات الغضب الجارح والأنانية والغيرة والطمع وما إلـى ذلك، فيـما تـحتاج السيطرة على الشياطين القابعة في داخلنا إلـى جهد كبير. إنّ الرعاية الوالدية الصالـحة التي تُوازِنُ بين

الحبّ اللامشروط والتأديب الحازم اللامشروط تؤهّل الطفل لبذل هذا المجهود والمواظبة عليه (بنسبة نجاح معقولة). والرعاية الوالدية الصالحة تعمل قبل كل شيء على إعطاء الطفل إحساسًا بالالتزام الاجتماعي (احترام الآخرين) ذا قوة كافية لقمع نزعاته المتمحورة حول نفسه (في معظم الأحيان). إنّ الطفل ينمّي احترام ذاته نتيجة قيام والديه بتعليمه احترام الآخرين، لا بقولهما له إنّه متميِّز.

أتعتقدون بأنّ طفلكم متميِّز؟ لا بأس في ذلك على الإطلاق. الفارق بين شعوركم بأنّ طفلكم متميّز بالنسبة إليكم وبين جعل الطفل يعتقد بأنّه متميِّز بالمعنى الكوني هو كالفارق بين التفّاح وجوز الهند. والواقع أنَّ هناك خَطْبًا فادحًا لدى والدَين لا يشعران بأنّ طفلهما متميِّز. لكنّ هناك بَوْنًا شاسعًا بين القول لطفل: «أنت متميِّز جدًّا بالنسبة إليّ» أو «أنت واحد من أكثر الأشخاص تميُّزًا في العالم الواسع برمّته.»

هل ينبغي إبلاغ طفل بأنّه كفوء وقادر على تحقيق أمور عظيمة وأنّه يستطيع التغلّب على الصعاب ومواجهة التحدّيات بصورة مثيرة للإعجاب؟ بالطبع نعم. لكنّ كلّ ذلك ليس مرادفًا لجعل طفل يعتقد بأنّه يحتلّ مرتبة أعلى من جميع الناس. والأرجح أنّ الطفل الذي يعتقد بأنّه متميّز بهذا المعنى سيظنّ أنّه يستحقّ أشياء فريدة وامتيازات خاصة، كما يستأهل أن يكون له الدور الأول وأنْ يمتلك الدرّاجة الأفضل وما إلى ذلك. هل من المقبول أن يعتزّ الطفل بإنجازاته؟ نعم، لكنّ ذلك مختلف تمامًا عن الزهو بالنَّفْس، كأنْ يكون مغرورًا أو أنانيًا. الاعتزاز لا يكون حقيقيًّا إلّا عندما يكون الشخص المعنيّ متواضعًا في سريرته، كما أنّ الاعتزاز الحقيقي لا يكون موجَّهًا نحو الذات بل نحو إنجازات محدّدة.

إنّ المفهوم الذي ينطق به الملصق ضارّ بمصالح الطفل أيضًا. إنّ من واجب جميع الوالدين التحلّي بإرادة تنشئة أطفال متمتّعين بلباقات اجتماعية، والعمل على تحقيق ذلك. وأنا أطلب إليكم الآن أن تفكّروا في ما يلي: هل الشخص الراشد الذي يعتقد بداهة بأنّه أحد أكثر الأشخاص تميُّزًا في العالم الواسع برمّته، إنسان لبق؟ بالطبع لا. الشخص الذي يعتقد ذلك عن نفسه هو إنسان ذميم ـ دون مبالغة. لماذا يقوم الكبار في أميركا إذًا بتشجيع الأطفال على الاعتقاد بأنّهم متميِّزون؟

بدأ خبراء التربية الـمحترفون في ستّينيات القرن الـماضي بدعوة الآباء والأمّهات إلـى توجيه طاقاتهم نحو تنمية شيء أسموه «الاعتداد بالنَّفْس». وقد دأبتُ على انتقاد هذه الفكرة خلال الجزء الأعظم من السنوات الستّ والعشرين التي مارستُ على امتدادها كتابة مقالـي الصحافي الذي يُنشر في العديد من الـجرائد في مـختلف أنحاء الـولايات الـمتـحدة. وكـلـما كـتبتُ عـن هـذا الـموضـوع دون استثناء يكتب إلـيّ أشخاص يقولون إنّي أُسيء فهم الـمعنى الـحقيقي للاعتداد بالنفس.

يشيرون إلـى أنّ الاعتداد الـحقيقي بالنفس هو إحساس الإنسان بقيمته الذاتية على أساس إنجازاته، وهو ما أسمَيتُه سابقًا الاعتزاز الـحقيقي. أنا أفهم الـحجّة التي يقدّمونها، لكنّ هذه الـحجّة تنقلب على نفسها. وإذا كنّا لا نتكلّم عن النَّفْس بل عن الأشياء الصالـحة التي تـحقّقها النَّفْس فلنتوقّف إذًا عن استخدام عبارة اعتداد بالنَّفْس ولِنُلْغِ كلـمة اعتداد لأن هذه الكلـمة تعني أيضًا الإجلال. وإذا لـم يكن «إجلال الذات» الـمعنى الـمقصود للعبارة فلنطلقْ عليها تسمية أخرى. وليس علينا أن نخترع كلـمة جديدة هنا لأنّ كلـمة مسؤولية ومشتقّاتها تفي بالغرض وأكثر.

وسيكون العالَـم مكانًا أفضل ويتـحسّن باستـمرار لو ركّز الراشدون جهودهم على تعليم أطفالهم أنْ يكونوا مسؤولين ـ هكذا ببساطة ـ أي أنْ يُكِنّوا تعاطفًا واحترامًا للآخرين (مسؤولية اجتـماعية) وأنْ يبذلوا قصارى جهدهم (مسؤولية الواجب) وأن يفعلوا ما هو صحيح حتى عندما لا يراقبهم أحد (مسؤولية شخصية).

ويستطيع الوالدون تنشئة أطفال تنطبق عليهم هذه الأوصاف بتطبيق الـمبادئ الـخمسة التالية لتربية الأطفال وفق الـمفاهيم التقليدية القديـمة:

1 ـــ امتدِحوا الفعل وليس الطفل. لـقـد حـذّر رودولـف درايـكـورس (Rudolf Dreikurs)، مـؤلّـف كـتـاب «الأطـفـال: الـتـحـدّي» (Chidren: The Challenge)، الوالدين قبل أكثر من ثلاثين سنة من استعمال «الـمديح التقييـمي» الذي قصد منه الـمديح الـموجَّه إلـى الطفل عوضًا عن إنـجاز معيّن. أن نقول للطفل: «أنتَ صبيّ صغير رائع» لا يقلّ ضررًا لنظرة الطفل إلـى نفسه عن قولنا له: «أنت مشاغب

صغير». ما يقصد الوالدون أو المعلّمون وما ينبغي أن يقولوه حقًّا هو: «لقد قمتَ بعمل جيد جدًّا ويجب أن تكون فخورًا.»

2 ـ امتدِحوا بتحفُّظ. يمكن للإكثار من المديح والمبالغة في الإطراء أن يؤدِّيا إلى اتكالية قوية شبيهة بالإدمان. فالطفل الذي يسعى إلى الإطراء طول الوقت والذي يبدو دائمًا في حاجة إلى تأكيد جديد أنَّه يبلي بلاء حسنًا أو يقوم بالشيء الصحيح هو مَن سبق له أن نال ثناء مفرطًا أو مديحًا لا يستحقّه. وبالمعنى الحرفي للكلمة أصبح هذا الطفل مدمنًا نيل جرعات منتظمة من الإطراء. نعم، هذا الطفل غير واثق من نفسه لأنَّه لا يشعر بهذه الثقة إلّا عندما يمتدحه شخص راشد. لكنّ هذا مختلف عن انعدام الثقة بالنفْس الناجم عن عدم تأكّد الطفل من أنّ والديه يحبّانه لأنَّهما لا يمتدحانه أبدًا. فالطفل الذي لا ينال مديحًا لا يجول باحثًا عنه.

3 ـ ساعِدوا أطفالكم على تعلّم أنَّهم قادرون على الوقوف على أقدامهم بعدم السماح لهم بالوقوف على أقدامكم أنتم. لا تفعلوا من أجل أطفالكم إلّا ما يعجزون هم عن فعله من أجل أنفسهم وتذكّروا أنّ الأطفال يستهينون عادة بقدراتهم،ونداءاتهم في طلب المساعدة تكون في أحيان كثيرة مجرّد ردود فعل لاإرادية على إحباط يشعرون به. ومن واجب الوالدين أن يكتشفوا ويُخرِجوا إلى النور أفضل ما في أطفالهم. وغالبًا ما تكون أحسن طريقة لتحقيق ذلك أن يُقال «كلا»، هكذا ببساطة. وليس من المفترض أن يكون تعلّم الطفل الوقوف على قدميه سهلاً، والأشخاص الوحيدون الذين ينجحون في ذلك حقًّا هم القادرون على الصمود بثبات في مواجهة ظروف صعبة مثبِّطة للهمم، وذلك شبيه بقول رياضيّي رفع الأثقال: «لا تغْنَم ما لم تتألّم.»

4 ـ علّموا أطفالكم أنّ الخيارات تؤدّي إلى تبعات. عندما يُسيء أطفالكم التصرّف عاقبوهم. أروهم عن طريق المثال، وهو الأسلوب الذي يتعلّم به الأطفال، أنّ على المرء أن يدفع ثمنًا لسوء السلوك الذي لا يكون «مجانيًّا» أبدًا. وهذه طريقة أخرى لقول الشيء ذاته: عندما يرتكب طفل عملاً سيِّئًا ينبغي جعله يشعر بالندم على فعلتِه.

هكذا يتطوّر الضمير، أي «الحاكم» الأسمى على السلوك. بالمقابل، عندما يحسِن أطفالكم التصرّف اعترفوا لهم بهذا الإنجاز عن طريق المديح المعتدل. ليس بإعطاء مكافآت أو الإفراط في الثناء بل بقول شيء من قبيل: «أحسنت وأنا فخور جدًّا بك.»

5 ــ علّموا أولادكم الآداب الحميدة. عندما يتعلّم الأطفال قول: «من فضلك»، «شكرًا»، «أنا آسف»، «عفوًا» وعدم مقاطعة حديث الآخرين يكتسبون قدرة على تلمّس مشاعر غيرهم من الناس يستحيل من دونها احترام الآخرين.

وعلينا قبل كلّ شيء، التشديد على التواضع في معادلة تربية الأطفال. فما من شخص أبغض من ذلك الذي يعتقد بأنّه متميّز، وما من شخص ألطف من ذلك الذي يهتمّ بغيره أكثر من اهتمامه بأن يعرف الآخرون عنه.

إنّ الفكرة التي تقول إنّ الاعتداد بالنَّفْس جيِّد سبَّبت أضرارًا لا حصر لها لثقافتنا. وتدعم موقفي هذا نتائجُ أبحاث ظهرت أخيرًا. فكّروا في ما يلي:

- في مسابقة أكاديمية دولية أُجريت أخيرًا حلّ طلاب المرحلة الثانوية الأميركيون في المرتبة الأخيرة. غير أنّهم كانوا يميلون حقًّا إلى الاعتقاد بأنَّهم أبلوا بلاء حسنًا. ورأى الطلاب الكوريون الذين احتلّوا مرتبة قريبة من الذروة أنّ أداءهم لم يكن جيّدًا على الإطلاق. وهكذا صار الاعتداد الجيِّد بالنَّفْس يبدو وكأنَّه عائق أكثر ممّا هو داعم للإنجاز الحقيقي. كما تبيّن أنّ الاعتداد الزائد بالنَّفْس يولّد أفكارًا واهمة عن أداء الشخص المعني، فيما يؤدِّي التواضع (الذي ما زال محترَمًا في آسيا) إلى تحقيق المزيد من الإنجاز.

- بعد دراسة ظاهرة الاعتداد الشديد بالنَّفْس لدى الأطفال استنتج باحثان في علم النَّفْس أخيرًا أنّ لدى الأطفال الذين يشعرون باعتداد زائد بأنفسهم دون أن يستند ذلك إلى أية إنجازات حقيقية، استعدادًا كبيرًا لأن يصبحوا عدوانيين أو حتى عنيفين إذا تعرّضتْ صورتهم المهتزّة عن أنفسهم لأيّ تهديد.

• دعمًا للاستنتاجات السابقة اكتشف باحثون أنّ احتمالات تسجيل نقاط على مقياس الاعتداد بالنَّفْس هي أكبر بكثير لدى مجرمين عتاة يُمضون عقوبات طويلة الأمد في السجون الأقصى تشدُّدًا، ممّا هي لدى المواطنين العاديين الصالحين المطيعين للقانون.

أخطأ الخبراء عندما قالوا إنّ من شأن الاعتداد الكبير بالنَّفْس أن يؤدِّي إلى نَيْل علامات أعلى وأداء سلوك أفضل. وهناك في الواقع استنتاجات بحثية مؤكّدة بنسبة كبيرة تفيد أنّ الأشخاص المتواضعين المعتدلين الذين يمتلكون قدرة حميدة على عدم التباهي هم ألطف أناس تمكن معاشرتهم، كما أنّهم قدوة في حُسْن أخلاقيات العمل والتفكير المجتمعي والرحمة والتعاطف الاجتماعي. إنّهم، باختصار، الناس الذين يُرجَّح أن يمدّوا إليكم يد المساعدة إذا رأوا أنّكم في حاجة إليها.

وإلى صاحبة النوايا الحسنة مديرة تلك المدرسة الابتدائية في ولاية ألاباما الأميركية أقدِّم هذه النصيحة: مزّقي ملصقات «أنتم متميِّزون» وضَعي مكانها ملصقات تقول: «افعَل شيئًا متميِّزًا لشخص آخَر اليوم لمجرّد أنّ هذا واجبك.»

الأَنَفة العنيفة

مَن كان أكثرَ اعتدادًا بنفسه، المهاتما غاندي أو أدولف هتلر؟ الطالب المبدع الذي اختير لإلقاء خطاب التخرّج لعام 1999 في مدرسة كولومباين الثانوية أو الطالبان في المدرسة ذاتها اللذان قتلا معلّمًا واثني عشر طالبًا آخرين ثم انتحرا في شهر نيسان (أبريل) من السنة ذاتها؟ ألبرت أينشتاين أو أدولف آيشمان؟ پوپاي (البحّار الكرتوني) أم غريمه بلوتو؟

بالنسبة إلى كل اثنين من هؤلاء ستكونون مخطئين إذا اخترتم في ردكم الشخص الأوّل. في كلٍّ من هذه الحالات يتبيّن أنّ الشخص السيِّئ، لا الشخص الطيِّب، هو المصاب بجرثومة الاعتداد الكبير بالنَّفْس. هذا ما يقوله الدكتور روي أف. باومايستر (Dr. Roy F. Baumeister) في مقالِهِ «الأَنَفَة العنيفة» (Violent

Pride) الذي نُشر في مجلة «ساينتفيك أميركان» (Scientific American) في عددها الصادر في شهر نيسان (أبريل) 2001، وهو المقال الذي يجب أن يصبح قراءة إلزامية لكلّ عضو في مجال إدارة المدارس وكلّ مدير مدرسة وكلّ معلّم وكل معالج نفسي وكل أب وأم. الدكتور باومايستر مختصّ في علم الاجتماع ويعمل في جامعة ولاية فلوريدا الأميركية، وقد درس العلاقة بين العدوانية والاعتداد بالنَّفْس فترة تربو على عشر سنوات. وتنسف النتائج التي توصّل إليها من الأساس أسطورة الاعتداد بالنَّفْس التي وَجّهت الرعاية الوالدية والتعليم في أميركا لأكثر من ربع قرن وتشرح لماذا كان الأطفال الأميركيون أكثر تهذيبًا بما لا يقاس وأقلّ جنوحًا إلى سورات العنف في الأيام «السيِّئة» الخوالي عندما كان الوالدون والمعلّمون يشدِّدون على التواضع والاعتدال عوضًا عن التكبّر الكاذب.

ويقول الدكتور باومايستر إنّ لدى الأشخاص ذوي الاعتداد الشديد بالنَّفْس ميلاً أكبر إلى التصرّف بعنف عندما تتعرّض نظرتهم المتضخّمة إلى أنفسهم للتهديد، سواء نتيجة انتقاد أو ما يعتبرونه إهانة لهم أو منعهم من إشباع تعطّشهم إلى الإطراء. الاعتداد الكبير بالنَّفْس هو من سمات أفراد العصابات والأشخاص الذين يسيئون معاملة الزوجات والأزواج. ويمكن اختصار الظاهرة بالقول: «كلّما زاد الاعتداد بالنفس قلّت السيطرة على النفس.»

أليس من المنطقي تمامًا القول إنَّه كلّما تعالت نظرة الإنسان إلى نفسه تدنّى تقديره للآخرين؟ أليس من المنطقي تمامًا أن يمتلك الأشخاص المتواضعون المعتدلون حسًّا بالمسؤولية الاجتماعية أكثر نفعًا مما يمتلكه أولئك الذين يعتقدون أنّهم نخبة المجتمع؟ أليس من المنطقي تمامًا أن تكون مدرسةٌ مليئة بأطفال يُقال لهم باستمرار إنّ ليس فيهم شيءٌ يحتاج إلى تحسين أقلّ أمانًا من مدرسة يضع معلّموها وذوو تلاميذها مستويات عالية للأداء المتوقّع من الأطفال وينتقدون حين يجب الانتقاد ولا يتغاضون عن السلوكات الأنانية.

ويكاد هذا الوصف لا ينطبق في أيّامنا هذه إلّا على المدارس المدعومة من الهيئات الدينية، وهي على وجه العموم أكثر المدارس أمانًا في أميركا.

ويوضح الدكتور باومايستر أنَّه لا يعترض على الاعتداد بالنَّفْس المبني على الإنجاز وعلى شعور الإنسان بأنّه قادر على حشد كل ما يلزم للتغلّب على التحدِّيات والمصاعب (أنا أُطلِق على ذلك تسمية الكفاءة الذاتية). إنَّ تحذيرات الدكتور باومايستر موجَّهة إلى ذلك النوع من الاعتداد بالنَّفْس الذي ينمو عندما يُغدِق الوالدون والمعلّمون المديح والمكافآت ويعطون العلامات الجيّدة دون شروط، أي دون اعتبار لِما إذا كان الطفل مستحقًّا أم لا. ولسوء الطالع أصبح هذا النوع من الاعتداد بالنَّفْس ما يفضِّل أطفال اليوم «الانتشاء» به.

يقول المثل: «من أَنْفُهُ فوق يقع إلى تحت». لكنّ أبحاث الدكتور باومايستر تُظهِر أنّ الناس الذين يقعون في نهاية المطاف هم غالبًا الأشخاص الذين يدخلون في نزاعات مع أصحاب الاعتداد الكبير بالنَّفْس.

إنَّ الستار الذي يحجب العيوب والآفات الكامنة في موضوع الاعتداد بالنَّفْس ينزاح ببطء ولكنْ بثبات. ونشرت مجلة (Personality and Social Psychology Review) في عددها الصادر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2001 دراسة بحثية بيَّنت أنَّه في حين استمرّ ارتفاع مستوى الاعتداد بالنَّفْس في أوساط الشبيبة الأميركية خلال السنوات الثلاثين الماضية، تواصل هبوط مستوى الأداء والقدرة على اتخاذ القرارات المسؤولة. إنّ نوع الاعتداد بالنَّفْس الذي تنتفخ به صدور أطفال كثيرين في أميركا لا يستند إلى تقييم واقعي لنقاط قوّتهم وضعفهم ولا يؤدّي بالتالي إلى تحقيق إنجازات. إنَّه يؤدِّي إلى الرداءة لاستناده إلى قبول لامشروط ولانقديّ لأيّ شيء يفعله الأطفال أو يفكِّرون فيه.

ووجّه أحد الباحثين، البروفسور جان توينج (Jean Twenge) من جامعة ولاية كاليفورنيا في سان دييغو، في مقابلة صحافية اللوم بنسبة كبيرة إلى المدارس الرسمية الأميركية حيث يُمنَع المعلّمون في أحيان كثيرة من توجيه رسائل سلبية (أي منتقِدة) إلى الأطفال (بما في ذلك علامات سيِّئة لأداء سيِّئ)، وحيث يُشجَّع الأطفال بصورة متزايدة على كتابة إطراءات ذاتية مثل «أنا متميّز مهما يكن» وتكرارها.

ويقول البروفسور توينج: «من الضروري الإشادة بالأطفال، لكنْ عندما يكون هناك سبب حقيقي للإشادة».

وعلى النقيض ممّا تقوله الخرافات السيكولوجية لا يُنتج المديح بحدّ ذاته أداء جيّدًا. إنّ توقُّعات الأداء العالية المقترنة بتقارير متابَعة دقيقة وداعمة هي التي تنتج عملاً جيّدًا يستحقّ الثناء، ما يؤدّي إلى تقييم ذاتي إيجابي، أي إلى ثقة الإنسان في مقدرته على قهر التحدّيات. وإدراك الإنسان أنّه كائن بشري كفوء إحساسٌ يُدمنه المرء بالمعنى الإيجابي للكلمة، والشخص الذي أثبت لنفسه أنّه كفوءٌ سيبحث عن فرص أخرى للتمتّع بهذا الشعور المبهج ذاته.

والمشكلة كما يبيّنها البحث هي أنّ المدارس في الولايات المتحدة خفّضت توقُّعاتها بنسبة كبيرة طوال أكثر من ثلاثين عامًا ورفعت في الوقت ذاته مستوى التقوية الإيجابية للتلاميذ. والواقع هو أنّ التوقُّعات المنخفضة المقترنة بتقارير متابعة غير دقيقة وغير إيجابية (مثل الثناء اللامشروط، العلامات المبالغ فيها) تُنتِج أداء ضعيفًا واعتدادًا قويًّا بالنَّفْس. ويقول البروفسور توينج إنّ هذا النوع من الاعتداد القوي بالنَّفْس ـ وهو النسخة المُزيَّفة من التقييم الذاتي الإيجابي ـ يهيّئ الأطفال للإصابة بخيبات أمل.

المشكلة الأبعد هي أنّ هؤلاء الأطفال ذوي الاعتداد الشديد بالنفس الذين جاءهم العطاء بلا مقابل سيصلون إلى سنّ الرشد وهم يعتقدون على الأرجح بأنّ العالم كلّه برنامج توزيع هبات وامتيازات سرمديّ الأمد صُمِّم لهم وفُصِّل على قياسهم. وبعد أن أَدمنوا الامتيازات لا الإنجازات قد يتوقّعون معاملة مماثلة من الزوجات والأزواج وأرباب العمل والنظام القضائي والمجتمع ككلّ. ويقول لي مدراء شركات في مختلف أنحاء الولايات المتحدة بصورة دائمة فعلاً إنّ هذه المشكلة بالتحديد هي التي يواجهونها مع الموظّفين الشباب، فيصاب بعض هؤلاء المعتدّين بأنفسهم بالاكتئاب فيما يحاول آخرون الحصول على ما يظنّون أنّه حقّ لهم بسلوكات منافية لأعراف المجتمع بما في ذلك سرقة أرباب عملهم.

قد يخطر لكم أن تطرحوا عليّ السؤال التالي: «إذًا يا جون هل تؤمن بالاعتداد المتدنّي بالنفس؟»

كلا. إنّي أؤمن في الواقع بعدم الاعتداد بالنَّفْس، فقبل وقت ليس بالبعيد كان عدم الاعتداد بالنَّفْس يسمّى تواضعًا واعتدالاً. إنّي أؤمن بهذه الفضائل التقليدية القديمة، وليس هناك إنسان أكثر لباقة ولطفًا من شخص متواضع ومعتدل، سواء كان طفلاً أم راشدًا.

لقد دأب أخصّائيو الصحّة النفسية خلال أكثر من جيل كامل على حثّ الوالدين والمعلّمين على تشجيع الاعتداد الشديد بالنَّفْس لدى الأطفال. وهم يقولون الآن إنّهم كانوا يقصدون دائمًا جعل الاعتداد بالنَّفْس مرتبطًا بالإنجازات. هذا غير صحيح. كان القصد طول الوقت جعل الأطفال يشعرون بأنّهم أنصاف آلهة دون اعتبار لأيّ إنجاز. الواقع هو أنّه كان يُفترض بالراشدين أن يتظاهروا بأنّ الطفل نجح عندما يفشل وبأنّه ربح عندما يخسر، كان يُفترض بالراشدين أن يغضّوا الطَّرْف عندما يسيء الطفل التصرّف حرصًا منهم على أن لا يُصاب بوخزة ضمير على ما فعل. قال الخبراء إنّ القصاص من أيّ نوع يُضعِف اعتداد الطفل بنفسه، أسوةً بإعطائه تعليمات عمّا يجب أن يفعل. وقالوا إنّ العائلات يجب أن تكون «ديموقراطية» (أيْ عوالم اشتراكية مصغَّرة)، وإنّ على الوالدين أن يمدحوا أطفالهم على كل شيء مهما صَغُر، ما يعني أنّ لا قيمة تُذكر للإنجاز.

الاعتداد الشديد بالنفس مشكلة، إن لم يكن بالنسبة إلى الشخص المصاب به، فبالنسبة إلينا جميعًا بالتأكيد. ويمتلك الطفل عند بلوغه عامه الثاني اعتدادًا شديدًا بنفسه حتى لو لم تكن لوالديه كفاءة تُذكر. وللطفل كامل الحقّ في هذا الاعتقاد ما دام والداه يثابران منذ ولادته على التصرّف وكأنّ العالم يدور حوله وسيظلّ كذلك إلى الأبد. يعتقد الطفل أنّ ما يتمنّاه هو حقّ له وأنّ الغاية تبرِّر الوسيلة. وهذا الوصف ينطبق على العقلية الإجرامية. والأطفال في سنّ تعلّم المشي هم مجرمون صغار في الواقع، إنّهم يكذبون ويسرقون ويضربون ويعضّون ويحتقرون السلطة ولا يأبهون

للقواعد ولا يتحمّلون الإحباط ولديهم نَهَم لإشباع نزواتهم فورًا. إنّهم لطفاء أيضًا، لكنّ المجرم العادي يستطيع أن يكون لطيفًا عندما يريد.

إنّ الاعتداد الشديد بالنفس لدى الطفل في عمر تعلّم المشي هو مرض يجب شفاؤه. وهذا الرأي ليس فكرة متطرّفة على الإطلاق، وقد كان الآباء والأمهات يفعلون ذلك حتى زمن ليس بالبعيد. كيف؟ كان العلاج مزيجًا من التأديب القوي والحبّ القوي بالقدر ذاته.

ولسوء الطالع جرى التخلّي عن هذا النوع من الرعاية الوالدية ابتداء من ستّينيات القرن الماضي. وتوقّف الآباء والأمّهات الأميركيون بناء على نصيحة الخبراء عن معالجة الاعتداد بالنّفْس وبدأوا يشجّعونه. وكانت المدرسة الرسمية الأميركية رائدةَ هذا التوجّه فأصبحت مهمّتها الرئيسية الترويج لمقولات «أنا متميّز». وليس من الصدفة بالتأكيد أن يكون عنف الأطفال والمراهقين قد تضاعف مرّات كثيرة منذ أن أصبح الاعتداء بالنفس معيار تربية الأطفال في الولايات المتحدة. والطفل الأبدي هو صِنْو ما يفعله الطفل الأبدي.

احترام الذات مقابل «أنا متميّز»

لقد قلتُ مرّات كثيرة إنّ الهدف يجب أن يكون احترام الذات وليس الاعتداد بالنفس. وقد فاتحني رجل في الموضوع أخيرًا وقال: «أظنّ أنّك تتلاعب بالكلمات لأنّك تتحدّث حقيقة عن الشيء ذاته.»

إنّ التحدّي الذي طرحه عليّ هذا الرجل هو انعكاس لفوضى معاني الكلمات التي خلقها هَوَسُنا الوطني في تحقيق اعتداد كبير بالنَّفْس يُزعَم أنّه شفاء لكلّ علّة (وحرصنا على أن نُسبِغَه على أطفالنا بسخاء). ويميل الناس إلى الاعتقاد بأنّ الثقة بالنَّفْس واحترام النفس والاعتداد بالنفس خصلة واحدة بعينها. كذلك هناك فكرة شائعة مفادها أنّ الاعتداد الحقيقي بالنفس يُكتسب عن طريق الإنجاز لا عبر نيل الكثير من الثناء. لِنتفحّص إذًا هاتين المقولتين.

إذا كان الاعتداد بالنفس مرتبطًا حقًّا بالإنجاز لَتناقَض تمامًا مع المفاهيم الأميركية لأنّه يعني أنّ الأشخاص غير القادرين على تحقيق إنجازات كبيرة لا يستأهلون امتلاك قدْر كبير من الاعتداد بالنفس، أي أنّ الانتماء إلى النخبة المُعْتَدّة بنفسها لا يُغري بالضرورة إلّا الأشخاص ذوي الاعتداد الشديد بالنفس الذين يطيب لهم أن يظنّوا أنّهم جُبِلوا من طينة أسمى من طينتنا نحن الآخرين.

وعن كون الاعتداد بالنفس والثقة بالنفس خصلة واحدة بعينها تُفيد الأبحاث أنّ الأشخاص ذوي الاعتداد الشديد بالنفس لا يستطيعون كما يبدو أن يُقيّموا قدراتهم بدقّة. إنّهم ينزعون إلى الاعتقاد بأنّهم جيّدون في كل مجال أو قادرون على أن يكونوا كذلك. والثقة في امتلاك القدرة على عمل كلّ شيء أمر لا ينطبق على الواقع. ومن الحكمة أن يعرف المرء الحالات التي يكون تجنّبها أفضلَ ما يفعله ومتى يجدر به أن يطلب المساعدة. وهذه الخصلة المتعقّلة إلى أبعد حدٍّ ليست من الصفات المميّزة للأشخاص الذين ينظرون إلى أنفسهم نظرة متعالية.

وهذا ما يقودنا إلى الفارق بين احترام النَّفْس والاعتداد بالنَّفْس. احترام النَّفْس يأتي كنتيجة لإبداء الاحترام للآخرين والقيام بأشياء من أجل الآخرين. وكلّما زاد مقدار الاحترام الذي يُعطى للآخرين زاد مردوده من احترام النفس. وعلى النقيض من ذلك، يتولّد الاعتداد بالنَّفْس كنتيجة لِما يفعله الآخرون من أجلك، مثل إغداق المديح عليك من دون مبرّر وافتعال نجاحات مُصطنعة لصالحك وإعطائك أشياء مادية ومعاملتك عمومًا كسيِّد القوم وعاهلهم، أي الشخص الذي نتمنّى جميعًا في أعماقنا أن نكونَه. يشعر الأشخاص الذين يمتلكون احترامًا كبيرًا للنَّفْس بأنَّ عليهم واجبات تجاه الآخرين فيما يشعر الأشخاص الذين يمتلكون اعتدادًا كبيرًا بالنَّفْس أنّ على الآخرين واجبات تجاههم. هم يشعرون بأن لهم الحقّ في نيل ما يريدون، وهو الشعور الذي يقود مباشرة إلى جميع أنواع السلوك الفظّ قليل التهذيب والمنافي للأعراف الاجتماعية، مثل الكذب والإكراه وسورات الغضب وما هو أسوأ من ذلك. هل يذكّركم هذا بأطفال تعرفونهم؟ أو ربما ببعض الراشدين؟

كلا. الفارق بين الاعتداد بالنفس واحترام النفس ليس مجرّد مسألة كلمات. الفارق الحقيقي فعلاً يولِّد نوعين مختلفين من الناس، أي أنّه يولّد ثقافتين مختلفتين تمامًا. وإذا كنتم قد سافرتم إلى بلدان أجنبية لفترات معقولة من الزمن فستعرفون بالتحديد ما أعنيه.

الأطفال في بلدان أخرى

يتّسم جدول التزاماتي المتلاحقة بإلقاء محاضرات بالازدحام، لكنّ فسحة من الوقت توفّرت لي في شهر تشرين الأول (أكتوبر) من العام 2003 فقرّرنا، زوجتي ويلي وأنا، الذهاب إلى لندن. زرنا المعرض الوطني للفنون والمتحف البريطاني وقصدنا مدينة الملاهي حيث ركبنا أكبر دولاب دوّار في العالم وتسوّقنا في متجر هارودز وأكلنا في مطاعم ممتازة وسرنا على أقدامنا أكثر ممّا فعلنا في سنوات. ولندن مدينة رائعة وقد أمضينا فيها وقتًا ممتعًا.

في صباحنا الأول في العاصمة البريطانية فتحتُ جريدة «لندن تايمز» وطالعتُها مع تناولي القهوة والكعك. وعندما وصلتُ إلى ملحق الجريدة الشبيه بمجلّة صُدِمت فورًا لرؤيتي هذا العنوان الرئيسي: **أطفالنا خارجون عن السيطرة**. وتبيّن أنّ المربّيات البريطانيات اللواتي أصبحت نسبة كبيرة منهنّ تُستورَد من أوروبا الشرقية، يعتبرنَ الصغار الموضوعين تحت رعايتهنّ قليلي الأدب وفاقدي الاحترام وغير مطيعين على وجه العموم ـ أي أنّهم بلا تهذيب.

بناءً على ما قرأت كنتُ مُهيَّأً لأَشهد بأمّ عيني أمثلة كثيرة على هذه الكارثة التأديبية. أمضينا، ويلي وأنا، كثيرًا من الوقت في الأيّام الستّة التالية قرب أطفال إنكليز في مناسبات متعدِّدة ولم نلاحظ ولا مرّة واحدة طفلاً يسيء التصرّف بشكل ملحوظ. لم نسمع ولا مرة واحدة طفلاً حتى في سنّ تعلّم المشي يفتعل ضجيجًا في متجر. أين كان إذًا الأطفال «الخارجون عن السيطرة»؟ استنتجتُ عندها أنّ آينشتاين كان محقًّا: «كل شيء نسبيّ».

في إحدى المرات خرجنا، ويلي وأنا، من متجر سلفريدج (Selfridge) إلى شارع أوكسفورد العامر بالحركة. كان الرصيف مزدحمًا وارتطمتُ عَرَضًا بفتاة لا يتجاوز عمرها ستّ سنوات أو سبعًا كانت تسير ممسكة بذراع رجل افترضتُ أنّه أبوها. لقد سبق لي أن ارتطمت بأطفال أميركيين في أماكن مزدحمة، وهم في الغالب ينظرون إليك نظرة استياء. ومهما يكن من أمر أذكر أنّ المرّة الأخيرة التي سمعتُ فيها عبارة «أنا آسف» من طفل أميركي كان في العام 1983 ـ إذا أسعفتني الذاكرة.

أمّا هذه الفتاة الإنكليزية الحلوة فقد نظرت إليّ وقالت: «أنا آسفة». وقفتُ هناك مصدومًا. وعندما استعدتُ مقدرتي على قول: «كلا، أنا الآسف» كانت الفتاة قد اختفت مع أبيها بين الحشود. والأرجح أنّهما عادا إلى منزلهما وهما يتكلّمان عن مدى الوقاحة التي يمكن للسيّاح الأميركيين إبداؤها.

في إحدى الليالي ذهبنا، ويلي وأنا، إلى المسرحية الموسيقية ماما ميا (Mamma Mia) المقتبسة عن أغنيات فرقة آبا (ABBA)، وعندما غادرنا المسرح لم نعرف الاتجاه الذي يجب أن نسلكه نحو الفندق، كما كانت كل سيّارة أجرة رأيناها مشغولة. بعد أن قطعنا مسافة معيَّنة مشيًا على القَدَمين توقّفتُ لأستفسر عن وجهتنا من مجموعة مراهقين بدت عليهم الرعونة إلى حدّ ما. لكنّهم كانوا في منتهى الاهتمام والتهذيب، ولا بدّ أن يكونوا قد لاحظوا فورًا أنّنا أميركيّان.

الوالدون البريطانيون أيضًا ليسوا خارجين عن السيطرة. كنّا، زوجتي ويلي وأنا، نسير في حديقة هايد بارك عندما شاهدنا عدّة مجموعات من الأطفال في عمر طلاب المدرسة الابتدائية وهم يخوضون مباريات جدّية في كرة القدم. كان الأطفال يرتدون ثياب اللعب ولم يخفَ على الناظر أنّ اللعب كان حاميًا. وأودّ أن أؤكّد هنا أنّ هذه المباريات كانت تُقام في ساعة متأخِّرة من بعد الظهر، أي بعد المدرسة، ولم يكن يشاهد أيًّا من المباريات أكثرُ من خمسة راشدين، معظمهم من المدرّبين والمسؤولين، وحتى هؤلاء بدَوا وكأنّهم غير مُهتَمّين كثيرًا.

كان الوالدون في الولايات المتحدة الأميركية أيضًا غير خارجين عن السيطرة في زمن مضى. في العام 1959، السنة الوحيدة التي مارستُ فيها لعبة بيسبول الناشئة،

كان الراشدون الوحيدون الذين يحضرون أيًا من مبارياتنا الـمدرّبين والـحكّام، فكان لعبنا مـمتعًا فعلاً. وأنا مقتنع بأنّ أطفال اليوم لا يعرفون ما هي الـمتعة لأنّه ليس من الـمـمتع أن يتجمهر الراشدون ليديروا أدقّ تفاصيل اللعب وهم يصيحون من أطراف الـملعب.

لقد أخطأتْ صحيفة التايـمز تـمامًا، ولا شكّ لديّ في أنّ الأطفال البريطانيين، لاسيَّما الـمنتـمين إلـى عوائل ميسورة قادرة على توظيف مربّيات، يبدون خارجين عن السيطرة لشخص آتٍ من أوروبا الشرقية حيث ما زالت العائلة الـمُمتدّة التقليدية هي القاعدة. لكنّ الطفل الإنكليزي مثال للتهذيب واللطف من وجهة نظري كمراقب لأساليب الرعاية الوالدية الأميركية.

أطفال أفسدهم الدلال

دُعيت في شهر آب (أغسطس) من العام 2001 إلـى الـمشاركة في برنامج حواري مباشر على تلفزيون CNN كان أطفال أميركا الـمدلَّلون موضوعه. وكانت مـجلة «تايـم» الأميركية قد نشرت في وقت سابق من الشهر ذاته (عدد 6 آب 2001) تـحقيقًا صحافيًّا تـحت عنوان «مَن هو صاحب القرار هنا» اكتشفتْ فيه بصورة متأخِّرة أنّ أطفال أميركا يُعطَوْن أكثر مـما ينبغي بكل وسيلة يـمكن تصوّرها. فانهمكتْ وسائل الإعلام في معالـجة الـموضوع إلـى حدّ الإشباع، ثم عاد الـجميع إلـى شؤونهم الـمعتادة وكأنّ شيئًا لـم يكن. بكلام آخَر: لـم يكن هناك فعلاً ما يُقلِق بال أطفال أميركا.

لنواجِه الـحقائق: الوالدون يقرأون هذه الـمقالات ويشاهدون هذه البرامج ويفكِّرون في أنفسهم قائلين: «أليس من الـمريع أن يُفسِد جميع هؤلاء الآباء والأمّهات أطفالـهم بالـتدليل!» وهم غير مدركين على الإطلاق أنّ هذه الـمقالات والبرامج تتـحدَّث عنهم بالذات.

أعتقد أنّ الـمشكلة تكمن في كلـمة «فَسَدَ» ومشتقاتها. «فَسَدَ» فِعْلٌ يعني تَـحَلَّلَ وتَلِفَ وتَعَفَّنَ وفاحت منه رائحة كريهة. وإذا بدّلنا الكلـمة وأطلقنا على

المشكلة تسمية غير منفّرة إلى هذا الحدّ فقد يصبح الوالدون مستعدّين للاعتراف بأنّهم هم مَن يخلقونها ولتغيير أساليبهم بالتالي. بناء على ذلك أقترح التوقّف عن وصف هؤلاء الأطفال بالفاسدين واستعمال صفات أخرى مثال عاقّين أو طمّاعين أو وقحين. عندئذٍ يُطْرح السؤال التالي: هل تربّون أطفالاً عاقّين طمّاعين وقحين بَطِرين؟

وإذا وجدتم صعوبة في الإجابة، فإليكم اختبارًا ذاتيًّا سريعًا تجيبون فيه عن كلّ سؤال بصحّ أو خطأ، لا أكثر.

1 ـ عندما أشتري لطفلي شيئًا يريده لكنَّه لا يحتاج إليه ـ لعبة جديدة مثلاً ـ يتصرَّف وكأنّي تأخّرتُ كثيرًا في القيام بشيء من أجله.

2 ـ إذا لم أفعل ما يريد طفلي منّي أن أفعله فسيبكي على الأرجح وسيصيح في وجهي قائلاً إنّني والد سيّئ (والدة سيّئة).

3 ـ عليّ أن أجثو على ركبتيّ تقريبًا وأن أتوسّل إلى طفلي كي يقبل تحمّل مسؤولية ما. لكنْ حتى هذا قد لا يُجدي.

حسنًا. إذا كان جوابكم «صحّ» عن مجرّد سؤال واحد يكون لديكم طفل عاقّ وطمّاع ووقح وبَطِر (أو أطفال بالصفات ذاتها). لماذا يكفي ردّ واحد بالإيجاب لوضع طفل في هذه الفئة؟ لأنَّ ردًّا واحدًا بالإيجاب يعني أنّه كان ينبغي أن تقولوا «صحّ» أيضًا في الإجابة عن السؤالَيْن الآخرَيْن. لكنّكم لم تفعلوا ذلك لأنّكم تفضّلون كثيرًا إنكار كلّ ما يسيء إلى صورة أطفالكم، شأنكم في ذلك شأن معظم الآباء والأمهات الأميركيين.

على هذا الأساس، كيف يتصرَّف طفل لا ينتمي إلى فئة العاقّين الطمّاعين الوقحين البَطِرين؟ تضمّنت إحدى النشرات الدورية التوجيهيّة قبل فترة قصيرة رسالة من شابٍّ كان قد نشأ في رعاية دينيّة وقرّر أن يهبَ سنة من عمره لخدمة الأطفال المُعوَزين في أحد مياتم دولة هوندوراس. ولا بدّ من القول في البداية إنّ هذا الشاب

لم يكن طفلاً عاقًا طمّاعًا وقحًا بطرًا، بالرغم من انتمائه إلى عائلة فاحشة الثراء. قال من جملة ما كتب:

كانت الصورة الثانية التي صدمتني مشاهدة طفل وكلب يتصارعان على ما كان يشبه هيكل دجاجة. انتصر الطفل وراح ينهش الدجاجة بنَهَم. ليتني أستطيع أن أصورّ بالكلمات الأوضاع السائدة في هذه المدينة! غير أنّ الميتم بحدّ ذاته هو جنّة بالنسبة إلى هؤلاء الأطفال. لم أرَ في حياتي أطفالاً أكثر احترامًا للغير وأعظم شعوراً بالامتنان، على النقيض تمامًا ممّا شاهدته أثناء نشأتي في... (مدينة صغيرة في شرق الولايات المتحدة). أطفالُ الميتم يعرفون كم هم محظوظون حتى لامتلاكهم فرصة تحمُّل المسؤولية عن حياتهم، وهذه نظرة يفتقر إليها أطفال كثيرون في الولايات المتحدة.

أنا واثق من أنّ جميع الآباء والأمّهات في الولايات المتحدة سيقولون، لو سُئِلوا، إنّهم يريدون لأطفالهم أن يحترموا الآخرين وأن يكونوا ممتنّين. وترداد هذه الأقوال سهل جدًّا بالطبع. لقد وضع هذا الشاب إصبعه على سرّ تنشئة أطفال غير عاقّين وطمّاعين ووقحين بَطِرين. إذا أردتم أن يكون أطفالكم ممتنّين وأن يحترموا الآخَرين فلا تعطوهم الكثير. قولوا لهم «لا» أكثر ممّا تقولون «نعم». أجل، أكثر بكثير في الواقع. أنا أقترح عشر لاءات على الأقلّ مقابل كلّ «نعم». وبما أنّكم دخلتم في الموضوع، كونوا نموذجًا للحرص في الإنفاق وللصبر وخدمة الآخرين. ويُعجَب الأطفال، بكلّ ما للكلمة من معنى، بشخص يخدم الآخَرين أكثر من إعجابهم بشخص يخدمهم. اجعلوا أطفالكم يقومون بأعمال في المنزل، واعملوا معهم جنبًا إلى جنب. إنّ متطوّعنا الشابّ ينهض مع انبلاج الفجر كلّ صباح ويعمل مع الصِّبية المقيمين في الميتم. يعتنون معًا بالحيوانات وينظّفون الإسطبل ويقتلعون الأعشاب الضارّة من الحقول بأيديهم إلى أن يحين موعد وجبة العشاء. آنذاك يحني الجميع رؤوسهم ويشكرون خالقهم على كل نعمة ينالونها في حياتهم مهما تكن صغيرة.

إنّها لحياة غنيّة حقًّا!

هل هناك أسئلة؟

سؤال: ستبلغ ابنتي قريبًا عامها السابع، وهي ليست جِدُّ اجتماعية وتفضِّل ألا يكون لها أكثر من ثلاثة أصدقاء أو أربعة. وهي تريد دعوة أربعة أطفال تودّهم إلى حفلة عيد ميلادها، لكنَّها ترفض دعوة ثلاثة أطفال آخَرين سبق لها اللعبُ معهم، وهم أولاد صديقات لي. ولديّ إحساس قويّ بأنَّ من واجبها أن تدعو هؤلاء الثلاثة لأنَّهم إذا سمعوا بالحفلة (وهذا مرجَّح) فسوف يستاؤون ـ وستستاء أمّهاتهم أيضًا كما أعلم علم اليقين. لكنَّ الشروح التي قدَّمتُها لابنتي ذهبت سدى فهي ترفض بصورة مطلقة دعوتهم. بناء على ذلك أعطيتُها الخيار التالي: إمّا حفلة يحضرها أيضًا هؤلاء الثلاثة أو لا حفلة على الإطلاق. فقالت لي بسرعة: «لا حفلة. شكرًا.» هل فعلتُ أنا الشيء الصحيح أم هل كان عليّ أن أتركها تقرِّ مَن تريد أن تدعو من دون تدخّل منّي؟

جواب: نعم، لقد فعلتِ الشيء الصحيح، ومن أجل ذلك أُثني عليك أحسن ثناء. إذ لا يجوز السماح لطفل باستغلال حفلة كمنبر للتصرّف بنرجسية وأنانية ولؤم. ولسوء الحظ يسمح والدون كثيرون بتحوّل حفلات أعياد ميلاد أطفالهم إلى منابر لمثل هذه المشاهد البغيضة. إنَّ احتفال إنسان بعيد ميلاده هو وقت يكون فيه مُمتنًا وكريمًا وبعيدًا عن الأنانية. أنتِ أردت لابنتك أن تُرحِّب لا أن تصدّ وأن تفتح قلبها لا أن تغلقه. لقد كنتِ محقّة تمامًا دون أدنى شكّ. ومن الواضح أنَّ ابنتك كانت مخطئة ومخطئة ومخطئة أيضًا. لقد شرحتِ لها موقفك وتشبَّثتْ هي بعنادِها. بذلتِ محاولات إقناع إضافية وظلَّتْ ابنتك على عنادها. وكان في استطاعتك آنذاك إما أن تفرضي سلطتك أو أن تتخاذلي. ومرحى لك إلى الأبد لأنَّك فرضتِ سلطتك. لقد ثبتت ابنتك على موقفها فاثبتي أنتِ أيضًا على موقفك.

سؤال: أقامت شقيقتي وزوجها أخيرًا حفلة عيد ميلاد ابنتهما الخامس شملت ركوب المُهرَ (البوني) وزيارة من سندريلا (التي أعطت كلّ طفل هدية

سحرية) وكعكة نافست كعكة زواجي وفيضًا من الهدايا الثمينة بالطبع من بينها لعبة تشبه تـمامًا ابنة أختي بالإضافة إلى ماسة. وجاءت لحظةٌ ظننت فيها أنّ أختي وزوجها سيُجلِسان ابنتهما على عرش ويدوران بها في الـمدينة. وقد حضرتْ ابنتنا البالغة من العمر خمس سنوات الـحفلة وصارت تعتقد بأنّ علينا أيضًا أن نقيم حفلة بالفخامة ذاتها في عيد ميلادها القادم. أرجو أن توافينا برأيك.

جواب: أنا إنسان يُشهَد لـي بأنّي مـحافِظ ورجعي و«دقّة قديـمة» في ما يتعلّق بحفلات أعياد ميلاد الأطفال. كانت هذه الـحفلات في الـماضي وإلـى وقت ليس ببعيد مناسبات تتّسم بالبساطة، لكنّ ذلك كان قبل العصر الذي أصبح فيه الطفل الآمِر والناهي. كانت حفلة عيد ميلاد الطفل في الـماضي تقتصر أحيانًا على كعكة تُعِدّها أمّه وتضعها على الـمائدة بعد وجبة الـمساء. وكان أفراد العائلة الـمقيمون في البلاد يأتون في الوقت الـمناسب لتناول نصيبهم من الكعكة وليغنّوا جميعًا «سنة حلوة يا جميل» (Happy Birthday to you). وكان الطفل نفسه يُعطَى عددًا من الهدايا البسيطة، لكنّ هذا العُرْف كان سائدًا عندما كان الطفل لا يزال طفلاً وليس نصف إله.

عندما كانت حفلات عيد الـميلاد مناسبات لا تكلُّفَ فيها كان سلوك الأطفال عامّة أكثر تـحضُّرًا وتهذيبًا مـمّا هو اليوم بنسبة كبيرة. لـم يكن الأطفال يُشَجَّعون على التفكير في أنّهم «مـحور» كلّ ما حولهم، ما نـمَّى فيهم مشاعر الاحترام والالتزام تـجاه الآخرين، فكان سلوكهم أفضل. ولا ريب في أنّ حفلات عيد الـميلاد البسيطة ساعدت الأطفال على فهم موقعهم في الصورة الشاملة للأمور فهمًا سليمًا إلـى حدّ بعيد.

تغيَّرت الأزمنة. في الـماضي كان التواضع والبساطة في كلّ شيء فضيلة. من ذلك أنّ الإنسان لـم يكن يتباهى بأطفاله أو يُغرَم بهم أو يُغْرِقهم بالأشياء الثمينة والفاخرة. كان الناس يعرفون على وجه العموم آنذاك أنّ الاعتداد الشديد بالنفس ليس حلاً، بل هو الـمشكلة. أما والدو اليوم فهم مقتنعون بأنّهم كلّما فعلوا أكثر من أجل

اعتداد أطفالهم بأنفسهم كلّما كان ذلك أفضل. خمسة آلاف دولار من أجل عيد ميلاد طفل في الخامسة؟ لا ثمن يعزّ عليه!

وغنيّ عن القول إنّي من أنصار حفلات عيد الميلاد البسيطة المقتصرة على أفراد العائلة، وإذا تقرَّر دعوة أطفال آخرين، فليكن العدد قليلاً والاحتفال بسيطًا. امنعوا تقديم الهدايا، والواقع أنّي أُحبِّذ فكرة قيام الطفل صاحب حفلة عيد الميلاد بتوزيع جوائز شُكْر صغيرة على الأطفال المدعوّين. بل يمكنكم أن تجعلوا الطفل نفسه يدفع ثمن هذه الهدايا لأنَّ ذلك سيقلّل بالتأكيد عدد المدعوّين. قدّموا للحاضرين الحلوى الصحّية ثم أرسلوا الأطفال الآخَرين (إذا كان يوجد مدعوّون) إلى منازلهم بعد أن يشاركوا في لعبة أو لعبتين.

كان الأطفال في ما مضى يَرْضون بحفلات عيد ميلاد متواضعة. ومن المؤسف أنَّه جرى تعليم أطفال اليوم أن يتوقّعوا ما هو أفخم من ذلك بكثير. واقبلوا النصيحة التالية من شخص خاض التجربة بنفسه: اشتهاء ما لا نحتاج إليه لا يتوافق ومعنى السعادة.

سؤال: أخت زوجي امرأة جذّابة ومتوقّدة الذكاء وناجحة، لكنَّها مستغرقة في نفسها تمامًا لسوء الحظّ. ويرتدّ كلّ حوار معها تقريبًا إلى الحديث عن مدى جمالها وكم هي موهوبة إلى حدّ لا يُصدَّق. وإذا اختلفتْ مع أحد فالسبب هو أنَّ الشخص الآخَر يغار منها. وأنا أشعر بالقلق لأنَّ ثمّة مَن يقول لي إنَّ ابنتي البالغة من العمر ستّ سنوات تشبه عمّتها كثيرًا. ويتحدَّث هؤلاء عن حُسن نيّة (عمّتها ذات شخصية اجتماعية ساحرة). لكنّي بدأت ألاحظ أنَّ ابنتي أيضًا مستغرقة في نفسها إلى حدّ ما. وعندما تتصرّف على هذا النحو أُنبّهها وأجعلها تعتذر. هل من الممكن أن تكون قد ورثت هذا الطبع من طرف أسرة أبيها؟ أيضًا، هل من المناسب أن يُقال لطفل في السادسة من العمر إنَّه يتصرّف بأنانية ودون مراعاة للآخرين، أم أنَّ ذلك أقسى من اللازم؟

جواب: كلا. لـم تَرِث ابنتك نرجسية عمّتها. ومن المهمّ التمييز بين الشخصية التي تولد مع الإنسان كلوحة مواصفات بيضاء وبين الخُلُق وهو العنصر الذي يعبِّئ اللوحة ببطء. وتشير الأبحاث إلى أنّ خصال الشخصية قد تنتقل بالوراثة، لكنْ ليس الخُلُق. مثلاً قد تكون هناك جذور وراثية لكون أخت زوجك منفتحة اجتماعيًا ـ وهي خصلة من خصال شخصيَّتها. لكنْ لا علاقة للوراثة مطلقًا بكونها مستغرقة في نفسها، وهذه خصلة خُلُقية.

وتكوين شخصية طفل يتطلَّب مزيجًا من الحبّ القوي والتأديب القوي بالمقدار ذاته. وعندما يصل الطفل إلى عامه السادس تكون المهمّة لا تزال بعيدة عن الاكتمال. ويبدو لي أنَّكِ تسيرين على الطريق الصحيح، فابقي على هذا المسار.

بالنسبة إلى سؤالك الثاني: إذا كان قولك لابنتك إنَّها تتصرَّف بأنانية ودون مراعاة للآخرين هو الحقيقة، الحقيقة الكاملة ولا شيء غير الحقيقة، فهو ليس قاسيًا بمضمونه وبحدّ ذاته. فالحقيقة تجرح أحيانًا، لكنّ جرحًا من هذا النوع قد يكون علاجًا في الوقت ذاته. أما التكلّم معها بقسوة، فذلك أمر مختلف. عندما تُبلغينها أمرًا من هذا القبيل تذكَّري أنَّ الكلمات التي تُقال ببرودة أعصاب تترك أثرًا أعمق في النفس من الكلمات التي تُقال بغضب.

سؤال: ابني البالغ من العمر سبع سنوات لا يتمتّع بروح رياضية فهو يتباهى ويتشفّى عندما يربح في لعبة ما ويبكي عندما يخسر. وجميع أفراد عائلة زوجي هم على هذه الشاكلة، أي أنَّ مشكلة ابني أكبر من أن أَنْسِبَها إلى عمره فقط. وتتجلَّى المشكلة بصورة خاصة في الألعاب والرياضات التنافسية. وعندما نتسلّى في البيت بألعاب الرُّقعة (الداما، المونوبولي، إلخ...) يبكي ابني عندما يخسر ويهزأ منّا عندما يربح. وهذا ما يفعله أيضًا مع أقرانه. وبالمناسبة، يكاد زوجي يتغلّب على هذه المشكلة التي يعاني منها هو أيضًا، لكنْ ما زال أمامه شوط يجب أن يقطعه.

جواب: إذا كنتِ تقصدين إبلاغي أنَّك تعتقدين أنَّ ابنك ورث هذه الخصلة، فأنا أشكّ في ذلك. وممّا لا يعرفه الجمهور العريض أنَّ البحث عن تفسيرات جينية وراثية للسلوك الإنساني لم يُؤتِ ثماره. بل إنَّ دراسات على توائم متماثلة نشأت منفصلة أظهرت بطلان ما يقال عن انتقال خصال سلوكية معيَّنة من جيل إلى جيل عن طريق آليّات جينية موثوقة.

أنتِ محقَّة في شعورك بالقلق، فأقران ابنك لن يتغاضوا طويلاً عن افتقاره إلى الروح الرياضية. وكلَّما تقدَّم في العمر كلّما ازدادت المشكلات الاجتماعية الناجمة عن ذلك، ولأسباب وجيهة أيضًا. فالافتقار إلى الروح الرياضية هو في الأساس تعبير عن قلّة احترام للآخَرين نابعة من نزعة أنانية. وفي حين يعاني أطفال في السابعة من العمر من هذه المشكلة، لا يجوز أن يعاني منها أيضًا مَن هم في العاشرة. أما الراشدون الذين يُرجَّح أن ينظروا إلى هذه المشكلة الآن كمسألة عدم نضوج لا أكثر، فسوف يعتبرونها قضية أخطر بكثير بعد سنوات قليلة.

أقول لكِ باختصار إنَّه لا يَسَعُك أن تضيِّعي أيّ وقت. وإذا افترضنا أنّ زوجك يشاركك في مشاعر القلق فعليه أن ينضمّ إليك في بذل جهد علاجي شامل. ولعلّي أمضي خطوة أبعد فأقول إنّ الجهود الفردية التي تقومين بها أنتِ لعلاج هذه المشكلة لن تنجح إلّا إذا بدأ ابنك يسمع من أبيه رسالة رفضٍ قوية لسلوكه.

بناء على تجربتي لا توجد إلّا طريقة فعّالة واحدة للتعامل مع هذا السلوك: فور بدء ابنك في السخرية أو إظهار الاستياء أثناء اللعب يجب أن يُستَبعد بصورة فورية وأن لا يُسمح له بالعودة إلى اللعب إلّا إذا اعتذر للجميع، للمدرّبين وأفراد فريقه ولاعبي الفريق الآخَر. وإذا رفض الاعتذار فعليكِ أن تأخذيه إلى المنزل وأن تعزليه في غرفته لبقية النهار. وغنيّ عن القول إنّ على المدرّبين أيضًا أن يدعموا تمامًا هذا الإجراء العلاجي. وإذا تعذّر إيقاف اللعب كي يعتذر ابنك، فما عليك إلّا أن تأخذيه إلى المنزل. وفي هذه الحالة لا بدّ من الاعتذار عن تصرُّفه السيِّئ قبل أن يُسمح له بالعودة إلى الفريق للتدرّب أو لعب مباراة.

ولعلّكِ تتساءلين الآن عمّا إذا كان ذلك سَبَّبَ لابنك حرجًا أم لا. الـجواب هو نعم بالتأكيد. وهذا هو الـمقصد. من الضروري أن تـجعلي ابنك يجرِّب تبعة عاطفية سلبيـة ذات قـوة كافية تدفعه إلـى البدء في السيطرة على سلوكه اللااجتـماعي في الـملعب.

وعندما يبدر عنه تصرّف مشابه عند اللعب في الـمنزل مع أحدكما أو كليكما، يجب إيقاف اللعب فورًا وإرساله إلـى غرفته حيث يبقى إلـى أن يقدّم اعتذارًا خطِّيًا إليكما. وينبغي أن لا يقلّ الاعتذار الـمكتوب عن صفحة كاملة وأن يشرح فيها لـماذا تُستهجن مظاهر السخرية والاستياء أثناء اللعب.

إنَّ الاعتذار بلسم للروح، وما هو جيِّد للروح يساعد الأطفال على تقويـم سلوكهم.




@Ahmedyassin90

4
الـمبدأ الأساسي الرابع للرعاية الوالدية:
الأهمية هي للسلوك والأخلاق، لا للمهارات

أجْرَت غرفة التجارة في مدينة دايتون بولاية أوهايو الأميركية في العام 1997 استبيانًا لأرباب العمل الـمحلّيّين حول مواضيع مـختلفة. وعندما سُئِلوا عمّا يبحثون عنه في الـمرشّحين لشغل وظائف لديهم، أجابت أغلبية ساحقة منهم بأنّها تبحث عن الـخُلُق الـحميد أكثر من بحثها عن مهارات معيّنة ـ حتى الـمهارات الكومبيوترية. وقالت أيضًا إنَّ من السهل نسبيًّا العثور على أشخاص يجيدون استعمال الكومبيوتر، لكنّ العثور على أناس من ذوي الأخلاق العالية يزداد صعوبة.

وأعادت رسالةٌ تلقّيتُها قبل سنوات قليلة هذا الاستبيان إلى ذاكرتي. وكانت الرسالة ردًّا على إحدى مقالاتي وقد كَتَبَتْها سيِّدة يشغل زوجها منصب أستاذ في جامعة تكنولوجية شهيرة. إليكم ما قالته هذه السيِّدة:

«لا ينكر أحد أنّ الطلاب الذين يلتـحقون حاليًّا بهذه الـجامعة هم من الأكثر ذكاءً وكفاءةً بين الذين درسوا فيها عبر تاريخها. لكنّ افتقارهم إلى الـخُلُق القويـم والسيطرة على النفس أمر رهيب.

لن أُغرِقَك بقصص رعب عن التصرّفات الـمهدِّدة للطلاب أو الـمكالـمات الهاتفية الغاضبة لوالديهم بخصوص «الـمظالـم» التي «تـحمّلوها» على أيدي النظام

الجامعي، فهناك أناس كثيرون أقدر منّي على الحديث عن هذه الأمور. لكنّي أشعر فعلاً بأنّي مؤهّلة لأن أضع اللوم صراحةً على الوالدين المنتمين إلى جيلي. لقد ربّوا (جماعيًّا) جيلاً من الأطفال الذين يُبدعون كأفراد، لكن يقصّرون أيّما تقصير ككائنات بشرية. لقد نحّى هؤلاء الوالدون عيونهم عن الجائزة الحقيقية، وهذا استنتاج مؤسف، لكنّه غير متسرّع.

وقد قدّم صديق وزميل لزوجي أفضل إيجاز للموضوع، علمًا بأنّ هذا الرجل هو أكثر الناس لطفًا واتّزانًا وتفاؤلاً ممّن يمكن أن تقابلهم. ففي أحد أيام شهر أيار (مايو) الماضي دخل المكتب وأطلق تنهيدة اشمئزاز وقال: «أنا أُعلّم هنا منذ سبعة وثلاثين عامًا ولم أرَ في حياتي زمرة من البكّائين الكسالى الأنانيّين كالتي عرفتُها في الفصلين الدراسيَّين الأخيرَين.»

لقد ربّت أمي بمفردها عشرة أطفال، وتقول دائمًا إنّ أكبر خطأ يرتكبه الناس في تعاملهم مع أطفالهم هو أنّهم ينسون أنّ الهدف ليس تنشئة أطفال بل تنشئة راشدين. وكلّما تقدّمتْ بي السنّ كلّما ترسَّختْ موافقتي على ذلك.»

ماذا لدينا هنا؟ أطفال أذكياء يفتقرون إلى الخُلُق والسيطرة على النفس، والدون يربّون أطفالاً أبديّين لأنّهم نسوا أنّ الهدف هو تنشئة راشدين لا تنشئة أطفال، وأناس ناجحون كأفراد ومقصّرون ككائنات بشرية.

لقد أقنع الآباء والأمهات أنفسهم في هذه الأيام بأنّ جوهر الرعاية الوالدية المسؤولة هو تمكين أطفالهم من تعلّم مهارات معيّنة، لاسيَّما المهارات الكومبيوترية. لكنّ ذلك ليس منافيًا للحقيقة فقط، بل إنّ هذا الهوس بتربية الأطفال الأذكى في الحيّ يسدّ الطريق نحو تعليم الأخلاق الحميدة (ذلك لا ينفي الضرورة القصوى لتعلّم مهارات مُعيَّنة مثل القراءة). وإذا كنتم لا تصدّقونني فإليكم ما كتب إليّ مديرُ إحدى الشركات ردًّا على المقالة ذاتها:

«كان أحد أفضل الموظّفين عندي رجل شابّ لم يكن يمتلك خبرة في الكومبيوتر، لكنّه كان يمتلك الكثير من الاستقامة الشخصية والأمانة. وقد علّمناه ما

كان في حاجة إلى معرفته وهو يؤدّي عمله بنجاح في وظيفته الجديدة كمسؤول عن موجودات الشركة.»

والمديرة التي كتبت الرسالة التالية لم تكن تعرف شيئًا عن أجهزة الكومبيوتر حتى مرحلة متقدّمة من عمرها كراشدة. وهي تصف نفسها الآن بأنّها مهووسة كومبيوتر. كتبت تقول: «النقطة التي أريد تأكيدها هي أنّني لا أؤمن بضرورة تعاطي الأطفال مع أجهزة الكومبيوتر إلى هذه الدرجة لكي ينجحوا في الحياة أو في التعامل مع الكومبيوتر. إنّي أعرف أنّ هذا غير ضروري وأنا برهان حيّ على ما أقول.»

صحيح! يمكنك أن تُعَلّم الأشخاص ذوي الأخلاق الحسنة جميع المهارات تقريبًا، وسيكونون مفخرة لمجهودك التعليمي. كذلك يمكنك أن تُعَلّم الأشخاص ذوي الأخلاق السيئة جميع المهارات تقريبًا، لكن هل سيكون هذا مفخرة لك؟ لا، وهذا ما يقوله الأشخاص الذين يجب أن يعرفوا.

هناك أمر قُلْتُه سابقًا وأُعيد قوله الآن: إنّ الرعاية الوالدية ليست معنيّة باليوم أو الغد، بل بما يكون بعد خمسة وعشرين عامًا. تذكّروا هذا المبدأ وأَبْقوه في مقدّمة تفكيركم ولن تضلّوا سواء السبيل.

السلوك الحَسَن والأخلاق الحميدة

تكلّمتُ في إحدى المرّات أمام جمهور من حوالى ثلاثمائة أب وأمٍّ تجمّعوا في مدينة شارلوت بولاية نورث كارولاينا.

بدأتُ حديثي بالطلب التالي: «ليرفعْ يَده مَن يشعر بأنّ تحلّي الطفل بالسلوك الحَسَن أهمّ من نيل أعلى العلامات في المدرسة». وأنا واثق من أنّ كلّ شخص هناك رفع يده. بعد ذلك تحدّيتُ جمهور المستمعين أن يفكّروا في كونهم يمضون على الأرجح وقتًا أطول بكثير في مساعدة أطفالهم على نيل علامات دراسيّة عالية ممّا يمضونه في تعليمهم آداب حُسن السلوك.

طلبتُ إليهم أن يعودوا بذاكرتهم إلى أيّامهم في المدرسة الثانوية وأشَرْت إلى أنّ الطلاب ذوي السلوك الحسن لم يكونوا ربّما الأفضل في الدراسة، ولعلّ بعض هؤلاء كانوا يُعتبرون في الواقع أشخاصًا يبعثون على السأم. سألتُ الحاضرين قائلاً: «عندما تحضرون الاجتماع السنوي لقدامى صفوفكم المدرسية هل تسمعون أنّ أحدًا من هؤلاء المؤدَّبين المضجرين قد دمّر حياته بالكامل؟ كلا، لا تسمعون شيئًا من هذا القبيل. على العكس، فالاحتمال الكبير هو أن يحقّق المؤدَّب المضجِر نجاحًا كبيرًا كإنسان راشد، وحتى أن يبلغ نجاحه قدرًا لم يكن لأحد أن يتنبّأ به استنادًا إلى علاماته المدرسية فقط.»

أضفتُ قائلاً إنّنا نعرف جميعًا أشخاصًا كانوا طلابًا متميّزين ولامعين أكاديميًّا، لكنَّهم لم يفعلوا شيئًا في حياتهم كراشدين سوى تبديد مواهبهم.

كنتُ أحاول أن أنبِّه بصورة لطيفة إلى أنَّ الوالدين في هذه الأيام كثيرًا ما يقولون شيئًا ثم يفعلون شيئًا آخر. إنَّهم يعلمون أنَّ السلوك الحسن أفضلُ من العلامات الجيدة، لكنَّهم ينتبهون إلى العلامات أكثر من انتباههم إلى السلوك. الأمر ليس أنَّهم منافقون بل يتعلّق بتفضيل الوالدين المعاصرين التركيز على الأهداف قريبة المنال، مثل الحصول على علامات جيّدة. ويبدو أنّ الهدف بعيد المدى المتمثِّل في تنشئة مواطن صالح وإنسان راشد يحترم الآخرين ويحظى باحترام الآخرين، يضيع في زحمة الغايات القريبة.

إنَّ التعليم الخُلُقي للطفل يجب أن يحظى بالأولوية على التعليم الأكاديمي وإنّ جميع الجهود التعليمية الأخرى ستكون من دون معنى أصلاً إذا لم تكن مبنية على أساس خُلُقي متين.

هناك فيلم سينمائي عنوانه «هبّة من الماضي» (Blast From The Past) تتفتّح على أحد أبطاله حقيقةٌ أساسية بعد طول انتظار فيقول: «السلوك الحسن طريقة المرء لإظهار احترامه للآخرين»، وليس كما كان يُعتقد سابقًا بأنّه وسيلة لجذب انتباه الآخرين. ويقول أيضًا إنَّه اكتشف أنَّ السلوك الحسن هو أن تفعل كلّ ما في وسعك لمساعدة الناس المحيطين بك على الشعور بالارتياح.

وكما يشهد هذا المثال، لا يمكن الفصل بين الأخلاق والسلوك. والسلوك الحسن مظهر لصيق بالأخلاق الحميدة، ومحور الأخلاق الحميدة هو احترام الآخرين كما يتجلّى في السلوك الحسن الذي يتمثّل في الاجتهاد لجعل الآخرين يشعرون بالارتياح.

ومن المؤكَّد أنَّ والدي هذه الأيام سيقولون إنَّهم يريدون أن يمتلك أطفالهم أخلاقًا حميدة، لكن كم واحدًا منهم يأخذ فعلاً الوقت اللازم لتعليم أطفاله حُسن السلوك؟ ولا يكفي تقديم نماذج عن السلوك السليم لأنَّ تعليم السلوك يتطلَّب إعطاء درس بعد درس، فالتذكير والشرح والتصحيح والتدريب أمور تحتاج إلى وقت. وكان العالم ليُصبح مكانًا أفضل لو خُصِّص لتعليم الأطفال حُسْنَ السلوك نصف الوقت الذي يُمضيه والدوهم في أخذهم بالسيارات إلى نشاطات ما بعد المدرسة على اختلافها.

إنَّ تعليم أطفال ما قبل سن المدرسة حُسن السلوك يعود بفوائد عديدة، علمًا أنَّ التبكير في ذلك هو الأفضل. وما أوشك أن أقوله ليس مستندًا إلّا إلى تجربتي الشخصيَّة، لكنِّي مستعدّ للمراهنة بكلّ مدّخراتي على أنَّ السلوك الحسن لا ينفصل عن الطاعة واحترام الكبار وبذل أقصى جهد في المدرسة والحفاظ على علاقات طيِّبة مع الإخوة والأخوات والأصدقاء، ناهيك عن القول إنَّ والدَي الطفل حَسَن السلوك والتهذيب يسمعان أمورًا إيجابية كثيرة من والدين آخرين ومن المعلّمين والجيران. لكلّ هذه الأسباب يشعر الطفل الذي أصبح حَسَن السلوك بسعادة أعظم بكثير ممّا كان عليها من قبل.

إنَّ الأصول الأولى لِحُسْن السلوك التي يجب أن يتعلَّمها الطفل بحلول عامه الرابع هي التالية (دون ترتيب حسب الأولوية):

- قول «رجاءً ـــ من فضلك» و«شكرًا» و«عفوًا» في الموضع المناسب
- قول «آسف ـ أعتذر» عندما يسبّب ألمًا جسديًّا أو معنويًّا لشخص آخر

- قول «سامحني ـ لا تؤاخذني» عندما يكون ذلك مناسبًا (انظر أدناه لمعرفة متى لا يكون ذلك مناسبًا)
- السماح لرفاقه في اللعب باستعمال لعبه وحاجياته الأخرى
- قول «نعم» و«كلا ـ لا» بصورة مهذّبة
- عدم الشكوى من طعام أعَدّه شخص آخَر ووُضع أمامه (حتى لو من قِبَل أمّه)
- عدم مقاطعة الكبار عندما يتحدّثون، حتى لو قال: «عدم المؤاخذة.»

وأنا أُعَلِّق أهمية كبيرة على النقطة الأخيرة لأسباب متعدِّدة. أولاً، لأنّ الطفل يتعلّم الصبر عندما يتعلّم عدم المقاطعة. ثانيًا، لأنّ تعلُّم عدم المقاطعة يقوّي احترام الطفل للراشدين. ثالثًا، لأنّني أستاء كثيرًا عندما يقاطع طفل حديثًا بين راشدين.

وقد يبدو أنّ والدين كثيرين، إنْ لم يكن معظمهم، يعلّمون أطفالهم اليوم أنّه لا بأس في مقاطعة حديث بين راشدَين مهما يكن السبب، وذلك بالتقدّم نحوهما قائلاً: «عدم المؤاخذة». أنا أعرف ذلك من تجربتي لأنّ ما يحدث هو التالي: يتقدّم الطفل ببساطة نحو الكبار (والدَي الطفل وأنا) ويبدأ في الكلام. وعادة ما يقطع الوالدان حديثهما معي وينظران إلى الطفل ويقول أحدهما: «ماذا علّمتُك أن تقول؟» فيردّ الطفل قائلاً: «عدم المؤاخذة». ثم يوجّه الوالدان انتباههما إلى ما يقوله الطفل وأتمالك أنا نفسي وأنتظر صابرًا (ظاهريًّا على الأقلّ) أن يتذكَّر الوالدان أصول اللياقة والتهذيب.

في إحدى المرّات ألقيتُ محاضرة في جنوب كاليفورنيا تحدَّثتُ فيها عن الموضوع ذاته. بعد المحاضرة اقترب منّي رجل أنيقٌ لبقُ الحديث وعرَّف بنفسه كمواطن من جنوب أفريقيا وقال إنَّه يشعر هو أيضًا بالضيق والعجب من الآباء والأمّهات الذين يتساهلون مع تكرار مقاطعتهم من قِبَل أطفالهم. وأضاف أنّ أحد الأمور الأولى التي يتعلّمها الطفل في بلاده هو كيف يُنبئ الآخَرين بأنّه يريد أن يقول شيئًا. على الطفل في مثل هذه الحالة التوجُّه نحو المنطقة التي يتحاور فيها الراشدون والوقوف على مسافة معيَّنة منهم، حوالى مترين ونصف مثلاً. وتابع الرجل قائلاً إنّ

أيّ أحمق يستطيع أن يرى عندئذ أنّ الطفل يريد أن يتكلّم. وعندما يصل الكبار في حديثهم إلى مرحلة يبدو فيها التوقّف طبيعيًا، يلتفت أحدهم (والد الطفل أو والدته عادة) إليه ويسأله ماذا يريد فيبدأ الطفل في الكلام.

وهذا ما علّموني إيّاه بالتمام عندما كنتُ صغيرًا، ولا أبالغ إذا قلت إنّ معظم أقراني لُقّنوا هذا الدرس أيضًا. إذًا كيف يمكن لأناس تعلّموا هذه اللياقة الاجتماعية الهامّة التي تكشف بوضوح نوع التربية التي تلقّوها، أن يتهاونوا في نقلها إلى أطفالهم؟

الإجابة عن سؤالي تتلخّص في سببين:

1 ـ يبدو أنّ والدين كثيرين يعتقدون في هذه الأيّام أنّ الرعاية الوالدية تتمثّل في أخذ أطفالهم للمشاركة في مباريات كرة القدم فيما يتفرّجون هم من المدرّجات. هذه ليست رعاية والدية، الرعاية الوالدية ليست رياضة فُرْجة بل هي مشاركة كاملة.

2 ـ يميل الآباء والأمهات المعاصرون إلى بذل الكثير من الطاقة للقيام بأمور زهيدة القيمة أو فاقدة القيمة بالنسبة إلى الطفل على المدى البعيد، والقليل من الطاقة للقيام بأمور ذات قيمة دائمة (ومن شأنها في الواقع أن تسهّل مهمّتهم كثيرًا على المدى البعيد). من هذه الأمور مثلاً تخصيص الوقت الكافي لتعليم الطفل بالشرح والتدريب كيف ينبّه الراشدين إلى وجوده أثناء استغراقهم في حديث.

في هذا الخصوص أميل إلى تأييد الطرح الذي قدّمه السيد القادم من جنوب أفريقيا واعتباره فكرة صحيحة. علّموا أطفالكم الوقوف على مسافة معيّنة من الراشدين الذين يتبادلون الحديث والانتظار بصمت وسكون إلى أن يسترعوا انتباههم. وعليكم أن تزيدوا فترة الانتظار تدريجيًا إلى أن يتعلّم الطفل أن يبقى صامتًا وساكنًا مدّة خمس دقائق على الأقلّ.

لكنْ ماذا يُفترض بالطفل أن يفعل إذا كانت هناك حالة طارئة حقيقية؟

لماذا لا تعلّمون الطفل إشارة يدوية يستطيع استعمالها في مثل هذه الحالات؟ لنواجه الواقع: ما يعتبره الطفل حالة طارئة ليس كذلك دائمًا، أو قد لا يرقى حتى إلى ما يشبه حالة طارئة.

وما الذي ينبغي عمله عندما يقاطع الطفل حديث راشدين حتى بعد أن نكون قد علّمناه فنّ الانتظار؟

لا أعتقد حقًّا أنّ هناك وصفة جاهزة لحالة كهذه إلّا الحرص على أن يتعلّم الطفل أنَّ هناك تبعات لإساءة السلوك. أرسلوا الطفل إلى السرير باكرًا في تلك الليلة. أَلْغُوا زيارة مبيت مرتقَبة من أحد أصدقائه. ومهما يكن ما تفعلونه، يجب أن يكون من النوع الذي يرسخ في ذاكرته.

وعندما يتصرّف الطفل بشكل صحيح لا تنسوا أن تقولوا له كم أنتم فخورون به.

تعليم حُسن السلوك

قالت لي أمّ ابنة في الخامسة من عمرها بنبرة اعتذارية إنَّ لابنتها عادة سيِّئة هي مقاطعة حديث الآخرين. قلتُ في نفسي: «كلا، السوء ليس في الصغيرة لمقاطعتها الآخرين بل فيك أنتِ وزوجك لأنّكما لم تعلّماها ألّا تُقاطعهم.» ولا شكّ عندي في أنّهما كانا سيختلفان معي لو سمعا رأيي. وتقودني تجربتي مع الآباء والأمّهات إلى الاعتقاد بأنّ هذين الوالدَيْن كانا سيردّان على اتّهامي لهما بالإنكار وحتى السخط. من شأنهما أن يقولا: «لكنّنا نقول لها كلّما قاطعتْ أحدًا إنَّ هذا خطأ!»

هذا ليس تعليمًا. إنَّه «نقيق». إنَّه الأسلوب الذي يحاول معظم الوالدين تعليم أطفالهم حسن السلوك بواسطته. لكنَّ «النقيق» لا يولّد إلّا المزيد من «النقيق». ومع الوقت يؤدِّي إلى الازدراء أو إلى قلّة الاحترام في الحدّ الأدنى. إذًا، ماذا يتعيّن على الوالدين الراغبين في تعليم أطفالهم الصغار أصول اللياقات الاجتماعية أن يفعلوا لمعالجة مشكلة «النقيق» هذه التي ليست بالصغيرة؟

على الوالدين أن يفهموا أنّ السلوك الحَسَن يتنافى والطبيعة البشرية. فكِّروا في الأمر. ليس من طبيعة البشر المشاركة أو قول «شكرًا» أو انتظار الدور. الطبيعي للإنسان هو أن يكون أنانيًا وأن يستهين بالآخرين وأن يكون الأول في الطابور. لهذا السبب لا يتخلّص الأطفال من السلوك السيِّئ عندما يكبرون ولا يستوعبونه أيضًا بفعل التخالط الاجتماعي. السلوك الحَسَن لا يأتي إلّا عبر التعلُّم. ولنواجه الحقيقة هذه المرة أيضًا: بما أنّ إحلال التهذيب القويم مكانَ الطبيعة البشرية شبيه بالتجذيف عكس التيّار، ليس من السهل تعليمُ طفل السلوك الحَسَن، فهذه مهمّة تحتاج إلى جهد. هل أنتم مستعدّون لبذل هذا الجهد؟ إليكم خطّتي ذات النقاط الخمس لتعليم طفل صغير حُسْنَ السلوك:

1. **أَعِدّوا مشروعًا.** كلّما أردتم تعليم الطفل شيئًا جديدًا، مثل استعمال المرحاض أو عدم مقاطعة الآخرين أو الأكل بالملعقة أو ترتيب السرير، يجب أن تُعِدُّوا مشروعًا. لا تستطيعون تعليم هذه المهارات عشوائيًا أو بأسلوب المصارعة الحرّة وأن تتوقّعوا النجاح في ما تفعلون. زوجتي ويلي وأنا أخذنا حفيدنا جاك البالغ من العمر تسع سنوات معنا في رحلة وضعنا خلالها مشروعًا خاصًا بآداب المائدة. قبل تناول كلّ وجبة كنّا نجلس مع جاك ونراجع آداب المائدة كافّة. حَصَرْنا اهتمامنا بالمبادئ الأساسية، مثل الانتظار إلى ما بعد وضع الطعام أمام جميع الحاضرين ودعاء الشُكْر، ورجاء شخص آخَر تمرير شيء ما وليس مدّ الذراع لجلبه، وطلب المعذرة لمغادرة المائدة وليس النهوض والابتعاد ببساطة. وعندما كان جاك يرتكب زلّة أثناء وجبة طعام ـ ونادرًا ما زلّ بفضل المراجعة ـ كنّا نذكّره بالتصرّف الصحيح بأسلوب لطيف. وحرصنا في ما بعد على إبلاغه كم نحن فخورون به. بكلام آخَر، أبقينا موضوع آداب المائدة تحت ناظريه طوال ثلاثة أيام. وثلاثة أيام كانت كافية. الحقيقة أنّ جاك كان يعرف آداب المائدة قبل الرحلة، لكنّه كان في حاجة إلى صقلها قليلاً. وإذا كنتم تُعَلّمون طفلاً لياقة لم يسبق له أن تعلّمها، فتوقّعوا أن يستغرق «مشروعكم» مدة تتراوح بين أسبوع وأسبوعين.

2. **علّموا الطفل لياقة واحدة أو مجموعة مترابطة من اللياقات كلّ مرّة**. كلّما كان الطفل صغيرًا ازدادت أهميّة هذه النقطة. كان من المعقول أن نتوقّع من جاك ابن السنوات التسع أن يتذكّر لياقات عدّة ينطبق جميعها على وضع محدّد. لكنْ لو كان عمر جاك أربع سنوات آنذاك لاخترنا إعداد مشروع يتضمّن لياقة واحدة من آداب المائدة كلّ مرّة. وتعليم طفل دون الخامسة من العمر أكثر من لياقة واحدة صعب جدًّا وتتمثّل ترجمته في إحباطات كبيرة للوالدين والطفل على السواء.

3. **درّبوا الطفل على آداب السلوك قبل حلول المناسبات التي ستلزم فيها**. لنفترض أنّكم تحاولون تعليم طفل في الرابعة من العمر أن ينظر إلى وجوه الناس مباشرة ويقول: «مرحبًا» عندما يخاطبه أحدهم، فتدرّبون الطفل مباشرة قبل كلّ مناسبة تستدعي منه أن يتصرّف على هذا النحو.

4. **ذكّروا الطفل بالسلوك الملائم عند الحاجة، لكنْ بلطف**. الأمر بسيط. لا تُجيز أصولُ اللياقة توبيخ طفل بشدّة أو بصوت مرتفع عندما يكون هناك راشدون آخرون. تذكّروا أنّ الهدف من السلوك الحَسَن هو جعل الأشخاص المحيطين بنا يشعرون بالارتياح. وسماع شخص راشد يوبّخ طفله بصوت غاضب أمر مزعج بالتأكيد، فامتنعوا عنه. وإن احتاج طفلكم إلى تذكير، خذوه جانبًا أو اهمسوا في أُذُنه. وسيفي الهمس بالغرض إذا كنتم قد نفّذتم مشروعًا ناجحًا لتعليم اللياقة المقصودة.

5. **تذكّروا المديح**. إنّ أصدق تعبير عن المديح الذي تقدّمونه هو عدم المبالغة والتزام الموضوعية. لا حاجة بكم إلى القفز والتصفيق عندما يفعل طفلكم أمرًا صحيحًا. يكفي إطراء بسيط مثل قولكم: «لقد أحسنتَ التصرّف وكنتَ مُهَذّبًا هذا المساء ونحن فخورون جدًّا بك.»

كتبتْ لي سيّدة هي أمّ لثلاثة أطفال، رسالة تُعتبَر شهادة تَبَنٍّ لخطّة النقاط الخمس (لم تكن السيّدة تعلم بالخطة قبل كتابة الرسالة)، وأنا أنشرها هنا على أمل أن يلتزم والدون آخرون بالقضية.

كتبت هذه الأم تقول: «قبل أن أُرزَق بأطفال لم أستطع أن أفهم أبدًا لماذا يسمح والدون مُعيّنون لأطفالهم بأن يقاطعوا على هواهم أشخاصًا راشدين

يتحادثون، سواء على الهاتف أو وجهًا لوجه. مثلاً، عندما أتحدَّث على الهاتف مع زوجة شقيقي، تتوقّف تكراراً عن مخاطبتي وتبدأ في التحدّث مع ابنها الذي صار عمره سبع سنوات! أشعر بأنّي أُوضع بلا مقدّمات على خطّ الانتظار كلّ دقيقتين تقريبًا. كذلك لديّ صديقة يبدو أنّها لا تعرف مع مَن تتحدّث عندما أزورها في منزلها ــ معي أنا أم مع ابنتها ذات السنوات الستّ.

لقد حرصتُ على ألّا يتحوّل هذا الأمر إلى مشكلة مع أطفالي. وبما أنّ أيًّا من أطفالي لا يقاطع الآخَرين، حسبتُ أن الموضوع قد يهمّك. هذا هو الأسلوب الذي اتّبعتُه:

عندما يصبح عمر الطفل عامين أو حتى دون ذلك قليلاً في بعض الحالات، أبدأ في تمثيل جلسات تدريبية مفُترضة. أتظاهر بأنّي أخاطب شخصًا راشداً آخرَ ويتظاهر الطفل بأنّه يريد أن يطلب منّي كوب ماء.

وفيما أنا «أتحدَّث» مع صديقتي الوهمية أطلب من طفلي أن يدخل الغرفة ويقف في مكان محدَّد، وأنا دقيقة جداً في تحديد الموضع الذي يجب أن يقف الطفل فيه (على بُعْد حوالى مترين ونصف منّي). أقول له إنّ عليه أن يقف ساكتًا إلى أن أنتبه إلى وجوده. عندئذ أستدير نحوه وأسأله: «هل أستطيع مساعدتك؟» وعليه أن يقول رداً على سؤالي: «أرجو عدم المؤاخذة» ثم يُفصِح عن مراده.

[لاحظوا جميعًا أنّ هذه الأمّ تعلّم طفلها أنّ عبارة «عدم المؤاخذة» لا تُستعمل من أجل المقاطعة بل هي مخصَّصة لمرحلة ما بعد الانتباه إلى وجود الطفل.]

نكرِّر هذا المشهد مرّات قليلة، وأقول له في كل مرّة كم كان مهذّبًا وهو ينتظر انتهاء الماما من حديثها وإنّه أظهر كثيراً من الصبر عندما انتظر طول هذا الوقت وإنّه كبر حقاً ويتحلّى بحُسْن السلوك. ونعقد جلسات تدريبية من هذا النوع كلّ يوم لمدّة أسبوع، وفي كل مرّة أُطيل فترة انتظاره قليلاً قبل أن أومئ إليه بأنّي انتبهت لوجوده. وفي نهاية الأسبوع يصبح طفل في الثانية من عمره قادراً على الانتظار لمدّة دقيقة تقريبًا!

بعد ذلك، إذا نسي الطفل ما تَعَلَّمه وقاطع حديثًا بين راشدين لا أتردّد في النظر إليه نظرة صارمة لأقول له بنبرة لا تقلّ صرامة: «أنتَ لا تقاطع الراشدين وأنتَ تعلم ذلك.» ويؤدّي هذا الردّ بصورة نمطية إلى إسكات الطفل فوراً فينتظر فيما أتابع أنا محادثتي. بعد حوالى دقيقة واحدة أستدير نحوه وأسأله: «الآن، هل أستطيع مساعدتك؟» غير أنّي لا أُضطرّ إلى ذلك في بعض الأحيان لأنّ الطفل يكون قد نسي ما جاء من أجله وغادر الغرفة.

وإذا حصلتْ مقاطعة بالفعل نعقد جلسة تدريب جديدة في وقت لاحق. ولم أُضطرّ أبداً إلى معاقبة أيّ من أطفالي بسبب مقاطعة الكبار لأنّ ذلك لم يحدث إلا مرّة واحدة أو مرّتين مع كلّ منهم، وفي كل مرّة كان ردّي كافيًا ليتذكّروا في وقت لاحق أنّ المقاطعة غير مسموحة.

عليك أيضًا أن تكتب مقالاً عن الأطفال الذين يلمسون السلع المعروضة في المتاجر. فقبل فترة قصيرة قالت لي إحدى الأمّهات إنّ من المهمّ الامتناع عن معاقبة الطفل لِلمس حاجيات في المتاجر. وبرّرتْ موقفها بالقول إنّ الأطفال الذين يمتلكون رغبة قوية في لمس الأشياء وتحسُّسها أشخاصٌ مُبدعون جداً وإنّ حرمانهم من متعة لمس كل شيء يودّون تحسّسه في المتجر هو خنقٌ لإبداعهم.

كلّ ما أستطيع قوله هو أنّ أطفالي مبدعون جداً، لكنّهم لا يلمسون سلعًا في المتاجر.»

من المشجّع أن نعرف أنّ هناك والدين يدركون أنّ أفضل تأديب هو التأديب الوقائي لأنّه يمنع سوء السلوك ويُلغي ضرورة التأديب العقابي، وهؤلاء هم الوالدون الذين لا يتذرّعون بالهراء السيكولوجي لتبرير قلّة التهذيب.

كان ويليام أوف ويكهام (William Of Wykeham) الذي عاش بين عامَي 1324 و1404 وأسَّس كلّية ونشستر (Winchester College) والكلية الجديدة (New College) في أوكسفورد، يعتقد بأنّ الأخلاق هامّة للعلم إلى درجة أنّه جعل

عبارة «الأخلاق تصنع الإنسان» شعارًا لهاتين المؤسَّستَيْن العلميَّتَيْن الجليلتَيْن. ونعمة الأخلاق الحميدة، لا كرة القدم ولا البيانو ولا الرياضة ولا حتى العلامات العالية، هي التي تميّز الرجال عن الصِّبية والسيّدات عن البنات. وإن أردتم لأطفالكم أن ينشأوا ليصبحوا أشخاصًا يتحلّون باللباقة والسحر وكلّ الخصال الكريمة التي «تصنع» النضج، وجِّهوا جُلّ اهتمامكم إلى الناحية التي ستظلّ تؤثّر فيهم أكثر من كلّ ما عداها إلى أن يصبحوا راشدين، ألا وهي الأخلاق الحميدة.

تعليم الفضائل

لا أستطيع استكمال حديث عن الأخلاق من دون التشديد على أهمية تعليم الأطفال القيم الدينية، أي الفضائل. اصطحبوا أطفالكم إلى دُور العبادة. وإذا أشركتموهم في نشاط واحد بعد المدرسة، فليكنْ ذا طابع ديني أو في إطار مجموعة شبابية دينية يشرف عليها شابّ أو شابة من ذوي الكفاءة أو زوجان يُعتبران نموذجًا للإخلاص الزوجي. وتشير جميع الأبحاث بوضوح إلى أنّ الأطفال الذين يتلقّون تعليمًا دينيًا، مَهْما يكن المذهب، وينالون تأسيسًا متينًا في القيم المناقبية عن طريق الإرشاد الخُلُقي المستمرّ هم أقلُّ وأقلّ وأقلّ تعرّضًا لخطر الانزلاق نحو ممارسات مرفوضة اجتماعيًا أو مدمّرة للذات من أيّ نوع، لاسيّما في سنوات المراهقة الحرجة. تقلّ لديهم احتمالات تعاطي المخدّرات وممارسة الجنس قبل الزواج والتعرّض للتوقيف من قِبَل الشرطة لأي سبب والوقوع في مشكلات سلوكية أو أكاديمية. يُضاف إلى كل ذلك أنّ هؤلاء الأطفال يتمتّعون عندما يكبرون بأعظم الفرص لبناء زيجات ناجحة.

وقد ثبت ذلك مرّة تلو أخرى في دراسات أُجريت من قِبَل هيئات مثل المعهد الوطني لأبحاث الرعاية الصحية (The National Institute of Healthcare Research)، ومؤسّسة التراث (Heritage Foundation)، وجامعة نبراسكا وجامعة ولاية أريزونا، والدراسة الوطنية الطولية لصحة الأحداث (The National Longitudinal Study on Adolescent Health-LSAH) والمركز الوطني للإدمان

وإساءة استعمال المواد المخدّرة (The National Center on Addiction and Substance Abuse-CASA) التابع لجامعة كولومبيا. وفي ما يلي تجدون ما كتبه الباحث مايكل رزنيك (Michael Resnick) العامل في الدراسة الوطنية الطولية في نشرة الجمعية الطبيّة الأميركية في العام 1997:

«كذلك بدأ علم الاجتماع يشير إلى أنّ للديّن، وهو موضوع عُرِفَ عن علماء الاجتماع تردّدُهم في ملامسته، فضلاً كبيراً في وقاية الأطفال من الوقوع في متاعب، دون اعتبار لواقعهم الاقتصادي. وهناك أدلّة متزايدة على أنّ الذكور المقيمين في الأحياء الفقيرة داخل المدن، الذين يرتادون دور العبادة، أقلّ جنوحًا إلى ارتكاب جرائم من ذكور آخرين ينتمون إلى الشريحة الاقتصادية ذاتها. وتتوفّر مؤشّرات ترجيحية وليست إثباتية بعد، تفيد أنّ البرامج الدينية في السجون تخفّض نسبة الانتكاس الإجرامي لدى المساجين الذين يشاركون فيها بالمقارنة مع مساجين شبيهين غير مشاركين في السجن ذاته. ولا نعلم ما إذا كان لتشجيع التربية الدينية لدى الطفل أو دعمِ نشاطات الهيئات الدينية الهادفة إلى حماية الأحداث، نتائجُ مماثلة لتلك التي نلاحظها الآن في العلاقة البسيطة بين التديُّن والاستقامة.»

كان جوزيف كاليفانو (Joseph Califano) وزيرًا للصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية في عهد الرئيس جيمي كارتر. بعد ذلك أصبح رئيسًا لمشروع المركز الوطني للإدمان وإساءة استعمال المواد المخدّرة. وهو لا يتحدّث فقط عن أهميّة الدين في حياة الطفل بل يؤكّد في مضمون كلامه ما سبق وقلتُه أنا عن الأهمية النسبية لنشاطات ما بعد المدرسة. يقول كاليفانو:

«إنّ الديّن عامل أساسي في تلقين أطفالنا قِيَم الفضيلة والمهارة والإرادة اللازمة لقول «لا» للمخدّرات المحرَّمة والكحول والسجائر... وإذا اصطحب الوالدون أطفالهم في سنّ مبكرة جداً إلى أماكن العبادة يمكنهم أن يساهموا مساهمة كبيرة في جعلهم يقاومون إغراء هذه الممنوعات... إنّ مساهمة الوالدين عامل وقائي بالغ الأهمية. وكلّما زاد عدد المرّات التي يتناول فيها المراهقون

وجبات العشاء مع والديهم قلّت احتمالات وقوعهم في إغراء التدخين أو شرب الكحول أو تعاطي المخدّرات.»

إنّ كلّ حضارة ناجحة بُنيت على أساس متين من القِيَم الدينية. وكلّ حضارة آخذة في الانهيار تخلّت عن القيم الدينية وتبنّت قيمًا علمانية عوضًا عنها. وتُوفِّر القِيَم الدينية للطفل علامات هادية للعيش حياة طيِّبة وفاضلة، ناهيك عن القوّة الكامنة في عبارة «قلْ: لا» لتلك المجموعة الهائلة من الإغراءات، بما فيها نزعة اللجوء إلى العنف لتسوية الخلافات.

لقد دأبتُ منذ زمن طويل على القول إنّ الأطفال الذين نشأوا في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي كانوا أكثر تهذيبًا بكثير من أطفال اليوم. لا تسيئوا فهمي. كنّا أبعد ما يمكن عن الكمال. كنّا نسيء التصرُّف طبعًا، لكنّ معظم ارتكاباتنا لم تكن أكثر من إزعاجات، لاسيّما عند مقارنتها بما يفعله الأطفال اليوم. ومن المهمّ أن نلاحظ في هذا السياق أنّ نسبة الإجرام بين المراهقين من جميع الشرائح الاقتصادية والاجتماعية قد ارتفعت بشدّة منذ ستّينيات القرن الماضي وأنّ الجناة الأحداث اليوم يرتكبون ما كان يُعتبر في الماضي جرائم مقتصرة على الكبار، مثل الاغتصاب والقتل والاعتداء بسلاح قاتِل والسرقة المسلَّحة وترويج المخدّرات.

في أيام طفولتي كان الصغار يزعجون الآخرين ويعبثون ويحاولون التستّر على أفعالهم. كنّا نحاول النجاة من تبعات أعمالنا عندما لم يكن الراشدون يراقبوننا على أمل ألّا يكتشفوا أمرنا. ويقول لي مديرو مدارس ومعلّمون إنّ أطفال اليوم لا يبدون مهتمّين بما إذا ضُبِطوا أم لا، لأنّهم لا يخافون من الراشدين أو من العواقب. وأفترض أنّ السبب في ذلك هو أنّ الكبار لم يعودوا يعطون الأطفال دافعًا للخوف منهم أو ممّا قد يفعلون.

في طفولتنا كنّا نعرف أيضًا متى أسأنا التصرّف. لنأخذ مثال الغشّ في الامتحانات. في العام 1965، وهو تاريخ تخرُّجي في المدرسة الثانوية، كان الطالب

الذي يغشّ في امتحان يعرف أنّه مذنب، مذنب، مذنب. وإذا ضُبِط لم يكن يقول للمعلّم: «أنا أغش لأنّ هذا ما عليك أن تفعله إذا أردتَ أن تُقبَل في كلّية جيّدة.»

لكم أن تصدّقوا أو لا أنّ هذا ما يقوله أطفال اليوم في أحيان كثيرة عندما يُضبَطون وهم يغشّون. وأظهرت دراسة أجراها أخيرًا دونالد ماكّيب (Donald McCabe) الرئيس المؤسّس لمركز النزاهة الأكاديمية في جامعة راتجرز (Rutgers University)، أنّ حوالى ثلاثة أرباع طلاب المدارس الثانوية في الولايات المتحدة أقرّوا بأنّهم غشّوا في امتحانات رئيسية أو علم كتابيّ (الانتحال مثلاً). كذلك اكتشف ماكّيب أنّ قلّة فقط من هؤلاء الطلاب شعروا بأيّ نوع من الحياء أو الندم. وكتب أحد الغشّاشين: «تفعل ما يلزم كي تنجح في الحياة». وقال آخَر انتحل مواد من عدّة مصادر في بحث أعدّه عن رواية ماكبث لشكسبير: «الندم يُبطِئُك فقط». وهذا في رأيي أمر مخيف.

ويلاحظ غشّاشو هذا الزمان أن لا شيء يحدث للآخَرين عندما يُضبطون وهم يغشّون. في أيامي أنا في المدرسة كان الطالب الذي يُضبَط وهو يغشّ يرسب في صفّه غالبًا (ولم يكن الوالدان يوكّلان محاميًا للدفاع عن «حقوق» هذا الراسب). وإذا غشَّ طالب في امتحانات آخِر السنة كان من المحتمل أن يُطرد من المدرسة. في هذا الزمان يُكلَّف الطلاب الغشّاشون في أحيان كثيرة بأخذ صيغة أخرى من الامتحان ذاته أو بإعادة كتابة البحث المشوب بالانتحال. هكذا ببساطة. وأسوأ ما يحدث عادة لطالب غشّاش الحصول على علامة صفر في المادّة المعيّنة.

أنا لم أغشّ لأنّي كنت أخاف ـ أتجمّد من الرعب بتعبير أدقّ ـ ممّا سيحدث لو ضُبِطْت. أمّا الآن فَمِمَّ الخوف؟ الواقع أنَّ معلّمًا يتجرّأ على إعطاء طالب غشّاش علامة رسوب قد يجد نفسه واقعًا في متاعب. وهذا ما حدث في ولاية كانزاس الأميركية خلال السنة الدراسية 2001 ـ 2002. فعندما أعطت معلّمة اللغة الإنكليزية علامات رسوب لحوالى اثني عشر طالبًا لانتحالهم نصوصًا من الإنترنت اشتكى ذووهم وأجبر مديرُ المدرسة المعلّمةَ على إعطاء الطلاب علامات جيّدة فاستقالت.

أنتـم ترون أنّ الـمشكلة ليست الأطفال في حقيقة الأمر. لقد حاول الأطفال دائمًا أن ينجوا بفعلتهم كلّما استطاعوا. الـمشكلة تكمن في الراشدين الذين يتجنّبون القول صراحة إنّ الغشّ خطيئة موصوفة واضحة وإنّه لا يوجد عذر للغش. مثلاً، كتبتْ مراسلة لصحيفة «واشنطن بوست» في مقال عن الغشّ أنّ طلاب اليوم «لـم يسقطوا أخلاقيًّا منذ جيل كامل» (بـمعنى أنّهم ليسوا ملومين)، فالـمشكلة هي أنّ الإنترنت يـجعل الغشّ بالغ السهولة. وتختتـم كلامها بالقول: «مَن يستطيع أن يقاوم الإغراء؟»

هذا جنون. الـحقيقة هي أنّ طالبًا واحدًا من بين كلّ أربعة يقاوم الإغراء، ما يثبت أنّ الـمشكلة ليست الإنترنت، الـمشكلة هي أولاً أنّ أطفالاً كثيرين اليوم ساقطون أخلاقيًّا ويعتقدون مثلـما يعتقد الـمجرمون، أنّ الغاية تبرِّر الوسيلة. وثانيًا أنّ راشدين كثيرين هم أكثر جُبنًا من أن يتصدَّوا لوباء إجرام الأطفال في أميركا.

هل هناك أسئلة؟

سؤال: لديّ ابنة في الـخامسة من العمر اجتـماعية الطباع ومنفتـحة جداً على الناس، وقد بدأتْ في الآونة الأخيرة تنادي الكبار بعبارة «يا حليوة». وهي تعلّمتْ هذه الكلـمة من أخت أكبر منها كانت تناديها «يا حليوة» داخل الـمنزل ومن باب الـمزاح (لكنّها لـم تستعمل هذه الكلـمة أبداً في حديثها مع الراشدين). وأعتقد أنّ هذا التصرّف غير لائق وقد شرحتُ لها الفرق بين التـحية الصحيحة والتـحية الـخاطئة. الـمشكلة هي أنّ ابنتي مشوّشة لأنّها تُعاقَب على هذا القول لأنّ معظم الراشدين يتقبّلون تـحيتّها بقليل جداً من الامتعاض كما يبدو ويضحكون كثيراً لها! وعندما أُنبِّهها إلى ذلك أمام أحد الراشدين، يقول لي هذا الشخص الراشد غالبًا ما معناه: «آه، لا تكوني سخيفة ـ إنّها لطيفة ومضحكة.»

أنا لا أظنّ أنّ في الأمر ما يُضحِك وأعتقد أنّ تصرّف ابنتي فظّ وفاقد الاحترام. وما زلتُ أبحث عن طريقة أردّ بها على هؤلاء الناس كي يفهموا أنّني أحاول تربية ابنة مهذَّبة حسنة السلوك.

جواب: الردّ المناسب على شخص من هؤلاء هو: «إذا كنتَ لا تستطيع دعمي في هذه المسألة فيجدر بك أن تُبقي فمك الكبير المنتفخ مُطْبَقًا ـ يا حليوة.»

أنا أمزح بالطبع. تعلمين فعلاً أنّني متّفق معك في الرأي. لكنّ من واجبي أن أقول لك إنّ ابنتك ليست مشوّشة إلا إذا كانت عاجزة عن استيعاب المفاهيم البسيطة، وأنا واثق من أنّ هذا لا ينطبق عليها. لقد شرحتِ بوضوح توقّعاتك وابنتك ذكية بما يكفي لتفهم. يُضاف إلى ذلك أنّ الضحكات التي يُغدِقها عليها الكبار تطغى بسهولة على أيّ عقوبة تستطيعين فرضها عليها. عليك أن تتقبّلي هذا الواقع، لكنّ عليك في الوقت ذاته أن تواصلي معاقبتها على عدم إطاعتك. ويجدر بك أيضًا أن تُبلغي أختها الكبيرة بأنّه لم يعد من المسموح لها أن تقول «يا حليوة» في المنزل، حتى من باب المزاح.

الأفضل من ذلك أن تُحضِري ابنتك ذات السنوات الخمس إلى منزلي لتعرّفيني إليها. وعندما تناديني «يا حليوة» سأحدجها بنظرة ماحقة وأقول لها: «ماذا قلتِ؟ أنا لستُ حليوة، وبالتأكيد لستُ طفلاً في الخامسة. أنا السيّد روزموند. شكرًا.» وسيجعلها ذلك تفكّر مرّتين قبل أن تنادي شخصًا راشدًا بعبارة «يا حليوة». بالمناسبة، لماذا لا تجدين في بلدتك شخصًا يقول لها هذا الكلام؟ رتّبي الأمر. وإن لم تنجح المحاولة الأولى كرّريها مع شخص آخَر لديه استعداد لمساعدتك لأنّ هذا سيكون أجدى من معاقبتها في نهاية المطاف.

سؤال: عمر ابنتي ستّ سنوات وأنا قلقة بشأنها لأنّها نادرًا ما تنظر في عينَي شخص تتحدَّث إليه. ابنتي ذكية جداً وتُصغي بانتباه وتكسب أصدقاء بسهولة وتجيب عن الأسئلة في الصفّ وتحبّ حتى أن تُطلع زملاءها في الصفّ على وقائع من عندها وأن تشارك في ذلك جميع تلاميذ صفّها. وقد كان معلّم الكاراتيه أوّل مَن أبلغني عندما كانت في الخامسة من العمر أنّها لا تنظر في عيون الآخرين. وأشار حتى إلى أنّها قد تعاني من اضطراب نقص الانتباه. لكنّ طبيب الأطفال ومعلّمة الروضة قالا إنّ هذا كلام سخيف. ومنذ ذلك الوقت أحاول أن أحقّق تواصلاً عينياً (بالعينين) معها عندما أكلّمها. لكنّي لا ألاحظ أيّ تحسّن، ويزداد

جزعي من قصور التواصل العَيْني لديها عندما أقارنها بأختها ابنة السنتين التي تنظر في عيني بكل جرأة عندما تكلّمني. هل يجب أن أشعر بالقلق من الأمر، وإذا كان الرد بالإيجاب، فكيف يمكنني أن أشجّع التواصل العَيْني دون اللجوء إلى أساليب متشدِّدة؟

جواب: يكون قصور التواصل العَيْنيّ أحيانًا مؤشِّرًا إلى مشكلات تطوّرية، لكنْ ليس عندما يكون الطفل المعنيّ اجتماعي الطباع محبًّا للتواصل وحَسَن التهذيب. ووجود خصلة شاذّة معزولة واحدة لا يشير عمومًا إلى أي شيء سوى الأمر التالي: لو عُرِفت الحقيقة لتبيّن أنّ لنا جميعًا خصالاً شاذّة.

أنصحك بأن تواجهي هذه المشكلة بصورة مباشرة وصارمة إلى حدٍّ ما. بكلمات أخرى، لا أعتقد أنّك ستحقّقين نتائج تُذكر في محاولاتك تشجيع التواصل العَيْنيّ. وبالنسبة إلى حديثك عن الأساليب المتشدِّدة: إذا كنت تعنين بذلك الصرامة، نعم، أظنّ أنّ الصرامة هي ما تحتاجين إليه. يريد والدو هذه الأيام أن يقاصصوا أطفالهم على إساءة السلوك دون أن يسبِّبوا إزعاجًا لهم. إنّها فكرة جميلة وهناك حتى خبراء يدّعون أنّ تحقيقها ممكن. لكنّي أعتقد شخصيًّا أنّ هذا وَهْم كاذب.

أولاً، إنّ إحجام طفل في هذا العمر عن النظر في عَيْنَي شخص راشد يتكلّم معه يشكِّل تصرُّفًا مسيئًا بلا ريب. ولو كان الطفل في عامه الثالث فلا حرج عليه، لكنّه يُسأل إذا كان في عامه السادس. ثانيًا، لا يمكن إقناع طفل سيِّئ السلوك بتقويم سلوكه عن طريق الكلام، وعليكِ أن تقولي لابنتك بعبارات لا لبس فيها إنّ عدم النظر في عيون الأشخاص الذين يكلِّمونها تصرّف فظّ لا يقلّ فظاظة عن عدم ردّ التحية لشخص بادَر إلى إلقائها.

قولي لها إنّ هذه مسألة تهذيب وإنّك لن تتغاضي بعد الآن عن تصرُّفها على هذا النحو مع الآخرين ومعك أنتِ شخصيًّا.

ساعديها في خلال أسبوعين على اكتساب عادة التواصل العَيْنيّ مع الناس عن طريق استنباط أدوار وتمثيلها. وعندما تفعل الشيء الصحيح امتدحيها،

وعندما تزوغ عيناها أوقفيها واجعليها تنظر إليك. وبعد هذه الفترة الانتقالية الأولى إبدئي مشروعك: اسمحي لها يوميًّا بتجاوزَيْن ـ أي شردتَيْن من عينيها ـ مُعفيَيْن من أيّ تبعة. أمّا التجاوز الثالث فعقابه تعليقُ الامتيازات الخاصّة لبقية النهار والذهاب إلى السرير في وقت مبكر. وعندما تنجح ابنتك في الالتزام بما يُطْلَب منها، خفِّضي الإعفاء إلى تجاوز واحد في اليوم. ومن المؤكّد أن تؤدِّي المواظبة إلى تحسّن كبير في غضون أسابيع قليلة، إن لم يكن أبكر. تذكَّري فقط أنّ روما لم تُبنَ في يوم واحد. لكنّ من الممكن إعادة تقويم ما اعوجّ على امتداد سبع سنوات خلال فترة زمنية قصيرة نسبيًّا إذا كنتِ مستعدّة لأن تكوني متشدِّدة أكثر قليلاً ممّا تريدين.

سؤال: لدينا طفلان، ابنة في الثامنة وابن في السابعة من العمر. وتعاني ابنتنا من إعاقة شديدة، ومنذ أن أدرك أخوها الصغير طبيعة إعاقاتها العقلية والجسدية ومداها صارت تنتابه مشاعر مَقْت لها على فترات لاستئثارها بقدر كبير من اهتمامنا. ويبدو أنّ الشروح المتكرِّرة التي قدّمناها لأسباب هذا الوضع لا تلقى منه إلا أُذُنًا صمّاء. وتتركّز شكواه الرئيسية على أنَّه ليس من «العدل» أن تكون هي أختًا له. وتدوم إحدى هذه الفترات مدّة أسبوعين تقريبًا ثم تتوقّف الشكوى فجأة وبسرعة مثلما بدأت. لكنْ ما إن يمضي شهران حتى يبدأ تذمّره من جديد. ويحاول كلٌّ منّا على حِدة أن يُمضي معه أطول ما يمكن من الوقت، لكن لا شيء يرضيه كما يبدو. وإذا أردنا إعطاء ابننا مزيداً من الاهتمام فسنكون مُجبَرين على وضع ابنتنا في مؤسّسة داخلية للرعاية، وهذا خيار لا نقبل به. ماذا نفعل إذاً؟

جواب: من الواضح أنّكما لم تسمعا من قبل بمبدأ روزموند للوجه المتغضِّن. وجه الإنسان يبدأ في التغضّن عندما يشرح لطفلٍ المفهومَ ذاته أو الفكرةَ ذاتها للمرّة الثانية.

إلى أيّ حدّ يجب أن يتغضّن وجهكِ قبل أن تدركي أنّك لن تضعي حدًّا لتذمّر ابنك عبر الشرح الصبور لحالة أخته؟ إن كان ابنك ذكيًّا ولم تتركي شيئًا لم تقوليه له عن حاجة أخته إلى الرعاية المستمرة تقريبًا، يكون الوقت قد حان لكي تتوقّفي عن

الشرح وتأمريه بأن يتمالك نفسه. عليك أن توقفي هذا المسلسل ذا المشاهد المتكرّرة قبل أن يتحوّل ابنك إلى نَزِق لا شفاء له.

عندما يشكو في المرّة القادمة من جور حياته البائسة أنصحك بأنْ تُجري معه حديثًا وفق هذه التوجّهات: «عليكَ أن تَخجل لتفكيرك بنفسك طوال الوقت. وإذا كان يحقّ لأحد أن يشكو من ظلم الحياة، فهي أختك المسكينة. أنت ستتمكّن من الابتعاد عن مشكلاتها بعد حوالي إحدى عشرة سنة، لكنّها لن تستطيع أبدًا أبدًا الخلاص منها. هناك تفسير واحد فقط لشكاواك هو أنّنا أفسدناك لكثرة ما دلّلناك. لذلك قرّرنا ما يلي: كلّما تذمّرتَ من أختك سيكون عليك أن تَهَبَ إحدى لعبك المفضّلة كصدقة خيرية. وسنضع صندوقًا للهبات الخيرية في القاعة الخلفية، وعندما يمتلئ سنأخذه إلى مؤسسة خيرية تعطي أغراضك لأطفال يقدّرون ما يملكون. ولن نتكلّم مطلقًا بعد الآن عن حياتك الجائرة. لقد طفح الكيل واكتفينا، هل لديك أسئلة؟»

إنّ من شأن الطفل أن يُجيدَ كلَّ ما يتدرّب عليه بكثرة. وإن أردتِ لطفلٍ أن يصبح لاعبَ غولف ماهرًا أو حتّى متميّزًا اجعليه يبدأ باللعب باكرًا ويتدرّب كثيرًا. وإن أردتِ لطفل أن يصبح متذمّرًا مزمنًا ذا مستوى عالمي، جعليه يبدأ وهو صغير وأعطيه حرّيّة التذمّر. بعبارات أخرى، كلّما تأخّرتِ في وضع حدّ نهائي لتشكّي ابنك زادت احتمالات أن يطغى النحيب والعويل على شخصيّته مدى حياته.

إنّ ابنك ينشأ في ظروف لا تُعتبر مثالية بالتأكيد، لكنّه لا يدرك إطلاقًا كم هي جيّدةٌ حياتُه حقًّا بالمقارنة مع الحياة التي يعيشها أكثر من نصف أطفال العالم، ناهيك عن حياة أخته التي تفتقر إلى مجرّد المقدرة على معرفة مدى بؤس حياتها.

كلا يا سيدتي، ابنك لا يحتاج إلى مزيد من الاهتمام. إنّه يحتاج إلى تصحيح كبير لتفكيره.

سؤال: عثرنا أخيراً على موادّ إباحية تحت سرير ابننا البالغ من العمر ستّة عشر عامًا. في السنة الماضية خاض معركة ضد الاكتئاب والعلامات المدرسية السيئة وتعاطي المخدّرات، لكنّه حقّق تحوّلاً رائعًا هذه السنة، فهو مبتهج ولديه

وظيفة ويحصل على علامات جيّدة ويذهب إلى دُور العبادة للصلاة. لكنْ ما إنْ اعتقدنا أنّنا تخطّينا المرحلة الصعبة حتى دهمتنا مسألة المواد الإباحية هذه. يقول زوجي إنّه ما كان ينبغي أن أفتّش غرفته وإنّ من الطبيعي تماماً لفتى في السادسة عشرة من العمر أن يتفرّج على مواد من هذا النوع. ويعتقد زوجي أنّ علينا أن نتجاهل الموضوع. لكنّي لستُ مرتاحة تماماً إلى هذه الفكرة، ومن ناحية أخرى سيتعيّن عليّ أن أشرح لماذا كنتُ أتطفّل على خصوصيّته إذا أثرنا المسألة معه. ما رأيك؟

جواب: أولاً، أوافق على أنّ هذا موضوع حسّاس. من جهة ثانية لا ضيرَ في أن يتحقّق الوالدون بين حين وآخَر من محتويات غُرَف أطفالهم المراهقين، لاسيّما إذا كان لطفل منهم سوابق في تعاطي المخدرات بالرغم من عدم وجود أدلّة محسوسة على حدوث انتكاس. لكنّ تبرير تفتيش كهذا يحتاج إلى أسباب أقوى من مجرّد الفضول الوالدي. من الأسباب الشرعية لذلك ملاحظة تبدّلات مفاجئة نحو الأسوأ في المزاج أو السلوك أو الحياة الاجتماعية أو العلامات المدرسية، ونظرًا إلى التحوّل الإيجابي الكامل الذي حقّقه ابنكما وغياب أيّ من المؤشرات آنفة الذِّكْر أشعر بأنّ تفتيش غرفته في ذلك الوقت بالذات لم يكن عملاً ملائمًا. علاوة على ذلك أعتقد أنّ إخباره بأنّكِ فتّشتِ غرفته قد يسيء إلى العلاقة به، وهذا أمر يجب أن تحاولي تفاديه.

لكنّ حيازة فتًى في السادسة عشرة من عمره موادّ إباحية أمر لا يجوز تجاهله. صحيح، كما قال زوجك، أنّ من الطبيعي لفتى في سنّ المراهقة أن ينجذب إلى الموادّ الإباحية، لكنّ ذلك لا يجعل الأمر صحيحًا. ومن الممكن أن تتحوّل الرغبة في مشاهدة الموادّ الإباحية إلى إدمان. ولا ترتبط الإباحية بالتصرّفات الجنسية غير السويّة فقط، بل بالممارسات الشاذة وأحيانًا المنافية للأعراف الاجتماعية أيضًا. مثلاً يُعرَف عن جميع المتحرّشين بالأطفال تقريبًا أنّ لهم تاريخًا في التعلّق المفرط بالموادّ الإباحية. والموادّ الإباحية المتعلّقة بكلا الجنسين مُهينة لكرامة المرأة وتُصوِّرها كملهاة جنسية لا أكثر لأنّ الرسالة الضمنية التي تنقلها هذه الموادّ هي أنّه لا ضيرَ في اعتبار المرأة ملهاة ومعاملتها على هذا الأساس. وهذا لا يعني أنّ أيّ فتى

مراهق يتفرّج على الـمواد الإباحية بانتظام سيكبر ولديه مفاهيم أخلاقية مشوّهة عن الـجنس أو أنّه سيتورّط في مـمارسات جنسية شاذّة إلّا أنّ خطر حدوث ذلك موجود.

من أساليب التعامل مع مثل هذا الـموضوع إخراج الـموادّ الإباحية من غرفة الابن والتخلُّص منها ببساطة دون أن تقولـي شيئًا. سيفهم الرسالة وسيتوقّف على الأقلّ عن إدخال مثل هذه الـموادّ إلـى منزله، وقد تساوره رغبة في الاختلاء بوالده للتـحدّث عن الـموضوع، ما قد يفتـح الباب للدخول في حوار بنّاء معه. وإذا قررتِ انتهاج هذا السبيل فينبغي أن يكون زوجك مستعدًّا لهذا الـحوار، بعبارات أخرى عليه أن يحدِّد النقاط التي يريد إفهامها لابنكما وأن يرتّب أفكاره مسبقًا، وسيتطلّب هذا الـخيار طبعًا تقديـم تفسير لكيفية اكتشاف الـموادّ الإباحية في غرفته، وهذا يعني أنّ على الوالد التفكير بتعليل غير «الـماما كانت تتجسّس عليك».

اكتشف أحدُ أصدقائي مـجلّة إباحية في غرفة ابنه فتركها على السرير ولـم يَقُلْ شيئًا بهذا الـخصوص. وبعد يومين جاءه ابنُه واعترف له بأنّه لـم يَعُدْ قادرًا على احتـمال السكوت وأنَّه يريد التـحدّث في الأمر. فجلس الاثنان ودخلا في حديث من أفضل ما دار بينهما من حوارات.

إن والد الفتى الـمراهق هو الشخص الـمثالـي للتعامل مع موضوع من هذا النوع، وقد يقتنع زوجك بأنّ يأخذ ابنكما جانبًا وأن يفتـح الباب لنقاش عن السلوكات الرزينة الـمكلَّلة بالاحترام تـجاه الـمرأة دون أن يشير إلـى الـموادّ الـمـمنوعة التي كانت في غرفته. في سياق هذا النقاش يستطيع الوالد أن يثير موضوع الـمواد الإباحية كمثال على تـحقير الـمرأة وتـحقير الذات أيضًا. وإذا افترضنا أنّ العلاقة جيّدة بين ابنك وأبيه، فسيكون لهذه الرسالة وقع إيجابي جدًّا.


@Ahmedyassin90

5
الـمبدأ الأساسي الـخامس للرعاية الوالدية:
الـمسؤولية هي الأهمّ وليس حُسْن الأداء

يعني امتلاك الإنسان حسّ الـمسؤولية ثلاثة أشياء:

(1) ـ القيام بواجبات يطلبها ذوو السلطة الشرعية بكلّ ما أوتي الـمرء من قدرة؛ (2) ـ الاستعداد لتقديـم العون اللازم إلـى الآخرين أو القيام بـما ينبغي القيام به دون أن يُسأل أو يؤمَر؛ (3) ـ قبول كامل الـمسؤولية عن تصرُّفاته، أو ما يُدعى تقبُّل الـمحاسبة. إنّ توفّر هذه الـخصال الثلاث في خُلق شخص ما يعني اكتمال عناصر الـمواطنية الصالـحة، وكما كانت تقول جدَّتي فإنَّ «الـمواطنية الصالـحة تبدأ في الـمنزل».

تشكّل الـخَصلتان الأُولَيان من الـحسّ بالـمسؤولية جوهر ما يُعرَف بأخلاقية العمل، وهما تُغرَسان في نفسية الطفل عبر تكليفه القيام بأعمال في البيت. وعندما يقوم الطفل بأعمال منزلية ويساهم في الـمحافظة على بيئة العائلة يتدرّج نحو العضوية الكاملة في الأُسرة، وهكذا يتولّى الطفل دورًا مُجْديًا ضمن الـمجموعة ويصبح شريكًا كاملاً في العائلة. وتُعلّم الـمهمّات الـمنزلية الطفل أنّ الـمواطنية تنطوي على واجبات مثلـما تـمنح امتيازات، وأنّ الواجبات والامتيازات متلازمة دائمًا وأنّ الامتيازات هي ثمرة الواجبات. لهذا السبب لا يجوز دفع أجر للطفل لقاء قيامه بأعمال من أجل

الأُسْرة لأنّ الأجر يحجب حقيقة هامة هي أنّ هذه الأعمال واجبات ومساهمة في رفاه العائلة ككلّ. بل من الضروري في الواقع إفهام الطفل أنّ امتيازاته تتوقّف على حُسن وفائه بالتزاماته تجاه العائلة عند تحديد مهمّته الأولى في إطار روتين منتظم من الأعمال اليومية (الأفضل أن يتمّ ذلك بعد فترة قصيرة من عيد ميلاده الثالث). وذلك يعني باختصار أنّ الطفل سيُحرم من امتيازاته إذا امتنع عن القيام بواجباته.

إنَّني أنتمي إلى الجيل الأخير من الأطفال الأميركيين الذين نشأوا على هدى هذه المبادئ لأخلاقية المواطنية. ويشهد معظم الذين تربّوا في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي على أنّهم كانوا يُكلَّفون القيام بأعمال يومية منذ الصِّغَر ويقومون بها دون أجر. كنّا نقوم بهذه الأعمال لأنّنا كنّا نُؤمَر بها. نقطة على السطر. كان علينا أن نتمّم مهمّاتنا بصورة مُرْضية قبل أن يُسمَح لنا بالخروج للّعب. بكلام آخَر، كان علينا أن نفعل ما يجب أن نفعله (الواجب) قبل أن نتمكّن من فعل ما نريد أن نفعله (الامتياز). ويتذكّر جميع أبناء جيلي تقريبًا قول أمّهات أصدقائنا إنّ أطفالهنّ لا يستطيعون الخروج للّعب معنا قبل أن يُكملوا الأعمال التي كُلِّفوا بها. ولم يكن هذا الأمر يحدث بين الفينة والأخرى، بل كان يحدث بانتظام ومرّات عدّة في الشهر الواحد. وفي نهاية المطاف أصبح واحدنا يعرف متى يستطيع صديقه أن يخرج ومتى لا يستطيع لأنّ واجباته، كواجبات غيره، كانت مُبرمجة في أوقات محدّدة ـ أي كانت جزءًا من روتينه اليومي.

ولسوء الحظّ توقّف الوالدون عن تكليف أطفالهم بأعمال منزلية عندما تحوّل مركز الثقل في تربية الأطفال من تنشئة مواطنين صالحين (واجب الوالدين تجاه الثقافة) إلى غرس عادة الاعتداد الشديد بالنفس لدى الأطفال، ونادرًا ما تجد اليوم طفلاً تربّيه عائلته ليصبح مواطنًا صالحًا أو يقوم بدور ذي معنى ضمن العائلة أو يساهم في رفاهها إلى جانب كونه مستهلِكًا «لِنِتاج» العائلة. والوالدون هم في الغالب الأعمّ الوحيدون في العائلة الحديثة الذين يتصرّفون كأشخاص لديهم التزامات، ويشعر معظمهم بأنّ التزاماتهم هي تجاه أطفالهم الذين يضعونهم في قلب اهتماماتهم ويعاملونهم كملوك وملكات. ففي العائلة الأميركية النمطية الحديثة

يخدم الوالدون الأطفال فيما لا يؤدّي الأطفال أيّ خدمة على الإطلاق. ويتربّع الأطفال في الواقع على مَعِين لا ينضب من الامتيازات التي يتمتّعون بها من دون تحمّل مسؤولية أيّة واجبات.

قالت لي أخيرًا أمٌّ لابنة في الرابعة من عمرها بفخار إنّ لابنتها وظيفة تقوم بها.

سألتُها مستفسرًا: «لديها وظيفة؟»

أجابت قائلة: «نعم. وظيفتها أن تخبرني بفراغ الآنية الخاصّة بطعام الكلب وشرابه لإعادة ملئها.»

كدتُ أُصعَق، لكنّي تابعتُ فسألتها: «ومن يملأ الآنية عندما تحتاج إلى إعادة ملء؟»

أجابت الأم: «طبعًا أنا من يملأها. إذا سمحتُ لابنتي بأن تفعل ذلك فستضع كمية كبيرة من الطعام وستسكب الماء على الأرض.»

هذا يعني أنّ الابنة تقول لأمّها متى ينبغي عليها أن تؤدّي عملاً. ولو لم تكن هذه الواقعة مثيرة للأسى إلى درجة عجيبة لكانت مدعاة للضحك. لكنّ الأمر المحزن حقًّا هو أنّ هذه الأمّ لا تدرك أنّ الوظيفة المزعومة لا تؤدّي إلى نتيجة سوى إعطاء الابنة فرصة لممارسة سلطة على الأم. وبالنسبة إلى وضع الكثير من الطعام في الآنية وسكب الماء على الأرض، لا يُعتبر ذلك سببًا لعدم ترك الطفل يؤدّي عملاً، بل دافعًا لتعليمه كيف يقدِّر الكمية المناسبة من الطعام ويستخدم إسفنجة لمسح الماء عن الأرض. لكنّ هذا هو الواقع التعيس للرعاية الوالدية في أميركا في القرن الحادي والعشرين.

عندما أتحدَّث أمام جمهور من الآباء والأمّهات أقول أحيانًا: «يبدو أنّكم جميعًا تعتقدون بأنّ أطفالكم موهوبون، لكنّكم كثيرًا ما تعاملونهم كما لو كانوا أغبياء.»

وتستثير هذه المقولة دائمًا عاصفة من الضحك لدى جمهور المستمعين عندما يدركون التناقض القائم بين ما يعتقدون أنّ أطفالهم قادرون على إنجازه (أيّ

شيء) وما يتوقّعون منهم أن يفعلوا (لا شيء تقريبًا). بعد ذلك أشرح لهم أنّ احترام الطفل حقًّا يعني توقّع أمور معيَّنة منه.

أقول لهم: «يا مَن حضرتم إلى هنا اليوم، كثيرون منكم لا يتوقّعون إلّا القليل القليل من أطفالهم لسوء الحظّ. لكنّكم تتوقّعون الكثير من أنفسكم. والواقع أنّكم تفرطون في توقُّعاتكم من أنفسكم إلى درجةٍ أن يبدأ أطفالكم أيضًا في توقّع الكثير منكم. بهذه الطريقة يصبح الطفل طمّاعًا ووقحًا وناكرًا للجميل ويبدأ في التحايل كلّما طُلِب منه شيء.»

ثم أقول: «إذا كان هذا الوصف ينطبق على طفلكم فارفعوا أيديكم.»

وما من مرّة ذهب فيها هذا السؤال سُدًى: الأيدي المرفوعة أكثر من الهاجعة.

قبل أن أبلغ الرابعة من عمري علَّمتْني أمّي التي كانت والدة وحيدة عاملة في ذلك الوقت، كيف أغسل أرضية البيت. ومنذ ذلك الوقت دأبتُ على غسل الأرضية بانتظام. وقبل سنتي الخامسة علَّمتْني أمّي كيف أغسل ثيابي في «غسّالتها» الخاصّة التي كانت حوضًا معدنيًّا ذا عصّارة يدوية مثبّتة على طرفه موضوعًا في فناء المنزل.

كان أطفال كثيرون يقيمون في الجوار، وببلوغنا العام الرابع من العمر كان كلّ منّا مُكلَّفًا أداء مهمّات يومية قبل السماح له بالذهاب إلى الخارج للّعب. كان ذلك في أوائل خمسينيات القرن الماضي عندما كان الوالدون يتوقّعون من أطفالهم، حتّى الصغار جدًّا منهم، القيام بأعمال منزلية كوسيلة للتعبير عن احترامهم لأهلهم. لم يكن والدو ذلك الزمان يُضيّعون حتى ثانيتين للتفكير في رقم حاصل الذكاء (IQ) لدى أطفالهم. لم يكن الوالدون يتباهون بأطفالهم آنذاك، ناهيك عن التجوّل عبر المدينة في سياراتهم وعليها ملصقات تتبجّح بأنّ ذكاء أطفالهم ألمع من الألمعية ذاتها. لكنّ جميع الوالدين في ذلك الوقت كانوا يعلمون أنّ أطفالهم، مهما يكن ذكاؤهم، بَشَرٌ ذوو قدرات وكفاءات وأنّهم لن يسمحوا لهذه القدرات لدى أطفالهم بالذبول والزوال لقلّة الاستعمال.

سألتْني أخيرًا إحدى الأمهات: «جون، أعرف أنّك تؤمن بضرورة تكليف الأطفال القيام بأعمال قبل بلوغهم الرابعة، وابنتي ستبلغ الرابعة بعد أشهر قليلة. ما هي الأعمال الـمعقولة التي أستطيع أن أتوقّع منها القيام بها؟»

أجبتُها: «علّميها أن تغسل أرضية الـمنزل.»

نظَرتْ إلـيَّ وكأنّي قلتُ كلامًا غير مفهوم، وقالت: «لا بدّ وأن تكون قد أسأتَ فهمي يا جون. ابنتي لـم تبلغ سنتها الرابعة بعد.»

أجبتها: «لا، لقد سمعتُكِ بوضوح. ابنتك كبرت إلـى حدّ كافٍ لتتعلّم كيف تغسل الأرضية، عليكِ أن تعلِّميها أوّلاً غسل مساحة صغيرة مثل أرضية غرفة الـحمّام. وعندما تُتقِن ذلك انتقلي بها تباعًا إلـى أماكن أكبر فأكبر.»

حدَجَتْني من جديد بنظرة وكأنّها لا تصدّق ما تسمع وقالت: «إحِمْ! أظنّ فعلاً أنّها ما زالت صغيرة جدًّا على هذا العمل.»

الأرجح أنّ هذه الأمّ تقول للناس إنّ ابنتها موهوبة، لكنّها تُعاملها في الوقت ذاته وكأنّها عاجزة عن تعلُّم أمر بسيط مثل غسل أرضية. لا تكمن أهمية تعليم هذا الطفل أو أي طفل آخَر غسل أرضية في أداء العمل بحدّ ذاته بل في تعلّم الطفل أنّه شخص قادر وكفوء وجدير بالثقة. الأهمية تكمن في إدراك الطفل أنّه شريك في إبقاء الـمنزل نظيفًا ومريحًا وأنّه يقدِّم مساهمة قيّمة لرفاه الأُسرة من يوم إلـى يوم.

وأشكّ في أن تكون هذه الأم قد عادت إلـى بيتها وعلّمت ابنتها غسل الأرضية أو أي عمل مـماثل، أي أنّ هذه الابنة الـموهوبة كما تقول أمّها ما زالت تُعامَل وكأنّها عديـمة الكفاءة. والأرجح أنّ هذه الأمّ تتبجّح بابنتها مثلـما يفعل والدون أميركيون كثيرون، لكنّها لا تـحترم هذه الابنة حقًّا، والسبب كما تتذكّرون هو أنّ الاحترام الـحقيقي للطفل يعني توقُّع قيامه بعمل ما. ولسوء الـحظّ يُرجّح أن تظلّ هذه الصغيرة متربّعة على مَعِين من الامتيازات طوال سنوات طفولتها، شأنها في ذلك شأن الكثيرين جدًّا من أطفال اليوم وستعيش على ما أسمِّيه أنا «الصدقة العائلية» ولن تتعلـم قط أنّ الـمواطنية، أي العلاقة بين الفرد والـمجتـمع، هي عملية أخذ وعطاء وأنّ نـجاح أي علاقة يتوقّف على أن يأخذ الـمرء بقدر ما يعطي.

إنّ نتائج هذه الفلسفة والطريقة المُستَحدثَتَيْن في تربية الأطفال أصبحت ملموسة فعلاً في ثقافتنا فيما يبلغ الأطفال الذين تربّوا على نقائصهما سنّ الرشد ويبدأون في ولوج سوق العمل، وما أكثر ما شكا لي أرباب عمل ومدراء شركات من انعدام أخلاقيات المسؤولية في العمل لدى كثيرين من الشباب! إنّهم يريدون الأخذ من أرباب العمل، لكنّهم غير مستعدّين لإعطاء شيء بالمقابل.

إنّهم يجلبون إلى مكان العمل مجموعة من التوقُّعات التي كوَّنوها في كَنَف العائلة، فهم ينتظرون من أرباب العمل إعطاءهم ما تعلّموا من والديهم أنّه حقّهم في المنزل، أي الامتيازات.

لي صديق يصغرني في العمر يعمل مديرًا في أحد أكبر المصارف الأميركية. وقد أبلغني أخيرًا أنّه أنّب بلطف موظّفًا شابًّا لارتكابه أخطاء مكلفة من حيث الوقت والمال وشجّعه على أن يكون أكثر انتباهًا في المستقبل. فأجابه الموظّف الذي لم يتجاوز أواسط العشرينيات من عمره أن اكتشاف أخطائه ليس من مسؤولياته.

سأله صديقي: «مسؤولية مَن إذًا؟»

ردّ الموظّف: «لا أعرف. لكنّها ليس مسؤوليتي. اكتشف ذلك أنت.»

في هذه اللحظة نظر الموظّف الشاب إلى زميل له في العمر ذاته وقال له: «لا أستطيع التعامل مع هذه المسألة بعد الآن. اشرحها له أنت.» ثم سار مبتعدًا!

أنا مستعدٌّ للمراهنة على أنّ والدَيْ هذا الشاب أخذا على نفسَيهما عندما كان تلميذًا في المرحلة الدراسي الابتدائية مسؤولية مراجعة فروضه المدرسية وساعداه على تصحيح أخطائه. كما أراهن على أنّ هذا الشاب لم يُكلَّف القيام بأية أعمال طوال ثمانية عشر عامًا. وأراهن أيضًا على أنّ هذا الشاب، كالكثيرين من أبناء جيله، تمتّع بثمار الصدقة العائلية طوال فترة إقامته في منزل والديه. وأراهن على أنّ والديه كانا يشعران بأنّ من واجبهما حمايته من التبعات السلبية (أي حماية اعتداده المقدّس بنفسه بطبيعة الأمر).

إنّ نتائج تنشئة أطفال على هذا النهج الضعيف والـمسبِّب للضعف، التي تطال أعـدادًا مـنـهـم تـبـلـغ عشرات الـملايين، ستترك في نـهـايـة الأمـر أثـرًا مـدمّـرًا في قـوّة الديـموقراطية في أميركا وفي الاقتصاد الأميركي واستـمرارية مؤسّسة الزواج. ونحن، على الـمستوى الثقافي، أصبحنا الآن فعلاً في الـمراحل الأولـى من هذا الدمار.

سؤالـي إليكم أيُّها القرّاء هو: هل ستكونون جزءًا من الـمشكلة أم هل لديكم استعداد لأن تصبحوا جزءًا من الـحلّ؟ هذا الوضع لـم يتجاوز بعد النقطة التي يستـحيل بعدها إيجاد حلّ، فهل أنتـم مستعدّون للـمساهمة بنصيبكم في الـحيلولة دون الانزلاق إلـى هاوية أخلاقية؟

الـمسؤولية

رَوَت لـي إحدى الأمّهات أخيرًا أنّها عندما جرى تـجاوز ابنتها في اختيار قائدة لفريق التشجيع الـمدرسي واختيرت فتاة أخرى أقلّ أقدمية، ذهبت إلـى الـمدرسة وواجهت مدرّب الفريق وطالبت بإعادة تقييم هذا الـخيار. قالت متسائلة: «على الوالدَيْن أن يدافعا عن طفلهما إذا تلقّى معاملة مـجحفة من قِبَل أحد الـمعلّمين، أليس كذلك؟»

أجبتُها: «لو كنتُ مكانك لفضّلتُ عدم التدخّل في الـموضوع.» ما إن قلتُ ذلك حتى تلاشى تـمامًا الاحترام الذي كانت تلك السيدة تكنّه لـي قبل لـحظات قليلة.

كان والداي يـختاران عدم إقحام نفسيهما في أمور من هذا النوع. وقد كانت هناك بالفعل أوقاتٌ عاملَني فيها معلّمون بقدر لا بأس به من الإجحاف. كان والداي ومعظم أقرانهما من عصر ما قبل الـحداثة يعتقدون بأنّ العالـم ليس مكانًا يسوده الإنصاف، وكلّما بَكَّرَ الطفل في التأقلـم مع هذا الواقع كلّما كان ذلك أفضل له ولـجميع الـمعنيّين.

لنواجه الواقع يا ناس. ليس من الـمعقول والـمقبول منطقيًّا أن يلقى طفل معاملة عادلة طوال الوقت من جميع الـمعلّمين على امتداد ثلاثة عشر عامًا في الـمدارس.

وقد يحتجّ قارئ على ذلك بقوله: «لكن عندما يحدث خلاف مع معلّم يخسر الطفل بصورة أوتوماتيكية. لا بدّ من وجود شخص يُعيد التوازن مع سلطة المعلّم.»

لنرجع قليلاً إلى الوراء. أولاً، «الإنصاف» هو مثلما يتراءى في عين الناظر. لذلك لا يمكن اعتبار جميع القرارات التي يتّخذها شخص يمارس سلطة شرعية «منصفة» من قِبَل جميع الناس طوال الوقت. وإذا شعر طالب ووالداه بأنّ أحد المعلّمين قام بتصرّف مجحف، فلا يعني ذلك أنّ المعلم تصرّف بصورة غير شرعية. وفي عصر التنوّر هذا يبدو أنّ الأميركيين ينسون الفارق بين السياسي والقائد. لكي يكون القائد فعّالاً عليه أن يتّخذ قرارات غير شعبية. أما السياسي فيحاول اتّخاذ قرارات شعبية ولهذا السبب لا يكون السياسيون قادة جيّدين. المعلّم ليس سياسيًّا، إنَّه قائد للأطفال. أقول ذلك وأنا على علم تام بأنّ معلّمين كثيرين اليوم، شأنهم شأن والدين كثيرين، يحاولون اكتساب شعبية لدى الأطفال فيبدّدون سلطتهم. وقد أدّى امتناع معظم الراشدين عن ممارسة سلطتهم الشرعية على الأطفال إلى استشراء شعور عامّ بأنّ على الراشدين أصحاب السلطة الشرعية أن يعاملِوا الأطفال بإنصاف. وذلك يعني باختصار أنّ معلّمي هذه الأيام يتحوّلون بسرعة إلى أسوأ أعداء لأنفسهم.

عندما كانت ابنتي آمي في المدرسة الإعدادية بدأت تشكو من معلّم كان يحابي بعض الطلاب، ولم تكن هي من بينهم. شعرتُ بأنّ هناك إجحافًا، لكنّها لم تقصد بذلك محاولة المعلّم مصادقة طلاب مُعَيَّنين، بل استاءت لأنّه لم يكن يختارها لأداء واجبات مدرسية معيّنة. استمعتُ إلى آمي تتذمّر من هذا المعلّم كلّ يوم تقريبًا وكنتُ أكتفي بقول عبارات من نوع «هذا مؤسف جدًّا» و«سينتهي هذا الوضع أيضًا»، ما فاقم استياءها.

بعد مدّة اتّصل بي المعلّم ليشكو سلوك آمي. قلتُ له إنّني أريد أن أدعم سلطته، لكنّه هو أسوأ عدوّ لنفسه. فعندما مارس لعبة المحاباة كان يشجّع نشوء مشاعر غيرة بين الطلاب، الأمر الذي قوّض مقدرة طلابه على النظر إليه كرمز للسلطة. سألتُه كيف يمكنني أن أدعم أمرًا لا يمارسه هو بفاعلية؟ وانتهت محادثتنا بأنْ شَكَرني على ملاحظاتي.

إنّ رغبة الإنسان في أن يُعامَل بإنصاف هي نظيرة إيمانه بأنّ له حقًّا عامًّا في أن لا يُعامَل أبدًا إلّا كما يشاء هو أن يُعامَل. هذا يعني بكلام آخَر أنّ الناس الذين يؤمنون بأنّهم يجب أن يُعامَلوا بإنصاف هم أطفال مهما تكن أعمارهم الفعلية. وليس هناك ما هو أسوأ من طفل يتلبّس مظهر شخص كامل النموّ. وبالنسبة إلى معاملة الأطفال بإنصاف من قِبَل معلّميهم، فلا بأس في ذلك إذا كان يعني إعطاء الأطفال العلامات التي يستحقّونها، ولا بأس أيضًا إذا كان ذلك يعني معاقبتهم على سوء سلوكهم. لكنْ إذا كان المقصود أنّ على المعلّمين عدم إزعاج الطلاب، فذلك ليس جيّدًا ولا مقبولاً. ومن المؤسف أنّ والدين كثيرين يعرّفون الإنصاف حسب المفهوم الثالث عندما يتعلّق الأمر بكيفية معاملة فلذات الأكباد على يد رموز سلطة الراشدين.

أتذكّر من أيّامي في المدرسة الإعدادية وجود زمرة صغيرة من الأطفال الخبثاء معنا. كانوا ضئيلي البنية بالنسبة إلى أعمارهم، لكنّهم شكّلوا أحلاف حماية مع مجموعة «البلطجية» في المدرسة. كان الخبثاء يساعدون «البلطجية» في واجباتهم المدرسية مقابل حمايتهم من الردود الانتقامية على رذالاتهم. لذلك صار الخبثاء أحرارًا في ارتكاب ما شاؤوا من الاستفزازات ضدّ الأطفال الآخرين كضربهم من الخلف أو إسقاط الكتب التي يحملونها على الأرض أو تخريب تسريحات شعرهم المُصفَّفة بعناية أو الاستهزاء بهم طول الوقت وإطلاق أسماء مهينة عليهم. لم يكن في وسع الأطفال الضحايا أن يفعلوا أيّ شيء حيال هذا الوضع بالطبع لأنّهم سيُقابَلون بضرب مبرّح على أيدي «البلطجية» إذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم.

وأفهم من الأخبار التي تصلني من مختلف أنحاء البلاد أنّ أحلافًا من هذا النوع أصبحت شائعة في هذه الأيام. ويبدو أنّ أطفالاً كثيرين صاروا يتمتّعون بحماية «البلطجية» الخاصّين بهم اتّقاء لأيّة تبعات تنجم عن تصرفاتهم المسيئة أو الاستفزازية أو اللامسؤولة، وهؤلاء «البلطجية» هم آباؤهم وأمّهاتهم.

قام طالبان يلعبان في فريق كرة القدم لإحدى المدارس في مدينة كبيرة في الجنوب الشرقي للولايات المتحدة بسرقة سيارة وتنزّها فيها ثم تخلّصا منها بدفعها إلى نهر.

اكتُشف الأمر وطَرَد مدير الـمدرسة الطالبَين من فريق كرة القدم. وردّ والدو الطالبَين بإقامة دعوى قضائية زعموا فيها أنّ قرار مدير الـمدرسة «يدمّر فُرصَ الولدين في الـحصول على منحة دراسية على أساس تـميّزهما في كرة القدم». هكذا لا يكون الولدان هما من دمّر فُرصَتهما بأيديهما بل مدير الـمدرسة، فجأة يصبح الـجانيان ضحيَّتَيْن ويتـحوّل رمز السلطة الشرعية إلـى شرّير.

في العام 2003 رفض معلّم في مدرسة ابتدائية في الغرب الأوسط الأميركي تغيير علامات أحد الأطفال. وهدّد أبُ الطفل الـمعلّم سرًّا بإنزال أفظع أنواع الأذى الـجسدي به إذا لـم يستجب لـمطلبه. وشعر مدير الـمدرسة بأن التهديدات كانت خطيرة إلـى درجة كافية لتعيين حراس أمنيِّين إضافيين في الـمدرس من واجباتهم مرافقةُ الـمعلّم في ذهابه وإيابه بين سيارته ومبنى الـمدرسة.

قد يبدو أنّني أصِف أناسًا يُصنَّفون كرعاع من السفلة والأوباش والـجهلة. لكنّ هذا غير صحيح. الوالدون في كلتا الـحالتين آنفتَي الذِّكْر أناس ميسورون يعيشون في منزلَيْن باهظَي الثمن ويقودون سيارات فارهة. وأنا أعرف فعلاً مِمّا أُلاحظه أنّ والدِين ينتمون إلـى مستويات اجتـماعية راقية لا تتوافق مع هذه التصرّفات الفظّة يتورّطون في أحداث من هذا النوع. وبالرغم من الـمستوى الاجتـماعي الذي ينتـمون إليه يظلّون أجلافًا. وإذا لـم يهدِّدوا بالأذى الـجسمانـي شخصًا «يسيء» إلـى أطفالهم الغوالـي بإعطائهم علامة «خاطئة» أو يقاصصهم «ظلـمًا» أو يؤنّبهم في مباراة، فإنّهم يهدِّدون بالذهاب إلـى الـمحاكم.

وأخيرًا أدلت مديرة مدرسة خاصّة بالـملاحظة التالية: «مشكلاتنا هي مع الوالدين أكثر مـمّا هي مع الطلاب.» وقد عبّرتْ بذلك عن وجهات نظر مشابهة لدى أعداد لا حصر لـها من مدراء الـمدارس ومعلّميها في مـختلف أرجاء الولايات الـمتـحدة. قبل أربعين سنة كان من النادر أن نـجد والدين لا يؤيِّدون الإجراءات التأديبية للـمدارس. واليوم صار من النادر أن نـجد والدين يؤيِّدونها. وقد أدّى انتشار أحلاف الـحماية بين الوالدين والأطفال إلـى استشراءٍ وبائي للأطفال الذين يجوز لهم التصرّف بشكل استفزازي كما يحلو لهم.

وقال لي مدير إحدى المدارس أخيرًا: «إنّ كلّ طفل يهدِّد والداه برفع دعوى قضائية عندما يُعاقَب ينتمي دون استثناء إلى الفئة الأسوأ سلوكًا في الصفّ، إن لم يكن في المدرسة كلّها.»

وللقارئ الحقّ كلّ الحقّ في أن يسألني: «يا جون ما هو الحلّ إذًا؟»

الحلّ هو أن يغيّر هؤلاء الآباء والأمّهات طريقة تفكيرهم في أطفالهم ومسؤولياتهم حيال الأطفال، وأنا أسعى إلى مساعدتهم في ذلك بجهودي المتواضعة عبر هذا الكتاب.

أعذار وأعذار

عندما كنتُ أُسيء التصرّف وأنا طفل، سواء في المنزل أو المدرسة أو الجوار، نادرًا ما كان والداي يطلبان مني أن أبرّر تصرّفي. وإذا حاولتُ حتى التلميح إلى رغبتي في الشرح كانا يعمدان عادة إلى قطع الطريق عليّ بقولهما: «لا أعذار.» وأُدرِك الآن أنّ كلّ شرح نويتُ تقديمه كان محاولة لإيجاد عذر لنفسي وتبرير ما فعلتُه وتحميل المسؤولية للغَير وتصغير الخطأ إذا تعذّر تحويله إلى صواب، وما فتئ الأطفال يفعلون ذلك منذ اليوم الأول للبشرية. فَهُمْ غير مستعدّين لتحمُّل مسؤولية ما يفعلونه مع معرفتهم التامة بأنّه خاطئ.

كان الآباء والأمّهات في ما مضى يتصرّفون بحزم عندما يرتكب أطفالهم أفعالاً مسيئة. لكنّ الوالدين بدأوا في ستينيات القرن الماضي يستمعون إلى خبراء يروّجون لفكرة مفادها أنّ جوهر الرعاية الوالدية هو مدى إجادتهم التكلّم مع أطفالهم. وفيما كان والدو الأمس يتصرّفون أصبح والدو اليوم يتكلَّمون، لا يتكلَّمون هكذا فقط بل يتكلَّمون ويتكلّمون ويتكلّمون ويزيدون كلامًا فوق ما تكلَّموا. إنَّ الكلام ليس سيِّئًا بحدّ ذاته، لكنْ ليس في كلّ وقت وكل مكان.

وما يفاقم المشكلة في خِضَمّ كلّ هذا الكلام أنّ والدين معاصرين كثيرين يساعدون أطفالهم فعلاً على التهرّب من تحمُّل مسؤولية سوء تصرّفهم.

قالت لي أمّ قبل فترة قصيرة إنّ ابنها البالغ من العمر خمس سنوات يسيء التصرّف في المدرسة ويجلب معه إلى المنزل كل يوم تقريبًا تقريرًا عن سوء سلوكه. وتتعامل هي مع المسألة بالجلوس مع طفلها والتحدّث إليه بشأنها. تسأله: «ماذا حدث؟ لماذا فعلتَ كذا وكذا؟ ماذا كان إحساسك؟ أوه، وماذا فعلت بعد ذلك؟ كيف كان شعورك حيال الأمر؟ ماذا فعلتَ عندئذٍ؟ لماذا فعلتَ كذا وكذا آنذاك؟ ماذا كنتَ فعلت لو...؟» قالت لي هذه السيّدة إنّها تشعر دائمًا بأنّ هذه المحادثات تساعد ابنها على تحقيق «فهم أوضح لكيفية التصرّف بصورة أفضل في المرّة التالية». لكنْ عندما تأتي المرة التالية يسيء التصرّف من جديد. وفي بعض الأحيان يكون تصرّفه أسوأ كثيرًا من ذي قبل فيعود الاثنان إلى مزيد من الحديث.

إنّ هذه الأمّ تعطي طفلها عن غير قصد منها الفرصة لاختلاق أعذار لسوء سلوكه، للتخلّص من المسؤولية بالشرح والتبرير. ولقد احتلّت هذه الحوارات السقراطية مكان التبعات، وأنا أقول إنّ هذا الطفل لا يخرج من هذه الحوارات وهو راغب في تحسين سلوكه، بل يخرج منها وهو مدرك أنّه يستطيع التصرّف مثلما يشاء بالتمام تقريبًا لسببَين أوّلهما أنّ لا شيءَ ذا بال سيحدث له باستثناء الكلام لا غير، وثانيهما أنّ لديه أسبابه الخاصة. وإذا لم تَرُقْ هذه الأسباب لأي شخص آخَر فلا بأس لأنّها تروقه هو وكفى. إضافة إلى ذلك أنا أراهن أنّه يعرف في عمره ودون تنبيه من أحد أنّ تصرّفه كان خاطئًا، كما يعرف ما كان ينبغي أن يفعل بدل ذلك.

إنّ فرصة اختلاق الأعذار تتيح للطفل المجال ليستنبط في عقله قصّة تقوده إلى البراءة. وإذا لم تُقبَل قصّته فالمشكلة ليست لدى الطفل بل لدى الشخص الراشد الذي لا يفهم. نعم، هكذا. وبهذه الطريقة يتحوّل الطفل في نظرته إلى نفسه من شخص أساء التصرّف إلى شخص يُساء فهمه.

وعندما يسيء طفل التصرّف ينبغي أن يُفهِمه شخصٌ راشد بكلّ وضوحٍ أنّ هناك تبعات ستنتج عن اتخاذه قرارًا خاطئًا. لا يضير الطفلَ أن يجلس معه أحدُ والديه للتكلّم معه. هذا مزعج فقط. لكنّه يُضار ويستاء عندما يُحرم من امتيازاته، كركوب الدراجة ومشاهدة التلفزيون لمدّة أسبوع أو عندما تُلغى زيارة مبيت في عطلة نهاية

الأسبوع أو يُجبر على كتابة رسالة اعتذار إلى الشخص الذي أساء إليه. القصاص أمر سيّئ وعندما يتعامل المرء مع سوء السلوك عليه أن يكافح النار بالنار.

بعد أن ينال طفلٌ عقوبته من والديه يصبح الكلام مفيدًا. لكنّ الأمور الأهم تأتي أولاً. واحرصوا دائمًا على عدم ترك الحديث يفتح الباب للأعذار. تذكَّروا أنَّه لا توجد أعذار.

إنّ هذه المشكلة المتمثّلة في اعتقاد الوالدين أنّ أطفالهم غير قادرين على إساءة التصرّف نجمت أيضًا عن الأسلوب السيكولوجي للرعاية الوالدية في عصر ما بعد الحداثة. وقبل أن يبدأ الوالدون في اللجوء إلى التفسيرات السيكولوجية لسوء سلوك أطفالهم، كانوا يفكِّرون في الأمر من منطلقات رزينة وموضوعية. وإذا كذب طفلٌ كان والداه يقولان سرًّا وجهرًا: «بيلي كذب علينا»، وكان بيلي يعاقب. لكنْ عندما يكذب طفل اليوم يتساءل والده: «لماذا شعر بأن عليه أن يكذب؟» هل تلاحظون الفرق؟ قبل خمسين سنة لم يكن مهمًّا سببُ كذب الطفل. المهمّ أنَّه كذب وحسب. وإذا حاول الطفل تقديم تفسيرات لكذبه كان الوالدان يقولان له في حالات كثيرة: «أيُّها الشاب، في هذه الحالة لا توجد كلمات «إذا» و«ربّما» و«لكنْ» و«لعلّ». وإذا فتحتَ فمك للدفاع عن نفسك فسيتضاعف ذنبك!» لماذا كانوا يرفضون السماح له حتى بالدفاع عن نفسه؟ لأنّه كان سيكذب من جديد في سياق شرحه، وكانوا يحاولون تجنّب الاضطرار إلى معاقبته مرّتين.

النقطة التي أريد تأكيدها هي أنّ والدي اليوم يهتمّون بالأسباب أكثر من اهتمامهم بالتصرّف ذاته. هذه التفسيرات سيكولوجية كالقول إنّ الولد كذب لأنّه يخاف قول الحقيقة لأنّه يخاف أن يرفضه أبوه النائي أكثر فأكثر إذا اعترف بذنبه، كما أنّه يخاف أن يخيّب آمال أمّه الصارمة المتزمّتة إلى أبعد حدّ، أو قد يخاف الوالدون في أقلّ تقدير من أن يأتي التفسير الحقيقي (على النقيض من تفسير الولد) متماشيًا بصورة عامّة مع هذه التوجُّهات، ما يُدين الوالدين أنفسهم. فعندما يدافع والدا الطفل عنه وينكران أن يكون قد ارتكب خطيئة، وعندما يتَّهمان معلِّمًا بمعاملته

معاملة مجحفة منذ البداية أو بأي شيء آخر، فإنّهما يدافعان عن نفسيهما في الواقع ويقمعان أسوأ ما لديهما من مخاوف.

في الأجيال الماضية كان المعلّم يعاقب الطفل إذا أساء التصرّف في المدرسة، كان من المحتمل أن يرسل المعلّم الطفل إلى مدير المدرسة لينال عقابًا ثانيًا. وكان مدير المدرسة يتّصل بعائلة الطفل ويبلغ أمّه بما حدث فتطلب إلى المدير أن يرسل ابنها إلى المنزل لتتولّى هي معالجة الأمر. كانت الأم تعاقب طفلها في المنزل، ثم يتكرّر العقاب على يد الأب عند عودته من العمل، واليوم عندما يسيء طفل سلوكه في المدرسة ويتّصل المدير أو أحد المعلّمين بأُسرته يبدأ الوالدان ـ أو الأمّ غالبًا ـ في التصرّف كهيئة محامين ومدافعين عن الطفل. تنكر الأمّ أن يكون المعلّم قد شاهد ما شاهد وتتّهم المعلّمَ بتجاهل احتياجات طفلها الخاصّة أو بالتورّط في نزاع شخصيات مع طفلها. وفجأة يصبح المعلّم مَن يحمل الوزر. وقد يهدّد الوالدان أيضًا برفع دعوى قضائية، ما يزعج مدير المدرسة. ويوافق المدير في سياق محاولته تهدئة الوالدين، على قولهما إنّ المعلّم لم يُحْسِن التعامل مع الوضع.

أتعرفون إذًا ماذا يفعل معلّمون كثيرون؟ يتعاملون قدر استطاعتهم مع إساءة التلاميذ السلوك في الصف ولا يخبرون أحدًا إلّا المعلّمين الآخرين. مَن يستطيع لومهم؟

لِمَن هذا الواجب المدرسي؟

كان الواجب المدرسي في ماضٍ ليس ببعيد لعنةَ حياة الأطفال ومسؤوليّتهم بالكامل دون سواهم. واليوم أصبح الواجب المدرسي لعنة أطفال قلّ عددهم إلى دون ما ينبغي ووالدين زاد عددهم أكثر ممّا ينبغي. عندما كنتُ تلميذًا في المدرسة كان الوالد يكتفي بسؤالي: «هل أنجزتَ واجبك المدرسي؟» أذكر أنّ مدرّس العلوم في الصف السادس أخبر الصفّ أنّه إذا ساوره أدنى شكّ في تلقّي أيّ طالب مساعدة من والديه في بحث العلوم فسيعطيه علامة رسوب دون أيّ إمكانية للاستئناف والمراجعة. واكتشف صديقي العزيز تشارلي (وأبوه أيضًا) أنّ المعلّم لم يكن يخدعنا. واليوم يشعر الوالدون النمطيون بالذنب إذا لم يساعدوا أطفالهم في كل فرض كلّ ليلة.

عندما أسأل أناسًا من عمري لماذا لم يشارك والدوهم في إنجاز الواجبات المدرسية على الإطلاق، يكون الردّ دائمًا: «لأنّي حرصتُ على أن لا يشاركوا.» وعندما كان الوالدون يشاركون في إنجاز الواجبات المدرسية لطفلهم في ذلك الزمان، فلسبب واحد فقط هو أنّ الطفل لم يتحمّل مسؤوليته فكان يُعاقب عادة كتبعة للمشاركة الوالدية. أقولها باختصار: كنّا نُنجز واجباتنا المدرسية لأنّنا كنا نخاف من العواقب. وإلى القرّاء الذين يسوؤهم سماع هذا الكلام أقول إنّ جميع الإثباتات المتوفّرة تشير إلى أنّ الصحة العقلية للأطفال عامّة كانت أفضل بكثير في خمسينيات القرن الماضي ممّا هي الآن، بعبارات أخرى: القصاص لم يكن ضارًا لنا، القصاص كان مفيدًا لنا.

بدأت المدارس تشجّع الوالدين على المشاركة في إنجاز الواجبات المدرسية لأطفالهم نتيجةً لدراسة أُجريت في سبعينيات القرن الماضي واكتشفت أنّ الأطفال الڤيتناميّين حديثي الوصول إلى الولايات المتحدة تفوّقوا على أترابهم الأميركيين في العلوم والرياضيات، ليس بسبب قدراتهم الفذّة بل لأنّ والديهم يساعدونهم في إنجاز الواجبات المدرسيّة. ولم يقتصر الأمر على الوالدين، بل شملت المساعدة الإخوة الكبار والأجداد والخالات والعمّات والأخوال والأعمام وأولاد هؤلاء، وحتى الجيران كانوا يساهمون أحيانًا في إنجاز الواجبات المدرسية لهؤلاء الأطفال. وفات الأميركيين أنّ العائلة الڤيتنامية اعتبرت الواجبات المنزلية وسيلة لتعلّم اللغة الإنكليزية والاطّلاع على الثقافة الأميركية. وقد نُظِر إلى تعامل الوالدين الڤيتناميّين مع الواجبات المدرسية نظرة خارجة عن إطارها الثقافي ورُفِعت إلى رتبة اعتبارها علاجًا للأداء المتدنّي لجميع الأطفال الأميركيين.

لكنّ تبنّي مشاركة الوالدين في إنجاز الواجبات المدرسية لم يكن علاجًا لأيّ شيء. واستمرّ أداء الطلاب في التراجع منذ أواخر ستينيات القرن الماضي. ويأتي الطلاب الأميركيون في مراكز قريبة من أسفل السلّم في الاختبارات الدولية في العلوم والرياضيات. وأظهرت دراسة حديثة أنّ الأطفال الأميركيين يجهلون تمامًا الحقائق التاريخية الأساسية، والحقيقة هي أنّ مستويات الأداء كانت في ذروتها عندما كان الأطفال الأميركيون ينجزون واجباتهم المدرسية بأنفسهم.

وهناك والدون كثيرون يردّون عليّ فيقول واحدهم: «لكنْ يا جون، إذا تركتُ طفلي ينجز واجبه المدرسي وحده فلن يتمكّن من تحقيق ذلك ببساطة.»

قد يكون هذا صحيحًا، لفترة مُعيَّنة على الأقلّ، وأنا أرى بناء على خبرتي المهنية أنّ أداء الأطفال في المدرسة يتحسّن عندما يمتنع الوالدون عن المشاركة في إنجاز الواجبات المدرسية. ربّما لا يحدث ذلك بصورة فورية، لكنْ مع الوقت. كذلك لا يمكن للمرء أن يحمّل طفلاً المسؤولية عن أمر ما ثم يتّخذ موقفًا لا مباليًا. على الوالدين أن يكونوا مستعدّين لإعطاء الأطفال حوافز ملائمة إذا فشلوا بدايةً في التقاط الكرة كما يُقال.

هناك أطفال يعانون من مشكلات لا يجوز معها العقاب، لكنّ تجربتي الشخصية والمهنية تفيدني أنَّ هذه الفئة من الأطفال هي أقلّية بين جميع الآخرين الذين يُبدون الكسل والتواني عندما يحين أوان الواجبات المدرسية.

خلاصة الكلام وجوهره: في معظم الحالات يتصرَّف الأطفال الذين يخافون من عواقب سوء تصرُّفهم بشكل أفضل من الأطفال الذين لا يساورهم مثل هذا الخوف. والأمر ذاته ينطبق على الأداء المدرسي، وما أقوله ليس مجرّد رأي شخصي، هناك أبحاث موثوقة تدعم موقفي. وقد أَجْرَت عالمةُ النفس ديانا باومريند (Dianna Baumrinid) دراسة دامت ثلاثة عقود عن نتائج أساليب متباينة في الرعاية الوالدية واكتشفت أنّ أطفال الوالدين الذين يحبّون أطفالهم ويعاقبونهم أيضًا عندما لا يطيعون أوامرهم، يتصرَّفون بشكل أفضل ويعانون من مشكلات أقلّ في المدرسة من الأطفال الذين يحاول والدوهم استنباط منطق ينفي وجود سلوك سيِّئ في الدنيا.

لا تسيئوا فهمي. الطفل الذي يرفض والداه الاعتراف والإشادة بحسن سلوكه وأدائه الدراسي لن يواظب طويلاً على سلوكه الحسن وتفوُّقه في المدرسة. ولكي يطوّر الأطفال اعتزازهم بإنجازاتهم ينبغي أن يُظهِر الوالدون أيضًا وأولاً اعتزازهم بهم.

الاهتمام مقابل المشاركة

أَطلعَتني أمّ غاضبة أخيرًا على رسالة تلقَّتْها من معلّم ابنها في الصفّ الثاني عن موضوع مشاركة الوالدين الأولاد في إنجاز الواجبات المدرسية. وبالكاد موّهت الرسالة القصد منها إذ جاء فيها: «إذا أردتِ أن يحصل طفلك على علامات جيّدة يجدر بك أن تتعرَّفي إلى مقرَّراته الدراسية وأن تجلسي معه عندما ينجز واجباته المدرسية.»

سألتني الأم: «ما رأيك في كلام من هذا النوع؟»

أنا أرى أنّ هذا كلام شائن. أعتقد أنّ على المعلّمين أن يكونوا أكثر دراية. إنَّ مشاركة أحد الوالدين في إنجاز الواجبات المدرسية تمنع الطفل بصورة فعّالة من تحمّل المسؤولية الكاملة عن عمله، كما تشجّع الاتّكالية وتقضي على روح المبادرة وتحرم الطفل حقَّه في مجابهة التحدِّي. وإذا كانت العلامات هي المسألة الأساسية فإنَّ الوالدين الذين يشاركون بانتظام في إنجاز الواجبات المدرسية لأطفالهم يقدِّمون مساعدة قصيرة المدى فحسب. أما إذا كان التعلّم هو الأساس فإنَّ الوالدين الذين يشاركون بانتظام في إنجاز الواجبات المدرسية يضرّون أطفالهم في المَدَيَين القريب والبعيد على السواء.

يجب على الوالدين أن يهتمّوا جدِّيًّا بتعليم أطفالهم، لكنّ الاهتمام والمشاركة أمران مختلفان تمامًا. لا بأس في تقديم نصح أو توجيه للطفل بين الحين والآخر، لكنْ لا يجوز للوالدين ضخّ الطاقة التي تحرِّك آليّة الواجبات المدرسية. ولسوء الحظّ يتعيَّن على الوالدين الذين يرفضون أن يتحوَّلوا إلى مساعدين دائمين لأطفالهم في إنجاز الواجبات المدرسية، أن يتقبَّلوا إصرار والدين كثيرين آخرين على ضمان نيل أطفالهم علامات لا يستحقُّونها، تقدّم صورة مبالغًا فيها لقدرتهم الحقيقية. وهكذا يُضطرّ الوالدون الرافضون إلى تقبُّل احتمال أن يكون أطفالهم من القلائل القلائل الذين تعكس علاماتهم قدراتهم ومثابرتهم. إنَّه ليس قرارًا سهلاً بالنسبة إلى الأب والأم، لكنَّه القرار الصحيح بالرغم من كل شيء.

وإلى الوالدين الذين يتمتّعون بالشجاعة الكافية لاتخاذ هذا القرار: اقرأوا في ما يلي ردًّا على الرسالة المُستنسَخة التي قالت للأمّ ما معناه: «كوني أمًّا جيّدة وساعدي طفلك في إنجاز واجباته المدرسية.»

«حضرة المعلّم: مع كامل الاحترام لشخصك، أنا لا أنجز الواجبات المدرسية لطفلي. أقول له أحيانًا ببساطة إنَّه ذكي بما يكفي ليجد الأجوبة والحلول المناسبة بنفسه. ومن الواضح أنَّ قيامي بهذا العمل نيابة عن طفلي ليس من مصلحته. أنا لست والدة كسولة، لكنّي لست ولن أكون مدبّرة لصغائر التفاصيل. مدبّرو صغائر التفاصيل لا يحفزون الناس على تقديم أفضل ما لديهم بل أسوأ ما لديهم، سواء كان لقبهم «السيد المدير» أو «ماما».

واصِل بعث رسالة تشجّعني فيها على المشاركة في إنجاز الواجبات المدرسية لطفلي، لكنّي لن أفعل. بتاتًا. سأقدّم لطفلي التوجيه اللازم بين الحين والآخَر وهذا كل شيء. الطفل لا يصبح لاعب كرة ماهرًا إذا كانت أمّه تقف معه لالتقاط الكرات عنه، كما لا يصبح تلميذًا لامعًا إذا كانت أمّه تساعده في واجباته المدرسية كل ليلة، أو حتى في معظم الليالي.

لكنْ إليك الآن عرضي المقابل: إذا كان طفلي لا ينجز واجباته المدرسية أو لا يقدّم الأداء الذي يقدر عليه فأرجو إبلاغي، وسيتمنى الطفل عندها لو كان فعل ما كان عليه أن يفعله. لا تَخَفْ. لن أؤذي طفلي أو أجوّعه، لكنّي سأعلّمه بالتأكيد أنّ اللامسؤولية تجرّ وراءها تبعات غير مستحَبّة. كذلك إذا أساء طفلي سلوكه في الصف فما عليك إلّا إبلاغي وسأعلّمه أنّ سوء السلوك يجرّ وراءه تبعات غير مستحبّة. وبالمناسبة، إذا اختلفتْ رواية طفلي عن روايتك بشأن ما حدث فسوف أُصدّقك أنتَ، بالرغم من اعتقادي بأنّك لا ترى الصورة كاملة. وفي هذه الحالة لن يعرف طفلي أبدًا بوجود خلاف في الرأي بيننا. وعلى طفلي أن يتعلّم أيضًا أنّ الحياة ليست منصفة دائمًا. ألا توافقني على ذلك؟

أرجو أن لا تحبطك هذه الرسالة كثيرًا، فأنا في الواقع أكبرُ مؤيّدة لك.»

هل هناك أسئلة؟

سؤال: أختلفُ مع زوجي بشأن دفع أجر للأطفال مقابل قيامهم بأعمال في المنزل. فهو يشعر بأنّ الأطفال يجب أن يكسبوا مالاً لقاء عمل يؤدّونه مثلما نتقاضى نحن أجوراً عن الوظائف التي نشغلها. وأقول أنا إنّ الأعمال المنزلية التي يقومون بها هي واجب عائلي، وكما لا أتلقّى أنا أجراً لقاء إعداد وجبات الطعام لا ينبغي أن ينالوا هم مالاً لقاء إطعام الكلب وما شابه ذلك. مَن المحقّ؟

جواب: أنا أتّفق معكِ في أنّ الأعمال المنزلية واجب عائلي يجب أن يتشارك فيه جميع أفراد الأُسرة وفقًا للعمر والمقدرة. ويؤدّي استعمال كلمات معيَّنة لوصف الأعمال التي يقوم بها طفل في المنزل، مثل «وظيفة» أو «شغل»، إلى فهمٍ مُضلِّل يضع هذه الأعمال في مرتبة الوظائف التي يمارسها الكبار خارج المنزل. ويتمثّل الفارق طبعًا في أنّ وظيفة الكبير هي التي تؤمّن للطفل مستواه المعيشي. ويشكّل ذلك التزامًا للطفل يستطيع الوفاء به عبر القيام بأعمال في المنزل، ما يعني أنّ هذه الأعمال هي خدمة من أجل العائلة ووسيلة الطفل الوحيدة للمساهمة في رفاه عائلته. كذلك تترتّب على الوالدَيْن عند وجودهما في البيت أعمال منزلية وواجبات عائلية يؤدّيانها دون أن يتلقّيا أجرًا عليها. وفي هذه الظروف ينطوي دفع أجر لطفل لقاء القيام بعمل يؤدّيه الكبار مجانًا لأنّه واجب عليهم، على معنى ضمني هو أنّ الأطفال يتمتّعون بمكانة متميِّزة في العائلة تحرِّرهم من أيّ التزام، وهذا مفهوم خَطِر بالفعل.

قد يعتقد البعض أنّ دفع أجر لطفل لقاء قيامه بأعمال هو عامل تشجيع له. لكنّ هذا غير صحيح والنتيجة هي العكس تمامًا. ويترك إعطاء طفل مالاً للقيام بأعمال معيَّنة انطباعًا واهمًا هو أنّ الطفل ما كان اضطُرّ للقيام بالعمل لو لم يكن يشعر بأنّه في حاجة إلى المال. من هذا المنطلق لم ألتقِ أبدًا والدين يدفعون أجرًا لأطفالهم ولا يجدون صعوبة في جعلهم يقومون بالعمل المطلوب منهم.

إنّ دفع مال للأطفال مقابل القيام بأعمال في المنزل يحجب حقيقة كونها واجبات، وإن دُفع أجر لقاء عمل ينتفي اعتباره مساهمة لصالح العائلة ويصبح خدمة

مؤدّاة من أجل المال. ودفع أجر لقاء عمل منزلي يضع مالاً في جيب الطفل، لكنَّه لا يضع في رأسه أيّ فهم حقيقي لقيمته. قد يتعلّم الطفل من ذلك شيئًا عن كسب المال، لكنَّه لا يتعلَّم شيئًا على الإطلاق عن المسؤولية التي تترافق والانتماء العائلي.

وبالرغم من أنَّ الأُسرة ليست مؤسّسة ديموقراطية ولا يجوز أن تكون كذلك، فإنَّ الأعمال المنزلية يمكن أن تجعل الطفل يفهم أنَّ الديموقراطية الحقّة لا يمكن أن تدوم إلّا إذا كان المواطنون مستعدّين للتخلّي عن مصالحهم الخاصة وتأدية خدمات عامّة، وأخلاقيات الخدمة العامّة لا تنشأ من ذاتها بل يجب تعلّمها. وهذا ما كانت جدّتي تعنيه عندما كانت تقول إنّ المواطنية الصالحة تبدأ في المنزل.

ومن المؤسف أنّ عددًا كبيرًا جدًّا من والدي هذه الأيام يمتنعون عن تكليف أطفالهم بأعمال روتينية منتظمة بدل المهمّات العشوائية غير المبرمَجة. ويساهم هذا الامتناع في ترسيخ الاعتقاد بأنّ الأشخاص الوحيدين الذين يتحمَّلون التزامات في العلاقة بين الوالدين والأطفال هم الآباء والأمّهات، وهكذا يعلّمون أطفالهم أنَّهم يستطيعون الحصول على شيء مقابل لا شيء.

ونصيحتي الدائمة هي أنّ الطفل يجب أن يتعرَّف إلى الأعمال المنزلية بعد فترة قصيرة من إتمامه عامه الثالث، ومن الضروري أن تصبح هذه الأعمال جزءًا من روتينه اليومي يعرف أوانه مثلما يعرف موعد اغتساله قبل النوم. ابدئي بأعمال من ضمن الدائرة الخاصة بالطفل، مثل جعله يلمّ لُعَبه في وقت معيّن كل يوم. ارتكزي على نجاح الطفل لتوسيع مسؤوليته تباعًا إلى الدائرة الأعمّ. ومن المعقول تمامًا أن نتوقَّع من طفل في الخامسة أن يساهم بثلاثين دقيقة في العمل في المنزل كلّ يوم. وإلى كلّ مَن رفع حاجبَيه استهجانًا أودّ أقول إنّ ثلاثين دقيقة تمثّل خُمس الوقت الوسطي الذي يُمضيه طفل في الخامسة أمام التلفزيون يوميًا. هل لدى الطفل العادي وقت للقيام بأعمال منزلية؟ بالطبع نعم! هذه مسألة أولويات فقط، كغيرها من الشؤون.

سؤال: لدينا ابن في الثانية عشرة وابنة في التاسعة من العمر وهما يتقاسمان كل مساء مهمةّ الاعتناء بحيوانات العائلة. وعلينا أن نذكّرهما بإنجاز عملهما كل

يوم، لكنَّهما لا ينفذّانه إلا بعد مقاومة شديدة علمًا أنَّ المهمّات الموكلة إليهما ليست متعبة بالتأكيد. ونشعر، زوجي وأنا، بأنّ وضع هذه المسؤولية على كاهليهما مفيد لهما. ماذا نستطيع أن نفعل للتأكد من أنَّهما ينجزان العمل المطلوب منهما دون الحاجة الدائمة إلى التذكير والصراخ (صراخهما لا صراخنا)؟ يعلم الاثنان أنّ هذه الأعمال يجب أن تُنجز كل مساء وأنَّ عليهما القيام بها، ومع ذلك يثابران على التهرّب إلى أن نبدأ في التذمّر، ما يؤدّي إلى انفجار غضبهما. لقد سئمنا هذا الوضع برمتّه. نرجو مساعدتنا!

جواب: يا لها من قصّة! تحوِّلان «الحبّة إلى قبّة» في التشخيص التخصُّصي لعلماء الصحّة النفسية كي تكتشفا أنَّ طفليكما مصابان بردّ فعل «تفجّري» على المضايقات الوالدية وقصور الانتباه إلى إنجاز المهمّات الواجبة!

لِنَعُدْ إلى الجِدّ. خطّة العلاج مُحدَّدة المعالم جدًّا. أولاً، توقّفا عن الإلحاح والمضايقة، قولا لطفليكما شيئًا من هذا القبيل: «لن تسمعا أبدًا ومطلقًا بعد اليوم أيًّا منّا يشير إلى مهمّاتكما. أنتما تعرفان ما هي المهمّات ونتوقّع منكما أن تبدآ في تنفيذها قبل الساعة السابعة مساءً (مثلاً). وإذا لم تبدآ بحلول الساعة السابعة فسنقوم نحن بها نيابة عنكما. فكرة حسنة؟» لا تقولا شيئًا بعد ذلك.

إذا طرحا عليكما أيّ سؤال فأجيبا: «هذا كل ما لدينا لنقوله.» بعد ذلك اجلسا وانتظرا. وفي المرّة التالية التي يترك الاثنان الموعد المحدّد يمضي دون أن يفعلا شيئًا، انهضا وقوما بالأعمال المنوطة بهما، وعندما تنتهيان عودا إلى مكان جلوس الولدَين وأعلِنا أنّ الوقت حان كي يذهبا إلى النوم. لِتكنْ البهجة بادية عليكما. وما إن يحتجّا بأنَّ موعد النوم لن يحين قبل ساعتين على الأقلّ، قولا لهما: «آه، ألم نُبلِغْكما؟ في الساعة السابعة إمّا أن تكونا خارجَيْن من الباب للقيام بواجباتكما أو نخرج نحن للقيام بها عنكما. وإذا نفّذنا نحن عملكما فعليكما الذهاب إلى سريريكما فور انتهائنا. الواقع هو أننا إذا وضعنا قَدَمًا واحدة في الخارج للقيام بعملكما تكون فرصتكما قد فاتت ويجدر بكما عندئذ أن تكونا قد اندسستما في فراشيكما وأطفأتما الأنوار عند عودتنا. بالمناسبة، إذا قمنا بعملكما لأكثر من أمسية واحدة بين الاثنين

والجمعة تُلغى جميع امتيازاتكما المخصَّصة لعطلة نهاية الأسبوع. هل من أسئلة؟» كلّ هذا الكلام يجب أن يُقال بنبرة صوت جادّة، أي مثيرة للحفيظة، مع توجيه نظرات متغابية وهزّات كتف كثيرة كأنّكما تقولان ساخرَيْن: «نحن آسفان جدًّا جدًّا لذلك!»

سَيُفَعِّل هذا الخطاب ما أُسمِّيه «مبدأ العذاب» وتعريفُه هو: لا يجوز للوالدين أن يعذِّبوا أنفسهم بسبب أي شيء يفعله، أو لا يفعله أطفالهم إذا كان هؤلاء الأطفال قادرين تماماً على أن يتعذَّبوا للسبب ذاته.

والأشخاص الذين يستاؤون من مشكلة معيّنة سيحاولون حلّها. في هذه الحالة أنتما تحاولان أن تحلّا مشكلة وتدفعان نفسيكما ببطء نحو الجنون في الوقت ذاته، مع أنّ طفليكما فقط هما القادران على حلّها، وسيحلّانها عندما تجعلانهما يبدآن في فقدان صوابهما بسببها.

والآن اهدآ واسترخِيا واتركاهما يتعلَّمان كيف يتعامل العالم الحقيقي مع الأشخاص الذين لا يتقبّلون تحمّل مسؤولياتهم. طفلاكما يبلغان تسع سنوات واثنتي عشرة سنة. جيّد. لم يَفُت الوقت بعد، لكنّه يمضي هباء!

سؤال: لديّ سؤالان. أنت شجَّعتَ في مقال نشرتَه أخيراً تكليف الأطفال القيام بأعمال منزلية ونصحتَ والديهم بعدم دفع أجور لقاء هذه الأعمال. هل تُعارض أيضًا مصروف الجيب؟ ثانيًا، عندما يوجد طفلان، أو أكثر، هل ينبغي أن يتبادلا أداء المهمّات المطلوبة على أساس منتظم؟

جواب: أنا لا أعارض إعطاء الطفل مصروف جيب ما دام ذلك لا يرتبط مطلقًا بالأعمال التي يقوم بها، أي أنّه لا يجوز استخدام مصروف الجيب كجزرة أو كحافز لإقناع الطفل بتنفيذ عمل ما، كما لا يجوز حرمانه من مصروف الجيب كعقاب على عدم قيامه بمسؤولياته في الوقت المحدّد أو بشكل صحيح. في هذه الحالة على الأقلّ ينبغي أن تجهل اليد اليسرى ما تفعل اليد اليمنى.

الأعمال المطلوبة تُعَلِّم الطفل المسؤولية والانضباط الذاتي والاستفادة من الوقت ومهارات حياتية عديدة أخرى تمسّ الحاجة إليها جميعًا في أيّ نشاط يمارسه

إنسان راشد. ويساعد مصروف الجيب الطفل على تعلّم كيفية التصرّف بالمال إذا تحقّق شرط واحد هو أن يحمِّل الوالدان الطفل مسؤولية شراء حاجيات من نوع واحد فقط عندما يعطيانه مصروفه. على سبيل المثال يعطي الوالدان طفلاً في الخامسة من العمر مصروفًا أسبوعيًّا مقداره كذا لشراء ألعابه بنفسه. وبما أنَّ المبلغ الذي يأخذه أسبوعيًّا غير كافٍ لشراء الأشياء الكثيرة التي يريدها يُضطرّ إلى تعلّم ضبط ميزانيّته وتوفير ماله، وهو أمر يستطيع طفل في الخامسة من العمر القيام به.

أما بالنسبة إلى التبادل المنتظم للمهمّات بين الأطفال فإنّي لا أنصح به. اسألي نفسك أين يحدث مثل هذا الأمر في العالم الحقيقي؟ هل موظّف البنك يعمل صرّافًا لأسبوع ثم يصبح رئيسًا للبنك في الأسبوع التالي وبوّابًا في الأسبوع الثالث؟ وسيلاحظ القارئ فورًا أنَّ ترتيبًا من هذا النوع سيؤدِّي إلى فوضى. كذلك سيؤدِّي تبادل المهمّات بين طفلين أو أكثر إلى ارتباكات وتشويش.

ومن المؤكّد بالمطلق أنّ الأطفال سيختلفون حول دور مَنْ ليقوم بأيّ عمل، وإن لم تكن المهمّة منوطة بشخص واحد دون سواه يبهت حافز الاعتزاز بإنجازها. وهكذا يصبح من المرجَّح أن لا يبذلوا أكثر من الجهد اللازم للتخلُّص من المسؤولية. وعندما ينبّه الوالدان الأطفال بعد ذلك إلى أنّ عملاً مُعيَّنًا لم يُنجَز كما يجب، يشير أحدهم بإصبعه إلى الآخَر. وبما أنَّ تنفيذ المهمّات يتمّ بتبادل الأدوار يحتاج كلٌّ من الأطفال إلى وقت أطول لتعلّم القيام بأيّ عمل بصورة فعّالة. كذلك يمنع تبادلُ المهمّات الأطفالَ من اعتياد روتين معيَّن، ونتيجةً لكلّ ذلك يجد الوالدان نفسيهما مضطرَّين باستمرار إلى تذكير أطفالهما وتأنيبهم وحثّهم على إتمام مهمّاتهم، وهذا مثال آخر يبيِّن كيف تنتكس أحيانًا الجهود التي يبذلها الآباء والأمّهات عن حُسْن نيّة ليكونوا منصفين مع أطفالهم.

يقول أحدهم: «لكنْ يا جون، إذا لم يتبادل الأطفال أداء المهمّات على الإطلاق فلن يتعلّم كلّ منهم إلّا مهارة واحدة لا غير.»

هذا صحيح، لكنّي أتحدّث أنا عن تبادل المهمّات في فترات متقاربة. ويصبح تبادل المهمّات مُجْدِيًا بعد أن يكون كلّ طفل في الأُسرة قد تأقلم مع روتين مهمّته

وتمكّن من النهوض بمسؤوليته، ويمكن أن يحدث ذلك كلّ أربعة أشهر. وكلّما قصرتْ فترة التبادل زادت مخاطر حدوث مشكلات كالتي عدّدتُها.

العائلة كناية عن منظّمة. إنّها الوحدة التنظيمية الأساسية الأولى في المجتمع بالفعل، وعلى جميع أفرادها (باستثناء الرُّضّع والأطفال الصغار طبعًا) أن يتعاضدوا من أجل تحقيق أهدافهم المشتركة. ويجب أن تُحدَّد لكلّ فرد في العائلة مهمّات تُناط به ترسم الدور الذي يقوم به ضمن العائلة وتقول له عمليًا إنّه شخص قادر وكفوء. وهذه رسالة يتقبّلها معظم الأطفال بروح إيجابية، إن لم يكن في البداية فبالتشجيع والتوجيه والدعم والصبر والثبات.

سؤال: هل من الممكن حمل أطفال اليوم على إنجاز واجباتهم المدرسية بأنفسهم؟ يرى المعلّمون في مدرسة ابنتي أنّ على الوالدين أن يرتّبوا جلسات مخصَّصة للواجبات المدرسية ويُديروها. ويصفون الوالدين في هذا السياق برفقاء الواجبات المدرسية. ونتيجة لذلك يعتقد الأطفال أنّ على والديهم مساعدتهم في إتمام الفروض المعيّنة لهم. غير أنّنا، زوجي وأنا، نشعر بأنّ على الأطفال أن ينجزوا واجباتهم المدرسية بأنفسهم. إنّنا مستعدّان لمدّ يد المساعدة عندما تمسّ الحاجة إليها حقًّا لكنّنا لا نريد أن نكون «رفيقَين» لابنتنا مهما تكن الظروف، ما رأيك في هذا الموضوع؟

جواب: نعم، من الممكن حمل الأطفال على إنجاز واجباتهم المدرسية بأنفسهم، حتى في مواجهة معلّمين يريدون أن يصبح الوالدون «رفقاء الواجبات المدرسية». الحلّ سهل جدًّا في الواقع ولا يمكنني أن أدّعي حقوق ملكيّته لأنّ جيل والديّ كان يطبّقه كما هو.

أولاً، لا تسمحوا بالمطلق وفي أيّ حال من الأحوال للطفل بإتمام واجباته المدرسية على طاولة المطبخ أو في أيّ منطقة أخرى تجتمع فيها العائلة. أوضِحوا بكل جلاء أنّ الواجبات المدرسية عمل يخصّ الطفل ويجب إنجازه في غرفة الطفل. وعلى الوالدين التأكّد من حيازة الطفل طاولة كتابة حسنة الإضاءة وتوفّر المواد اللازمة

له، مثل الورق والأقلام وأقلام التلوين والمسطرة وما إلى ذلك. وهناك قاعدة أساسية ثابتة: عندما تُنجَز الواجبات المدرسية في منطقة تجتمع فيها العائلة تصبح موضوعًا عائليًا وتضعف فائدتها بالنسبة إلى الطفل.

ثانيًا، ضعي حدًّا أقصى لعدد المرّات التي تساعدين فيها ابنتك كل مساء، كذلك حدِّدي مدّة المساعدة التي تقدِّمينها. مثلاً، عندما كان طفلانا يرتادان المدرسة وضعنا، زوجتي وأنا، قاعدة تمنعنا من تقديم مساعدة في الإجابة عن أكثر من ثلاثة أسئلة من مجموع الواجب المدرسي كل مساء، على أن لا تتجاوز مدّة كل مساعدة يقدِّمها أيٌّ منّا خمس دقائق. في إطار هذه الحدود الصارمة تمكّن طفلانا فعلاً من نيل علامات جيِّدة أهّلَتْهما للقبول في جامعات محترمة.

إنّي مقتنع بأنَّ إحدى الرسائل غير المقصودة التي يبعثها نظام «رفقاء الواجبات المدرسية» إلى الأطفال هي أنَّهم فاقدون للكفاءة. لذلك، لا يُدهشني أن أسمع من معلّمين متمرّسين أنَّ أطفال اليوم عامّة يعملون بكفاءة أدنى من أطفال ما قبل عشرين سنة أو ثلاثين، كذلك يبدو لي أنّ أطفالاً كثيرين استنتجوا أنَّ الانتباه في الصفّ أقلّ أهميّة من حجم المساعدة التي سيتلقّونها من والديهم لإنجاز واجباتهم المدرسية.

ثالثًا، ينبغي تحميل الأطفال مسؤولية أدائهم المدرسي. ومثلما يختبر الراشدون الذين يهملون مسؤولياتهم تبعات سلبية، يجب أن يتعرَّض الأطفال الذين يرفضون تحمّل مسؤولياتهم لتبعات مماثلة أيضًا. إنَّ الدروس عن واقع الحياة يجب أن تبدأ باكرًا كي لا تأتي متأخّرة بعد فوات أوانها.

وبعد كلّ ما سبق من قول ووصف يتبيّن أنّ الأسلوب المفصَّل آنفًا تحت شعار «أنا لست رفيقك في الواجبات المدرسية» ليس أكثر من تطبيق للنظام الصحيح الذي طالما كان مفتاح نجاح الطفل في المدرسة، وبالرغم من تعالي أصوات الحداثة المعارِضة لا يوجد حقًّا أيّ جديد تحت الشمس.

سؤال: نال ابني التلميذ في الصفّ الثاني درجات امتياز في المواد الدراسية كلّها في ورقتَي علامات هذه السنة غير أنّه لم ينَلْ إلا درجة متوسّطة في المجهود.

وقد أرسلت إليّ معلّمته أخيراً تقريراً عن أدائه قالت فيه إنّ ابني «كثيراً ما لا يبذل مجهوداً يتناسب مع قدرته». وفي أحيان كثيرة يهمل قراءة جميع التعليمات في صفحات دروسه فلا ينجز العديد من الوظائف، ويتفاقم هذا الأمر عادة بسبب استعجاله في إنهاء عمله، كما بسبب إهماله. وتقول معلّمته إنّه يتمتّع بقدرات كبيرة ويفهم جيّداً ما يقرأه ويستطيع حلّ المسائل الحسابية في عقله وما إلى ذلك. وترى المعلّمة أنّ مشكلته تتلخّص في حاجته إلى تحسين تركيزه. وتماشياً مع نصائحك العامّة لا يشاهد ابني التلفزيون ولا يمتلك ألعاب فيديو. لديه مهمّات يقوم بها في المنزل ويشغل وقته بنفسه ويُحسِن التصرّف. هل يوجد شيء أستطيع أن أفعله كي أجعل ابني يتمهّل في إنجاز دروسه ويقرأ جميع التعليمات؟

جواب: هذا مثال صارخ على أسلوب إرخاء العنان للطفل وتمكينه من التصرّف على هواه، وهو الأسلوب الذي كثيرًا ما يُطبَّق اليوم في المدارس الرسمية والخاصّة كبديل لأسلوب التعامل الصارم مع الأطفال. فلدينا هنا معلّمة لا تحدِّد توقُّعات عالية المستوى للطفل ولا تعمل على تحقيقها وتترك بالمقابل طفلاً كفوءًا ينحدر نزولاً ثم ترفع أعلام الإنذار الحمراء لأنّ الطفل اكتشف أنّ من الجائز له أن ينحدر.

تقول المعلّمة بوضوح إنّ من عادة ابنك الإهمال في عمله، ما يؤدِّي إلى تقديمه عملاً ناقصًا، وبالرغم من ذلك يبدو واضحًا أيضًا أنّها لا تعاقبه بسبب هذه المشكلات. إنّها تمنحه فرصة ثانية بعد فرصة ثانية لإتمام عمله وتصحيح أخطائه ثم تعطيه علامات امتياز في جميع المواد. وكون ابنك لا يحرز تقدُّمًا في أسلوب عمله إثباتٌ على أنّه طفل ألمعي متوقّد الذكاء. وهو يعرف أنّه ليس مضطرًّا إلى تغيير أسلوبه لكي يحصل على علامات عالية. الأمر سهل جدًّا في الحقيقة: لا يجوز إعطاء علامات امتياز لطفل لا يعمل بقدر إمكانياته.

وقول المعلّمة إنّ ابنك في حاجة إلى تحسين تركيزه هو بالطبع تلميح إلى أنّه قد يكون مصابًا باضطراب نقص الانتباه، لكن لا تعيري هذا الكلام أيّ وزن! فمن البديهي أنّ هذه المشكلة ليست في جهاز ابنك العصبي لأنّه يركِّز جيّدًا عندما يكون

مضطرًّا إلى التركيز. المشكلة تكمن حقًّا في أسلوب التدريس الذي تتَّبعه هذه المعلمة، وهو أسلوب عديم النفع عمليًّا، بالرغم من حُسن القصد منه. عليك أن تواجهي المعلّمة بموقف حازم ومهذّب لتقولي لها إنَّك لا تستطيعين حفز ابنك على التزام مزيد من الدقّة والأناة في عمله ما دامت هي تعطيه علامات امتياز على أداء دون المستوى المطلوب. أبلغيها أنَّ عليها أن تعاقبه عندما يقدِّم فروضًا غير مُرتّبة وغير كاملة. كما أنَّ العلامة التي ينالها يجب أن تعكس أداءه في المحاولة الأولى لإنجاز عمله وليس المحاولة الثانية أو الثالثة. قولي لها إنَّك على أتمّ الاستعداد لمتابعة القصاص في المنزل عندما ينال علامات دون المستوى، لكنَّك لا تستطيعين تبرير معاقبته لنيله أعلى علامات ممكنة.

هذا ليس تعليمًا، إنَّه محاباة وتدليل. والتدليل لا يحفز الطفل على تقديم أفضل ما لديه بل أسوأ ما فيه كما يُظهر هذا المثال.

سؤال: كانت ابنتنا البالغة من العمر ستّة عشر عامًا تجد صعوبة في مادة الجبْر فاستقدمنا لها معلّمًا لإعطائها دروسًا خصوصية. بما أنَّ ابنتنا تعمل في وظيفة بدوام جزئي هل تعتقد بأنّ عليها أن تدفع رسوم الدروس الخصوصية كليًّا؟ أو جزئيًّا؟

جواب: أفضل مقاربة لهذا الموضوع مرَّت عليّ حتى الآن وصلتني على عنواني الإلكتروني (www.rosemond.com) من والدَيْن لبنت في المرحلة الدراسية الثانوية أيضًا ولها وظيفة بدوام جزئي. فقد قرَّر الوالدان أن تدفع هي تكلفة الدروس الخصوصية، مقابل أن يُرَدّ إليها المال إذا تحسّنت علاماتها. وغنيٌّ عن القول إنَّ علامات الابنة تحسّنت فعلاً. المبدأ بسيط: الإنسان يعتني أكثر بكلّ ما لا يأتيه بالمجّان.

سؤال: ابننا البالغ من العمر ستّ سنوات دائم النسيان ويبدو أنَّه لا يستطيع تذكرّ أمور نقول له أن يفعلها. كذلك ينسى الأعمال التي عليه القيام بها والرسائل التي يُوصى بتبليغ الآخَرين بها، وهكذا دواليك وهلّم جرًّا. وقد صرنا ندعوه «أبو

ضباب» *(Foggy)* لأنّ ذاكرته تبدو ضبابيّة طول الوقت. وبالرغم من أنّ معلّمه يقول إنّ طفلنا لا يعاني من هذه المشكلة في المدرسة فإنّها مشكلة دائمة في المنزل. ويقول زوجي إنّه كان يعاني من الصعوبة ذاتها عندما كان طفلاً، لذا نتساءل ما إذا كانت العلّة موروثة. مهما يكن من أمر، هل يمكن شفاؤه من النسيان؟ أم هل ينبغي أن نتعلّم التكيّف مع المشكلة؟

جواب: كلا. النسيان ليس وراثيًا. إنّه يأتي عن طريق التعوّد في معظم الحالات. وذلك يعني أنّ والدي الأطفال «الكثيري النسيان» يتذمّرون ويفركون أيديهم ويبتهلون طلبًا للفرج، لكنّهم نادرًا ما يمارسون ضغطًا حقيقيًا ثابتًا على أطفالهم للكفّ عن عصيان التعليمات.

أسمع هنا مَن يصيح: «هل استعملت كلمة عصيان يا جون؟ كيف تستطيع أن تكون فظًّا إلى هذا الحد؟ النسيان والعصيان أمران مختلفان تمامًا.»

كلا، هذا غير صحيح. لاحِظوا أنّ الطفل الذي نتحدّث عنه ينسى عادة إحدى مسؤولياته، إحدى المهمّات المنوطة به. وأنا أراهن على أنّه لا ينسى البوظة الموجودة في الثلاجة أو وعدًا قطعه له والداه. إنّه يتذكّر ما يريد تذكّره وينسى ما يفضّل تجاهله، مثل الواجبات المنزلية، شأنه في ذلك شأن معظم الأطفال. وهذا نوع مستتر (أي أقلّ انفضاحًا) من عصيان الأوامر. وأنا أُسلّم بوجود حالات نادرة لأطفال كثيري النسيان يرجع نسيانهم إلى اعتلالٍ نادر هو صعوبة التعلّم، كما لا أقول إنّ النسيان لدى طفل في الثالثة مرادف للعصيان. لكنّ النسيان الدائم لدى طفل في السادسة ذي قدرة عقلية طبيعية هو نوع من العصيان الذي يتطلّب التأديب.

إليكِ العلاج الذي طلبتِه: أعدّي لائحة بالامتيازات المفضّلة لدى ابنك، مثل ركوب درّاجته واستقبال صديق للعب معًا ومشاهدة التلفزيون وممارسة ألعاب الفيديو والذهاب إلى سريره في الموعد الاعتيادي. ألصقي اللائحة على باب البرّاد، وكلّما نسي القيام بعمل أُمِر بإنجازه اشطبي أحد الامتيازات مبتدئة بالأحبّ إلى نفسه

(إن خسر امتياز الذهاب إلى سريره في الموعد الاعتيادي يصبح لزامًا عليه النوم قبل ذلك بساعة).

ويظلّ محرومًا من كلّ امتياز فَقَدَه حتى يوم الاثنين التالي (أو بداية الأسبوع). وبعد أن تضعي ابنك في فراشه مساء آخرِ يوم في الأسبوع أزيلي اللائحة القديمة وضعي مكانها لائحة جديدة.

تطلق اللغة المختصّة بعلم النفس على هذا الأسلوب تسمية «ثمن الاستجابة» (Response Cost)، أي أنّ استجابة ابنك لتعليماتك بالنسيان تكلّفه ثمنًا يدفعه من أمور عزيزة عليه.

خميرة هذه الوصفة هي ما أُسمّيه «قاعدة الحَكَم»: لا تذكير، لا تحذير، لا فرصة ثانية. إن نسي خسر امتيازًا، لا أكثر ولا أقلّ. أُسمّي ذلك «قاعدة الحَكَم» لأنّك لا ترين حَكَمًا في مباراة رياضية يذكّر ويحذّر بل يتصرّف، ولو عمد الحَكَم إلى التذكير والتحذير لفسدت المباراة وتحوّلت إلى فوضى في غضون دقائق.

وإنْ ثابرتِ على تطبيق هذا الأسلوب المجرَّب منذ القِدَم، أي إنْ التزمتِ الإنصاف والصرامة، أستطيع أن أعطيك ضمانة تامّة تقريبًا على أنّك ستشهدين تحسُّنًا مذهلاً في ذاكرة ابنك خلال الأشهر القليلة القادمة.

سؤال: لدينا، زوجي وأنا، ثلاثة أبناء في الرابعة والخامسة والثامنة من العمر، ويشغل الابنان الأصغران غرفة تبدو وكأنّها ممرّ للأعاصير. إنّهما لا يشاهدان التلفزيون بل يلوّنان ويلعبان بِقِطَع الليغو (Lego) ويمزّقان الأوراق ويمضيان وقتهما هكذا طول النهار. وهما لا يسبّبان أيّة مشكلات عندما أقول لهما إنّ الوقت حان لتنظيف الغرفة، لكنْ ما إن تمضي دقائق بعد التنظيف حتى تعود الغرفة إلى شكلها القديم كمنطقة منكوبة. ويمارس الابن الأكبر ذو السنوات الثماني الهواية ذاتها، ولكن على نطاق أضيق قليلاً. أنا لا أكفّ عن القول لهم إنّ عليهم ترتيب الغرفتين حتى أصبحتُ أشعر بأنّني صرت نزقة بشهادة. هل من الأفضل أن أُغلق باب الغرفتين وأتركهم يفعلون ما يحلو لهم؟

جواب: لن تنالي منّي أو من القرّاء الآخرين كثيرًا من التعاطف. فلديك ثلاثة أبناء لهم المميزات التالية:

أ ـ يشغلون وقتهم بأنفسهم ويلعبون بطريقة إبداعية طوال النهار؛ ب ـ ينظّفون ويرتّبون دون شكوى عندما تطلبين منهم ذلك؛ ج ـ يتحلّون بكثير من التهذيب والاحترام إذ لم يقولوا لك إنّك أصبحت نزقة بشهادة.

إنّ مصدر إجهادك النفسي ليس الفوضى الخلاقة التي يسبّبها أطفالك، وعليك في الواقع أن تكوني شاكرة على أنّهم لا ينشرون الفوضى إلّا في غرفتَيهم ويتركونك وشأنك في هذه الأثناء! والآن عليكِ أنتِ أنْ تتعلّمي أن تتركيهم وشأنهم. فالبادرة الحسنة من جهة تستحقّ بادرة مماثلة من الجهة الثانية. إنّ مصدر إجهادك النفسي هو توقُّعك غير المنطقي إلى حدّ ما أن يلعب أطفالك بطريقة إبداعية دون أن يسبّبوا فوضى. لنواجه الحقيقة: الإبداع يجلب الفوضى.

عليكِ فعلاً أن تتوقّعي من أطفالك أن ينظّفوا غرفتَيهم مرة في اليوم قبل إخلادهم إلى النوم. أمّا أثناء النهار فاسمحي لهم بإبقاء بابَي غرفتَيهم مغلقَين. وكما يقول المثل الشعبي: «لا مِن شاف ولا مِن دِري.»

سؤال: لدينا ابن وحيد في الثالثة عشرة من عمره اسمه ويليام، وهو جيّد السلوك عامة ويُبلي بلاء حسناً في المدرسة، وخلال الصيف الماضي قرّرنا جميعاً أن يبدأ ويليام العمل في متجر أبيه يوماً واحداً في الأسبوع خلال الصيف ويوماً واحداً من يومَي العطلة الأسبوعية خلال السنة الدراسية ليكسب بعض المال وينمّي أخلاقية عمل جيّدة. ومنذ ذلك الحين لم نعرف إلا المتاعب. فابننا يدّعي أن اضطراره إلى العمل يضيّق عليه حياته الاجتماعية ويحرمه من الاستمتاع بطفولة «مرحة». ويسبّب ذلك خلافاً شديداً بينه وبين أبيه ومشكلات عائلية كثيرة. لو كان ويليام ابنك هل كنتَ أرغمتَه على احترام الاتفاق الذي وافق عليه؟

جواب: إذا كان إرغامه على احترام الاتفاق سيسبّب اضطرابًا في العائلة فلن أفعل. وكنتُ سأترك ولدي ينسحب من الاتفاق بعد أن اكتشفَ حقيقة ما وافق عليه.

إنّ محاولة إرغامه على الالتزام بالاتفاق في هذا العمر لن تنجح إلّا بثمن يتمثّل في خطر إذكاء تمرّد عارم في داخله. كما أنّ رفضه العمل لدى أبيه لا يعني أنّه سيصبح رجلاً كسولاً بطّالاً عندما يكبر.

سألتني ماذا كنتُ أفعل لو أنّي والد ويليام، وإليك ردّي: «أقول له إنّه ليس مُرْغَمًا على العمل لديّ إذا كان غير راغب في ذلك. بَيْدَ أنّي سأعطيه في هذه الظروف مصروف جيب أسبوعيًّا لا يتجاوز حدًّا مقبولاً ليكون مسؤولاً بعد ذلك عن شراء حاجياته الكمالية من ملبس ومواد تسلية، إلّا إذا كان آخرون من أفراد الأُسرة سيستخدمون مواد التسلية هذه. لكنّي لن أقدّم له على الإطلاق أيّ سلفة على حساب الأسبوع أو الشهر التاليين. وإذا أحسّ بأنّه يحتاج إلى مزيد من المال فعليه أن يسألني ما إذا كان لديّ عمل يقوم به أو أن يسأل الجيران عن عمل له. وإذا سألني عن عمل له ووجدتُ نفسي مضطرًّا لمراقبته فسوف أطرده من العمل وأُنهي الموضوع.

إنَّ خطّة توجيهية من هذا النوع كما شرحتُها بالتفصيل في كتابي «تحصين المراهقين» ستجبره على وضع ميزانية للمال الذي يملكه والشروع في مواجهة الحقائق الاقتصادية، بما في ذلك المبدأ القائل: «المال لا ينمو على الشجر». وهكذا سيحظى بقدر لا بأس به من الاستقلال المالي وسيتعلّم بالتجربة وبالخطأ والصواب كيف يتّخذ قرارات رزينة بشأن الإنفاق. وفي الوقت ذاته سيتلاشى التوتّر الراهن بين الأب والابن.

من شأني كذلك أن أُكلِّف ويليام بمهمّة واحدة على الأقلّ يوميًّا من بداية الأسبوع إلى اليوم السادس منه ينفِّذها بعد المدرسة أو بعد وجبة الغداء (بالإضافة إلى ترتيب سريره كلّ يوم والمحافظة على نظافة غرفته). وسيكون مصروف جيبه منفصلاً تمامًا عن المهمّات التي توكل إليه. بعبارات أخرى، يقوم ويليام بمهمّاته دون مقابل ولسبب بسيط هو أنّه فرد من هذه الأُسرة. كذلك لن أُخضِعه للمراقبة في مجال المهمّات المنزلية. وإذا امتنع عن القيام بعمل أُنيط به فلن أتذمّر أيضًا. سأقوم أنا بالعمل نيابة عنه، لكنْ إذا قمتُ بعمل ما نيابة عنه خلال الأسبوع فسوف تُلغى امتيازاته وحرّيّته أثناء العطلة الأسبوعية.

أنا لا أؤمن بإدارة الشؤون التفصيلية الصغيرة لمراهق أو لطفل مهما يكن عمره. لكنْ لا يجوز في الوقت ذاته لطفل قادر على بعض العطاء أن يكون استغلاليًّا طول الوقت يأخذ دون مقابل. قدِّما، أنتِ وزوجك، خدمة لنفسيكما ولابنكما ويليام بتركه يتعلَّم دروس الحياة بالطريقة الصعبة. توقّفا عن محاولاتكما تلقينه هذه الدروس رغم أنفه.

سؤال: تجاهلَتْ مديرة المدرسة طلبي إلحاقَ ابني بصفِّ معلّمٍ معُيَّن من معلّمي السنة الثالثة، ووُضع في صفّ معلّم صارم كثير المطالب لا يتوافق أسلوبه مع طبيعة ابني. وقد نشأ نزاع بين شخصيتَي المعلّم وابني ولـمّا يمضِ شهر واحد على بداية السنة الدراسية. تحدّثتُ إلى مديرة المدرسة في الموضوع، لكنّها قالت إنّ على ابني أن يتعلّم تلقّي التعليمات من الأشخاص الذين يرمزون إلى السلطة سواء كانوا يروقونه أم لا. ماذا أستطيع أن أفعل؟

جواب: سأكون في منتهى الصراحة. بكل بساطة ليس من الممكن لطفل أن يدخل في نزاع شخصيّ مع راشد يحتلّ موقع السلطة الشرعية. يمكن لراشدَيْن أن يدخلا في نزاع شخصيّ، ولطفلَيْن أن يدخلا في نزاع شخصيّ، لكن لا يمكن نشوء نزاع شخصيّ بين طفل ومعلّم (أو أيّ راشد آخر يمثّل السلطة). نقطة.

إمكانية نشوء نزاع كهذا فكرة جديدة عليّ، وهي نتاج تلاشي التمايز بين الطفل والراشد على امتداد السنوات الأربعين الماضية أو نحوها. في ستينيات القرن الماضي تمّ الترويج للفكرة المنادية بضرورة جعل العلاقة بين الراشد والطفل ديموقراطية على يد «خبراء» ذوي نوايا حسنة، مثل العالِم النفسي توماس غوردون (Thomas Gordon) مؤلّف كتاب «تدريب الفاعلية الوالدية» (Parent Effectiveness Training). تحدّث غوردون وآخرون ساروا على دربه كتابةً وقولاً عن «العائلة الديموقراطية» و«الصفّ المدرسي الديموقراطي». وكان المفهوم الكامن خلف هذه التوجُّهات أنّ الراشدين والأطفال متساوون وأنّهم يلعبون في الملعب ذاته. وعندما ترسّخ هذا المفهوم المستهجَن والهدّام في ثقافتنا تحوَّلت فكرة وجوب إطاعة الكبار من قِبَل الأطفال إلى فكرة تحميل الراشدين مسؤولية إقامة علاقات عمل إيجابية مع الأطفال، ما قَلَبَ العلاقة

بين الراشدين والأطفال رأسًا على عقب في واقع الحال. وهكذا وُضع الراشدون الذين يمثِّلون السلطة في موقع مَن يحاول استجداء القبول من جانب الأطفال فصاروا يرمزون إلى أيِّ شيء ما عدا السلطة.

عندما كنتُ في الحادية عشرة من عمري قبل ستّة وأربعين عامًا كان يُطلَب منّي أن أطيع معلِّميَّ، سواء أحببتهم أم لا. ما كنت لأجرُؤ على أن أقول لوالدَيّ إنَّ ثمّة معلّمًا لا يحبّني لأنّهما كانا سيفترضان فورًا أنّي أقوم بعمل بالغ السوء في صفّ هذا المعلّم ولِعِلْمي بأنَّ افتراضهما صحيح. واليوم من المرجَّح أنْ تؤخَذ شكوى طفل من أنَّ معلّمًا لا يحبّه على عِلّاتها وأن يصبح المعلّم هو المَلوم.

على الإنسان الراشد في العالم الحقيقي أن يطيع رموز السلطة الشرعية سواء أحبَّهم أم لا، وإن نَفَرَ راشدون من شخص يمثِّل السلطة يستطيعون التصويت ضده في الانتخابات أو العثور على وظيفة جديدة أو الانتقال إلى حيّ آخر. وفيما يتمتّع الراشدون بحرّية الاختلاف مع ممثّلي السلطة فإنَّهم ليسوا أحرارًا في عصيان أوامرهم. ولديّ شعور نابع من تفكيري التقليدي القديم بأنّ علينا نحن الراشدين مسؤولية تهيئة الأطفال ليصبحوا قادرين على التكيُّف بنجاح مع العالم الحقيقي.

أظنّ أنّ من واجبك أن تقولي للمعلّم ما قلتُه أنا مرّة لأحد معلّمي ابنتي في المدرسة الثانوية: «أنا لا أوافق على الطريقة التي تُعالج بها بعض المواقف، لكنّي موجود هنا لأقول لكَ إنّني سأدعم قراراتك سواء أأعجبتني أم لا. كذلك سوف أُصِرُّ على أن تطيعكَ ابنتي آمي وستكون هناك تبعات بالنسبة إليها إذا رفضتْ إطاعتك.» وثبت أنّ هذا الموقف الذي اتّخذتُه كان لصالح آمي على المدى البعيد. وسيكون كذلك بالنسبة إلى ابنك أيضًا.

في هذه الأثناء أظنّ أنَّ عليك أن تبذلي بعض الجهد لتأديب ابنك في المنزل. والأرجح أنَّ الحالة التي تصفينها ليست مسألة طفل يشعر بنفور غريزي من راشدين كثيري المطالب بقدر ما هي مسألة طفل لم يتعلَّم ببساطة أن ينفّذ ما يأمره به راشدون.

الامتحان النهائي

لقد ختمتم لِتَوِّكم الدورة الدراسية الأولى في كيفية بناء الأُسرة. لِنَعُدْ إلى الأمور الأساسية، فأنا باعتباري أستاذكم في هذه الدورة، أرجو بكلّ إخلاص أن تكون دروسها قد شحذت هِمَمَكم وفتحت عيونكم وغيّرت أمورًا في حياتكم. لكنّ القراءة لا تكفي لأنّ كلّ دورة دراسية تبلغ ذروتها بامتحان نهائي، ودورتنا هذه ليست استثناءً عن القاعدة. يتألف الامتحان من عشرة أسئلة لكلّ فصل، تجيبون عنها بـ «صحّ أو خطأ»، أي لدينا خمسون سؤالاً في المجموع وُضِعت إجاباتها الصحيحة في آخر الامتحان. لكنْ لا تسترقوا النظر! لا يوجد توقيت محدّد للامتحان، لكنْ إن كنتم قرأتم الكتاب بكامله ستتمكّنون من إنهاء الامتحان في غضون ثماني ساعات لا يُسمح خلالها بأيّ استراحة، حتى للذهاب إلى الحمّام. ولأنّ البعض قد يحاولون الغشّ في الامتحان بالكتابة على الذراع، لا يُسمح بارتداء القمصان ذات الأكمام الطويلة.

كفانا هزلاً! أنتم مستعدّون؟ هيا ابدأوا.

الفصل الأول

1 ـ لا يجوز أن تكون علاقة الزوج والزوجة ضمن العائلة أقوى من العلاقة القائمة بين الوالدين والأطفال، وإلّا فَقَدَ الأطفال ثقتهم بأنفسهم إلى درجة مريعة.

2 ـ على الوالدين الذين يجلبون أطفالاً إلى أُسَر فيها زوجة أب أو زوج أمّ وأُسَر مختلطة فيها أطفال لكلٍّ من الزوجين من زواج سابق أن يؤكِّدوا لأطفالهم قبل الزواج أنَّهم لن يتعرَّضوا للتأديب من قِبَل زوجة الأب أو زوج الأم.

3 ـ قد يواجه طفل في عائلة تسيطر عليها العلاقةُ بينه وبين والديه (أو أحدهما) صعوبةً في التحرُّر والانعتاق عندما يحين وقت ذلك.

4 ـ إنَّ طفلاً في الثامنة يلعب اليوم في فريق كرة قدم فائز ببطولة سيظلّ في الغالب يلعب كرة القدم عندما يكون في الثلاثين من عمره.

5 ـ من الممكن حلّ عدد كبير من مشكلات التأديب بمجرَّد تخفيض مستوى الإجهاد النفسي في العائلة.

6 ـ ثمّة طريقة سهلة لتخفيض مستوى الإجهاد النفسي في العائلة هي إشراك الأطفال في أكبر عدد ممكن من نشاطات ما بعد المدرسة وحضور جميع المناسبات والمباريات التي يشاركون فيها.

7 ـ بيّن معظم الدراسات أنَّ الأطفال الذين يُمضون فترات طويلة في دُور الرعاية النهارية أكثر ميلاً للمسالمة عند تسويةِ النزاعات من الأطفال الذين لا يذهبون إلى هذه الدور.

8 ـ تحاول أمّهات كثيرات اليوم تجاوز الحاجز الموضوع أمامهنّ بصيغة رسالة تقول إنّ الأم الأفضل هي الأم الأكثر انشغالاً.

9 ـ النظرة المثالية الجديدة للأبوّة في أميركا هي أن يكون الأب أفضل صديق لطفله.

10 ـ سرير العائلة الذي ينام فيه جميع أفرادها معًا فكرة رائعة ومريحة تُبيِّن للأطفال بوضوح أنَّهم ليسوا شركاء في الحياة الزوجية للأب والأم.

الفصل الثاني

11 ـ التأديب الفعّال هو في الغالب إجادة بعض أساليب القصاص مثل العزل الفردي والحرمان من الامتيازات وتدوين لوائح بالذنوب وما شابه.

12 ـ أهمّ عنصر في التأديب الفعّال هو التطبيق الصحيح للتبعات.

13 ـ التأديب في جوهره هو الأسلوب الذي يستخدمه الوالدان لتحويل طفلهما إلى تلميذ، أي إلى شخص تابع لقيادتهما.

14 ـ خطاب الفئة ألف هو من نوع الكلام الذي يُسمع في غرف نوم الطلاب الداخليين.

15 ـ يستطيع الوالدان السيطرة على سلوك الطفل باستعمال الأساليب التأديبية الملائمة.

16 ـ من السخف الاعتقاد بأن من الممكن منع نشوء المشكلات السلوكية عبر إعطاء التعليمات بصرامة.

17 ـ السماح للطفل بالتحكّم في العلاقة القائمة بينه وبين والديه يتيح له تنمية اعتداده بذاته واحترامه لوالديه.

18 ـ قد يؤدّي إرسال الطفل إلى النوم في ساعة مبكّرة إلى نشوء مشاعر سلبية لديه إزاء سريره وغرفة نومه وقد يبدأ حتى في رؤية كوابيس.

19 ـ يجب أن تكون التبعات من النوع الذي يرسخ في الذاكرة كي تتّسم بالفاعلية.

20 ـ ثباتكم على مواقفكم يؤكّد التزامكم مساعدة الطفل على تعلّم التحكّم بتصرّفاته.

الفصل الثالث

21 ـ الاعتداد الشديد بالنفس مرتبط بالأداء المتميّز في المدرسة.

22 ـ تبنّت الولايات المتحدة في الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي مبادئ وأساليب أفضل في تربية الأطفال.

23 ـ عندما تقودون سيارة تفضّلون اعتراض طريق شخص قليل الاعتداد بنفسه على اعتراض طريق شخص شديد الاعتداد بنفسه.

24 ـ احترام الذات والاعتداد بالنفس لهما المعنى نفسه تقريبًا.

25 ـ تحتاج الأطفال الصغار في عمر بداية المشي نوباتُ غضب عندما لا ينالون ما يريدون بسبب تدنّي اعتدادهم بأنفسهم.

26 ـ يتحلّى الأشخاص ذوو الاعتداد الشديد بالنفس عادة بمشاعر التزام قوية حيال الآخرين.

27 ـ ينمو احترام الذات بإظهار الاحترام للآخرين.

28 ـ نقول عن الطفل الذي يعاني من تدنّي الاعتداد بالنفس «فاسد ومُدَلَّل».

29 ـ حفلات أعياد ميلاد الأطفال يجب أن تكون مناسبات عائلية بسيطة.

30 ـ يحتاج الأطفال إلى قدر مُعيّن من الإطراء، لكن دون إفراط.

الفصل الرابع

31 ـ الأشخاص ذوو الأخلاق الحميدة مهذّبون دائمًا.

32 ـ يميل والدو اليوم إلى قول شيء وفعل شيء آخَر؛ يقولون مثلاً إنّ حُسن السلوك أهمّ من العلامات، لكنّهم يُمضون وقتًا في مساعدة أطفالهم على نيل علامات عالية أطول من الوقت الذي يخصّصونه لمساعدتهم على تحسين سلوكهم.

33 ـ حُسن السلوك من طرق إظهار الاحترام للآخرين.

34 ـ يجب تعليم الطفل أن يقول: «المعذرة»، إذا أراد أن يقاطع حديثًا بين راشدين.

35 ـ يخصّص والدو اليوم عادة كثيرًا من الوقت لأمور ليست لها أهمية كبيرة في المستقبل وقليلاً من الوقت لأمور ذات أهمية كبيرة في المستقبل.

36 ـ إذا واصل الوالدان أو أحدهما الإلحاح وقتًا كافيًا فسيتعلّم الطفل حُسن السلوك في نهاية الأمر.

37 ـ حُسن السلوك يظهر تلقائيًّا في الطفل.

38 ـ الأطفال الذين ينشأون في بيوت تُشَدّد على القِيَم الدينية أقلّ تهيّؤًا لتعاطي المخدّرات والتورّط في ممارسات جنسية قبل الزواج من الأطفال الذين ينشأون في بيوت لا تُشَدّد على القِيَم الدينية.

39 ـ من الأمور المفرحة أنّ أطفال اليوم يغشّون في الامتحانات أقلّ مما كان يفعله الأطفال قبل أربعين عامًا أو خمسين.

40 ـ إذا أعددتم مشروعًا لتعليم الطفل سلوكًا معيَّنًا فينبغي أن تكتمل عملية التعلّم في أسبوع أو أسبوعين.

الفصل الخامس

41 ـ المسؤولية كناية عن امتلاك المرء أخلاقية عمل جيّدة واستعدادًا لتقديم حساب كامل عن تصرُّفاته.

42 ـ على الوالدين أن يدفعوا أجرًا لأطفالهم لقاء قيامهم بأعمال في المنزل.

43 ـ إذا وَجَبَ الاختيار بين إنجاز أعمال منزلية أو ممارسة نشاطات ما بعد مدرسية فينبغي تفضيل النشاطات لأنّها ستعود على الطفل بفائدة أكبر على المدى البعيد.

44 ـ الأعمال المنزلية تساعد الأطفال على تنمية المهارات الأساسية للمواطنية الصالحة.

45 ـ يبدو أنّ جميع الوالدين المعاصرين يعتبرون أطفالهم موهوبين، لكنَّهم يميلون إلى معاملتهم كأغبياء.

46 ـ قول الطفل إنّه لم يُعامَل بإنصاف يعني حقًّا أنّه لم يَنَلْ مبتغاه.

47 ـ يترعرع أطفال اليوم ولديْهم شعور بأنّ العالم مَدينٌ لهم بحقوق وامتيازات لأسباب من بينها عدم تكليفهم القيام بأعمال في منازلهم وافتقارهم إلى أيّ وسيلة أخرى لتنمية إحساس الالتزام تجاه عائلاتهم. وسيؤدّي ذلك في نهاية الأمر إلى إضعاف البلاد ثقافيًا واقتصاديًا.

48 ـ يجب أن يقف الوالد (الوالدة) محاميًا عن الطفل إذا شعر بأن معلّمًا أعطاه علامة أدنى ممّا يستحقّ.

49 ـ يشعر عدد كبير من الوالدين اليوم بأنّ من مسؤولياتهم حماية أطفالهم من التبعات السلبية.

50 ـ تسجّل نتائج اختبارات الكفاءات الدراسية الوطنية تدهورًا منذ أن بدأ الوالدون في مساعدة أطفالهم على إنجاز واجباتهم المدرسية.

أجوبة الامتحان النهائي

ص = صحّ

خ = خطأ

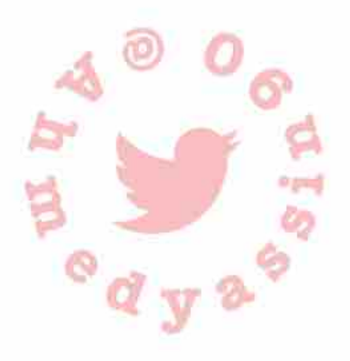
1 ـ خ	11 ـ خ	21 ـ خ	31 ـ ص	41 ـ ص
2 ـ خ	12 ـ خ	22 ـ خ	32 ـ ص	42 ـ خ
3 ـ ص	13 ـ ص	23 ـ ص	33 ـ ص	43 ـ خ
4 ـ خ	14 ـ خ	24 ـ خ	34 ـ خ	44 ـ ص
5 ـ ص	15 ـ خ	25 ـ خ	35 ـ ص	45 ـ ص
6 ـ خ	16 ـ خ	26 ـ خ	36 ـ خ	46 ـ ص
7 ـ خ	17 ـ خ	27 ـ ص	37 ـ خ	47 ـ ص

8 - ص 18 - خ 28 - خ 38 - ص 48 - خ

9 - ص 19 - ص 29 - ص 39 - خ 49 - ص

10 - خ 20 - ص 30 - ص 40 - ص 50 - ص

لكم أنتم أن تقرّروا ما تعنيه نتيجتكم. لكنّ الآباء والأمهات الذين يسجّلون أقلّ من 40 إجابة صحيحة يحتاجون في الواقع إلى تنبيه شديد اللهجة.



مَن هو جون روزموند

مؤلِّف هذا الكتاب، جون روزموند، اختصاصي في علم النفس العائلي وكاتب صحافي تُنشر مقالاته الأسبوعية عن الرعاية الوالدية وتربية الأطفال في أكثر من مائتي صحيفة أميركية. وهو من أكثر المحاضرين انشغالاً وشعبية في الولايات المتحدة. ويتولّى جون روزموند في سنة عادية إلقاء ما يفوق مائتي محاضرة وندوة يحضرها جمهور من الآباء والأمهات والمعلّمين وأصحاب الأعمال والأطباء والاختصاصيين في مهن أخرى.

غير أنّ المؤهِّل الحقيقي لجون روزموند هو أنَّه وشريكة عمره ويلي متزوّجان منذ سبعة وثلاثين عامًا وقد أنجبا طفلين، الابن إريك والابنة آمي، وكلاهما متزوّج وناجح في جميع مناحي الحياة. ولجون وويلي روزموند ستّة أحفاد تتراوح أعمارهم بين سنتين وعشر سنوات. ويقيم جون وويلي في مدينة غاستونيا بولاية نورث كارولاينا الأميركية.

ويشغل جون روزموند منصب المدير التنفيذي لمركز الرعاية الوالدية التقليدية في غاستونيا الذي يدعم الوالدين الراغبين في تربية أطفالهم حسب المفاهيم التقليدية. كذلك ينشر المركز مجلة فصلية اسمها «Traditional Parent» أي الوالد التقليدي أو الوالدة التقليدية. ويقرأ هذه المجلة أكثرُ من عشرة آلاف مشترك في مختلف أنحاء الولايات المتحدة.

References and Suggested Readings

Baumeister, Roy F., et al. "Relation of Threatened Egotism to Violence and Agression: The Dark Side of High Self-Esteem." Psychological Review 103, no. 1 (1996): 5-33.

Baumrind, Diana. "The Development of Instrumental Competence Through Socialization." Minnesota Symposium on Child Psychology, vol. 7, no. 35, 1993.

"Bullies Shove Their Way into the Nation's Schools." USA Today, September 7, 1999, Life section, 1.

Czudner, Gad. Small Criminals Among Us-How to Recognize and Change Children's Antisocial Behavior Before They Explode. Far Hills, N.J.: New Horizon Press, 1999.

Healy, Jane. Endangered Minds: Why Our Children Don't Think and What to Do About It. New York: Simon and Schuster, 1991.

Hymowitz, Kay. Ready or Not: Why Treating Children as Small Adults Endangers Their Future-And Ours. New York: Free Press, 1999.

Kellerman, Jonathan. Savage Spawn. New York: Ballantine Books, 1999.

Newberger, Eli H. The Men They Will Become. Reading, Mass.: Perseus Books, 1999.

Pollack, William. Real Boys: Rescuing Our Sons from the Myths of Boyhood. New York: Owl Books, 1999.

Samenow, Samuel. Before It's Too Late-Why Some Kids Get into Trouble and What Parents Can Do About It. New York: Times Books, 1998.

Whitehead, Barbara Dafoe, and David Popenoe. "Defining Daddy Down". The American Enterprise, September-October 1999, 31-34.

Yeoman, Barry. "Bad Girls." Psychology Today, November - December 1999, 54 - 57, 71.


@Ahmedyassin90

كيف نبني العائلة

المبدأ الأول

العناية هي بالأسرة كلّها لا بالأطفال فقط (أو: الأهمّ قبل المهمّ).

المبدأ الثاني

عندما يتعلّق الأمر بالتأديب
المهمّ هو التواصل لا النتائج.

المبدأ الثالث

الأهمّ هو احترام الآخرين لا الاعتداد الشديد بالنفس.

المبدأ الرابع

الأهمية هي للسلوك والأخلاق لا للمهارات.

المبدأ الخامس

المسؤولية هي الأهمّ لا حُسن الأداء.

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

www.malayin.com



